الحَضارة العَربيَّة

تأليف

جاك. س. ريسلرَ

أستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس

ترجمة

غنيم عبدون

مراجعة

د. أحمد فؤاد الأهواني

الكتاب: الحَضارة العَربيَّة

الكاتب: جاك. س. ريسلرَ

ترجمة: غنيم عبدون

مراجعة: د. أحمد فؤاد الأهواني

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

س. ريسلرَ ، جاك.

الحَضارة العَربيَّة / جاك. س. ريسلرَ، ترجمة: غنيم عبدون ، مراجعة: د. أحمد فؤاد الأهواني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣١٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ١٥ – ٦٨٢٣ ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٩٤١٧ / ٢٠٢٠

الحَضارة العَربيَّة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

هـذا الكتاب

يتخذا المؤلف الحضارة العربية موضوعًا لكتابه ويلقى عليها كثيرًا من الأضواء المنصفة ويؤكد أنها كانت صاحبة السبق بين حضارات العالم أجمع وأنها أم الحضارات جميعًا وعنها أخذت الحضارة الأوروبية وتأثرت بها وتفاعلت معها، وما زال تأثيرها باقيًا وخالدًا في شتى الحضارات.

وقد تناول المؤلف الحضارة العربية بكل ما تحتويه هذه الكلمة الكبيرة من معان، بل وكل ما يتصل بها من قريب ومن بعيد لذلك فقد نقل المؤلف نصوصًا كثيرة متباينة عن مختلف أعلام العرب الذين كان لهم شرف إرساء أسس الحضارة الإسلامية.

وقد أفرد المؤلف فصولا قيمة عن الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفه باعث هذه الحضارة وتناول حياته من مولده حتى مماته، كما تحدث عن القرآن الكريم ونقل عنه كثيرًا من النصوص الدينية.

والنصوص الكثيرة التي نقلها المؤلف من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأعلام العرب وقصائد الشعراء والأدباء وأهل الحكمة والفلسفة والمتصوفة والمؤرخين.. كل ذلك قد تطلب منا القيام بعملية تحقيق واسعة ومضنية.. واسعة لشمول نصوصها وتباينها من دين إلى طب إلى فن إلى صناعة إلى فلسفة.. الخ.. ومضنية للبحث عن الأسماء التي نقل عنها المؤلف والتي كثيرًا ما كانت ترد محرفة تحريفًا شديدًا، أو النصوص التي لم يذكر أصحابها أو مصادرها، أو نقله عن تراجم المستشرقين الذين كثيرًا ما كانوا يترجمون الأسماء العربية بطريقة تبعدها عن أصلها الحقيقي.. هذا فضلا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة والمتناثرة في صفحات الكتاب.. كل هذا تطلب منا جهدًا شاقًا ووقتًا كبيرًا في عملية البحث عن مصادر

هذه النصوص وتحقيقها من مصادرها العربية وترجمتها كما رجعنا دواوين الشعراء وسيرهم للتنقيب في قصائدهم عن الأبيات التي استشهد بها المؤلف وكذلك الحال مع رجال الدين وأهل الحكمة والفلاسفة والعلماء وغيرهم.

والذي دفعنا إلى ذلك هو تقديرنا للحضارة العربية بخاصة، وتقديرًا منا لقيمة هذا الكتاب وما تضمنه من معلومات تشرف العرب وتعلى من شأن حضارتهم..

هذا، ونجد لزامًا علينا إحقاقًا للحق، وإنصافًا لمؤلف الكتاب، أن نزن ما تضمنه الكتاب من معلومات طريفة وشائقة بميزان العدل والمنطق. وقد لاحظنا أن المؤلف لم يكن موفقًا في بعض نقاط قليلة بادرنا بالرد عليها في حاشية الكتاب، وإن كانت هذه النقاط التي لم يحالفه التوفيق فيها لم تقلل من قيمة الكتاب لما فيه من حقائق وأدلة ساطعة أوردها المؤلف في هذا العرض الجميل البديع عن بلوغ العرب لحضارتهم مبلغًا لم يدانهم فيه أي شعب آخر، والذي أثبت فيه حججًا قوية كانت ولا تزال مصدر إلهام روحي لكل شعب يبغى التقدم والرقي.

ولا ريب في أن المؤلف قد أنصف الحضارة العربية وأبرز مكانتها ودورها الكبير في تاريخ الإنسانية وكيف تأثرت شتى الحضارات بها نظرًا لأصالتها وعمقها وشمولها وسعة آفاقها الرحبة وذلك كله بطريقة موضوعية وتحليل دقيق وتركيز رائع على الجوانب المضيئة فيها..

وكنا نعتقد أن المؤلف بنزاهته وحيدته وموضوعيته سيستمر في مؤلفه حتى نهايته إلا أنه في خاتمة الكتاب تطرق بالحديث إلى الدول العربية ووصفها بأن الضعف قد دب في كيانها في القرن التاسع عشر وأصابتها حال من الركود والاضمحلال كما أنها وقعت فريسة للفقر والكساد الأمر الذي جعلها عاجزة عن اللحاق بركب الحضارات الحديثة..

ولا شك أن هذا الرأي إنما يصدر عن نزعة استعمارية وتعصب أو ربى كما أنه مردود عليه بأن ما أصابها لم يكن ليصيبها لولا الاستعمار نفسه الذي كان جل

هدفه وغاية مسعاه أن يقبض على زمام الأمور فيها ويخمد أنفاسها ويثبط همتها ويضعف من قدراتها الإنتاجية حتى تكون له السيادة والمنعة وليطمئن جانبه.. ومن الواضح أن جذوة القوة والقدرة والكفاية لم تنطفئ تمامًا وإنما اشتعلت ثانية في أوائل هذا القرن وعندما اندلعت الثورات الانتفاضية البطولية والحركات التحررية لتزيح عن نفسها هذا الكابوس الثقيل ولتبعث من جديد عوامل الحيوية والخلق والبناء حتى أصبحنا ندرك –وكذلك المؤلف نفسه– تلك النهضة المباركة التي أخذت تعمم سائر الدول العربية من المحيط حتى الخليج وأشرقت شمس حضارتها بعد ليل قصير واستطاعت أن تكون كما كانت قوة عظيمة لها ثقلها ومكانتها التي يحسب حسابها في الميدان الدولي

المترجم

مقدّمة

إن أمنيتنا المخلصة أشد الإخلاص تقوم على أن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على ممر العصور. لقد وقف الرجل الغربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سر غامض، فلم يك مألوفًا له رد أي فعل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كل نهج في وجود هذه الروح وفي الإحساس بها وفي قوتها الدافقة.

وثمة هوة عميقه في الحقيقة تفرق بين هذين النمطين من الأفراد، إذ يتميز النمط الأول منهما بالفطرة والصوفية[١]، والآخر بالعقل المنطقي. وبينما يحاول الغربي أن يدرك الحقيقة عن طريق القياس الديكارتي، إذا بالعربي يترقبها من الله وحده. ويلتزم أحدهما، دون التشكك في ذلك، بما ينتهي إليه حكمه الذي قد يخطئ فيه أحيانًا، وينقاد الآخر دون مناقشة لأوامر القرآن والسنة[٢].

ويتيح هذا التقرير البسيط معرفة مدى المسافة الشاسعة التي تفصل بين

---

(١) ... وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادي، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة، هو القلب أو الروح والبصيرة. إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية، أو الكشفية، أو الإلهامية، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصيري في قوله: «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. [عن المكتبة الثقافية – الرسول صلى الله عليه وسلم– لمحات من حياته، ونفحات من هديه –تأليف الدكتور عبد الحليم محمود – ص٨٠].

(المترجم)

(٢) .. دون مناقشة.. لأنها أوامر موحى بها من عند الله، وتنزيل من رب العالمين، ثم كان الرسول بسنته مبينًا لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}. (المترجم)

الشرقي والغربي. الحق أن الشرقي لا يخلو من الافتنان بتقدم أية حضارة مشرقة، ولكنه يعرف أن مستقبل المعرفة محدود وأن مصير الإنسان قائم بين يدي الله.

إن هذا الكتاب الذي يحكي تطور العالم العربي نسجت معالمه. ودقائقه مع صديقي العقيد بيير كالفيه (**Pierre Calvet**) إذ أن تبحره في الثقافة ومعرفته الوثيقة بالأمكنة التي قامت فيها مواطن الحضارة العربية كانا ضروريين لإحضار هذا المؤلف، ضرورة المواجهة الدقيقة لأفكارنا.

ونترك الآن سطور هذا الكتاب لتقدير القارئ..

وأرجو أن يكون فيما أدرجته من بعض قصائد من أجمل القصائد العربية المقتبسة من كتاب أميل درمنجم (**Emile Dermenghem**) سبيل إلى إضفاء شيء من الطلاوة والإيضاح على عرض جاف للغاية في بعض الأحيان.

ج. ريسلر

الباب الأول

الأسس

(١) في عصور ما قبل الإسلام

إطار الشرق الجغرافي

الشرق منطقة مترامية الأطراف من السهوب ومن الصحاري تمتد إلى جنوب البحر المتوسط وإلى شرقه، فالبلاد التي جرت العادة أن ندل عليها بتلك التسمية العامة، والمتأثرة في الوقت الحاضر أشد التأثر بالحضارة الإسلامية وبالدين الإسلامي، قد اشتهرت عادة باسم «الدول الإسلامية»، وعلى امتداد هذه الرقعة من الأرض يتحدث الناس باللغة العربية ويكتبونها، هذه اللغة التي ظلت منذ ظهور النبي (ﷺ) الدعامة الأساسية لحضارة مشرقة.

إن ما يثيره العالم الإسلامي في خيال الرجل الغربي، صور شتى لأراض مشمسة، واتساع مهوش جاف لا حدود له، وقحل تحت سماء لازوردية ذات ضوء وضاء متلألئ بنجوم لا حصر لها أثناء ليال شفة وغامضة. ويشاهد هنا وهناك واحات ذات نسيم، وخضرة وسط طبيعة رملية وصحراوية وكأنها جزر مبعثرة على مساحة واسعة رملية.

هذا العالم الذي قدر له أن يكون معبر الوصول من الغرب إلى الشرق يحتل وضعًا جغرافيًا خاصًا، كانت نتيجته الأولى تقسيم المواطن الرئيسية للجنس البشرى في الشرق. ولقد شطرت طبيعة التربة وطبيعة الجو شعوب الشرق إلى بدو وحضر،

محددة بلا قصد مصير هؤلاء الحضر في الواحات دافعة –على العكس– البدو للبحث عن سهوب ذات أعشاب ومراع.

والجزيرة العربية التي يبدو أن أسلاف جميع الشعوب السامية تنتسب إليها هي أكبر شبه جزيرة في الكرة الأرضية وتمتد على مساحة ٢٨٠٠ كيلو متر طولا و٢٠٠٠ كيلو متر عرضًا في جزئها الجنوبي. وهي جيولوجيا السلسلة الطبيعية للصحراء التي تمتد من وسط هضبة إيران حتى صحراء جوبى. فهي إذن جزء من «المنطقة الحرام» الهائلة تلك التي كانت تشكل قديما سدا يصعب اختراقه بين المجموعات البشرية الكبرى الثلاث، الجنس الأبيض والجنس الأسود والجنس الأصفر. وفي وسط الجزيرة العربية، ترتفع الهضبة فجأة إلى ارتفاع ٣٠٠٠ متر بمحاذاة البحر الأحمر وتهبط بعد ذلك في منحدرات سهلة تجاه الخليج الفارسي.

تشتهر الجزيرة العربية بجفافها ودرجة حرارتها الشديدة، ولم يساعد البحران المحيطان بها من الشرق ومن الغرب، على تلطيف الجو (المناخ) الاستوائي لهذه الرقعة الشاسعة المتصلة من الصحراء، بل إن الرياح الموسمية لا تكاد تبلغ الشاطئ حتى تفقد كل قوتها. وفي داخل الهضبة إلى الشمال، تسود السهب مع صحراء كبيرة تسمى النفود، وفي الجزء الجنوبي تمتد صحراء أخرى هي الربع الخالي، والشريط الساحلي هو الوحيد الملائم للسكنى على عرض رفيع، وتتخلله واحات منثورة متباعدة بمئات كثيرة من الكيلومترات.

وفي الحقيقة لا ينبت في هذه الأرض الجدباء إلا أشجار النخيل، والكروم، وبعض الحبوب. وبعض أشجار الفواكه. ومن عجائب الأمور أن الإسلام نشأ على ضفاف البحر الأحمر، وشواطئه، وفي الحجاز وسط الهضاب الصخرية التي تعبرها وديان ضيقة، والتي تشرف عليها جبال جرداء، على حين أنه في أقصى الجنوب توجد اليمن وهي إقليم خصب نسبيًا وحظه من الثروة أعظم فهي بلاد البن والبخور، والصبر، ونباتات ذات رائحة ذكية، وزيوت لا غنى عنها. ومع أن هذه

الثروة المتواضعة جعلت من اليمن موطن الممالك القديمة للعرب، فكانت بذلك مهدًا أكثر استعدادًا لتلقى الدين الجديد، إلا أن القدر أراد أن تقوم المدن المقدسة في الحجاز على الرغم من محاربة الطبيعة لها.

ونلاحظ بنفس الدهشة أن نقطة الانطلاق الجغرافية لأعظم الانقلابات الدينية لا تبعد كثيرًا في هذا الجزء المختار من الجزيرة العربية التي ثبتت في الشمال كأنها رقعة مستديرة في بلد الحضارات القديمة إلا أن هناك تحت شكل قوس دائري يطلق عليه الهلال الخصيب تنبسط من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر بلاد الكلدانيين، وبلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين، ومن الشمال إلى الجنوب، وعلى ضفاف البحر المتوسط، يمتد الشاطئ الفينيقي. وبموازاة هذا الشاطئ تمتد مجموعة من الجبال يبلغ بعض قممها ٢٠٠٠ متر، وتفصل البحر عن بقية هذا القطر. وتشق وديان طرابلس والناصرة هذه المجموعة من الجبال التي تحيط بلبنان. ويؤدي منفذ طرابلس إلى منعطف الفرات وإلى ما بين النهرين وإلى بلاد الكلدانيين التي تربط أوربا بآسيا، وهذا هو الطريق الكبير للهجرات كما أنه في الوقت نفسه طريق الغزوات، ويؤدي منفذ الناصرة من الجنوب ذو الأهمية القليلة الاستراتيجية، إلى فلسطين وإلى سوريا وإلى الصحراء. وبين هذين البابين الوحيدين المطلين على مؤخرة الإقليم، كانت تتدرج قديمًا كبريات الموانئ الفينيقية مثل صور وصيدا وجُبَيِّل وأرجوس وقد زال بعضها في الوقت الحاضر.

ومن الجانب الآخر من الهلال الخصيب بين صحراء سوريا ومدرجات إيران في سهل طوله ٢٠٠٠ كليو متر وعرضه ٤٠٠ كيلو متر، يجري في نفس الاتجاه نهرا دجلة والفرات اللذان ينحدران بشدة من سلسلة جبال طوروس ثم يأخذان في الانسياب عند وصولهما إلى السبل الذي يحق لنا أن نصفه بأنه «هبة هذين النهرين» فعلى غرار نهر النيل تغمر مياه هذين النهرين القرى المجاورة في فصل الربيع. وكانت تمنح فيضاناتهما التي كانت تتجمع مياهها –قديمًا– بطريقة منتظمة إلى البلد، خصبًا لا مثيل له. كما كانت تصنع من بلاد ما بين النهرين إقليمًا من

أراض زراعية فريدة في نوعها. وعلى نهر دجلة، تقوم بالتوالي: سلوقيا والمدائن – التي تقع مكانها اليوم بغداد– ثم لينوي بالقرب من الموقع الحالي للموصل. وكان النهران في سالف الزمان يصبان منفصلين في الخليج الفارسي[١]، وعندما ما تراجع البحر رويدًا رويدًا على مر العصور، تجمعا تحت اسم شط العرب في هذا الفضاء الجديد الذي يشكل إقليم البصرة الذي لم يكن له وجود في العصور القديمة.

كانت بلاد الأشوريين الشمالية وبلدان الكلدانيين الجنوبية تتدرج تمامًا بين النهرين، وعلى الشاطئ الأيسر عند منتصف نهر دجلة كانت تتنافس بلاد عيلام في ثروتها مع بلاد ما بين النهرين. وهناك عند مصب هذين النهرين وفي باطن مهول من الطمي، ازدهرت الحضارات القديمة، التي صعدت بعد ذلك إلى منابع النهرين، فحضارات أوروسيرتلا على الشاطئ البحر، وبابل ثم لينوي تشير إلى مراحل هذه الحضارات القديمة المتعاقبة. وفي وسط قطر غنى، كانت بابل على اتصال مع آسيا العليا والمحيط الهندي عن طريق نهري دجلة والفرات، ومع الفرس والعالم العربي من الشرق والغرب بوساطة طرق القوافل. وكان المرء يلاقى في هذا المركز من الأسواق المهمة، ملاحين وتجارًا قادمين من أفريقية، ومن الجزيرة العربية، أو من الصين النائية. وهناك، كانت القوافل التي تزيد القافلة منها على أكثر من ألف جمل، تتوالى الواحدة بعد الأخرى رابطة الهند وفارس مع آسيا الصغرى والبحر الأسود من جهة، ومع سوريا وفينيقية ومصر من جهة أخرى.

كل ذلك في سالف العصور، أما اليوم فمن الصعب علينا أن نتصور أن هذه البلاد المليئة بالمستنقعات[٢] والتي تلفها الصحراء والأخاديد كانت أكثر الأقطار

---

(١) يطلق عليه اليوم الخليج العربي.

(المترجم)

(٢) من الانصاف أن نبادر فنقرر أن هذه البلاد بعد أن رحل عنها الاستعمار، أخذت تسترجع ماضيها الزاهر وحضارتها القديمة، واستخدمت أساليب التقدم والعمران الحديثة فردمت المستنقعات وعمرت صحاريها. (المترجم)

خصبًا في العالم، وفردوس العصور الماضية، كما أن فيها النهر ذا الشواطئ الغنية التي حشد لديها الرومان –يوما ما– أسطولا من ألف سفينة محملة بالرجال المستعدين للانقضاض على فارس.

ولعلنا لا نستطيع البحث في مشكلة الشرق المتشعبة دون التحدث عن مصر.

تملك مصر القديمة كثيرًا من الخصائص التي تقربها من بلاد الكلدانيين وبلاد الأشوريين، فكما أن هذين القطرين الأخيرين يتمتعان بثمرات الأنهار التي ترويهما، فإن مصر هي كذلك «هبة النيل». وجملة القول عن هذا القطر الصحراوي من شمال أفريقية أنه واحة طولها ألف من الكيلو مترات وعرضها ١٢٠ كيلو متر. وهناك أيضًا نشأت الحضارة في دلتا النهر وصعدت بعد ذلك نحو منابعه. لكن، مطاوعة إلى الاتجاه الذي قدرته الطبيعة في هذه البلاد التي تعد معجزة النهر، قد امتدت الحضارة من الشمال إلى الجنوب. ونشأت منفيس واتسع نطاقها أولا، ثم ظهرت بعد ذلك حضارة طيبة. ثم شيئًا فشيئًا أخذت التربة العضوية الغزيرة الممنوحة من العناية الإلهية والتي جلبتها فيضانات النيل، تملأ أرض مصر بثرواتها، وتحيلها بلدًا يثير الإعجاب لا يضارعها في خصبها إلا بلاد الكلدانيين. ولما كانت أقل تعرضًا من الأخيرة للأخطار، ومحمية من كل جانب بوساطة البحر والصحاري التي تحيط بها فقد أمكنها أن تتطور في مأمن من الغزوات الأجنبية.

مهد الديانات وأصلها ومبدؤها

إن التاريخ الأساسي للشرق إنما يتجلى قبل كل شيء في تطور الأديان التي بزغت في هذا الجزء الفريد من الكوكب الأرضي. وقد انتشر الإسلام على الأرض التي سبق لها أن مهدت لنشأة اليهودية والمسيحية. ومن ثم فإن الديانات الثلاث الكبار التي قدر أن تتقاسم العالم المتحضر فيما بينها، قد ازدهرت بالتوالي على نفس التربة القاحلة. إذ يقع بيت المقدس على مسيرة بضعة أيام من جبل سيناء،

والمسافة من هذا الجبل المقدس حتى مكة لا تكاد تكون أكثر طولا. ويزداد عجبنا في بيت المقدس حيث تختلط آثار الأماكن المقدسة فعلى بضع خطوات من قبر السيد المسيح أقيم جامع عمرو فوق أساس معبد سليمان، قدس أقداس الإسرائيليين. وفي وسط هذا الجامع المحاط بسور من حديد أقامه الجنود الصليبيون، توجد الصخرة التي استعد إبراهيم أن يذبح إسحاق[1] عليها. وقد استخدمت هذه الصخرة كمذبح للقرابين خلال ألف من السنوات، وهنالك وهب للعذراء الابن يسوع، ومن هذا الحجر ذاته عرج محمد عليه السلام في رحلته الروحانية. ولقد قدر لهذا الركن الركين للوحدانية الذي نشأ مع داود وسليمان، أن تنبعث منه آلام المسيح وأنوار محمد ﷺ، وهكذا تتجلى أعظم الذكريات لتاريخ البشر في بقعة لا تزيد مساحتها عن بضع أقدام مربعة.

ومهما يكن الإطار الجغرافي للأماكن المقدسة الوارد ذكرها في «القرآن» مثيرًا للدهشة، فإننا ندهش أكثر من تبيان أن ظهور الأديان المنزلة في تلك الأماكن المقدسة كان متأخرًا جدًا. والحق أننا أمطنا اللثام عن البوادر الأولى لما أضحى فيما بعد مجموعة الأفكار الدينية قبل ظهور الديانات المنزلة بكثير، خلال أكثر عصور تاريخ البشرية إيغالا في القدم.

وقد ارتبطت رويدًا رويدًا هذه الفكرة البدائية والغامضة لأي دين بقوى خفية خيرة أو شريرة. وبآلهة من الواجب خشيتها أو تمجيدها والتي لعلها اقترنت لدى الإنسان بفكرة أخرى، فكرة بعث الإنسان بعد الموت. وكانت فكرة بعث الإنسان بعد الموت تقتضي سلامة جسم الإنسان في الدنيا، وكانت هذه الفكرة منشأ الطقوس الدينية الأولى والشعائر التي كان هدفها حفظ الأجساد بعد الموت. ولما كان القرين هو الذي يبعث المرء ويمد في عمره، فلا جرم أن يحافظ على هذا

---

(1) الذي يعتقده المسلمون –كما جاء في القرآن– أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق.

(المترجم)

القرين في حالة جثمانية كاملة. ومن أجل ذلك أعدت الأديان القديمة القبر أو التابوت لكي تتوفر جميع فرص بقاء الصور البشرية القابلة للفناء.

أخذت فكرة عالم أفضل وفقًا للعدالة ترتبط في ذهن البشر رويدًا بفكرة البعث بعد الموت. وفي «كتاب[1] الموتى» وهو كتاب طقوس مصرية ينظر إليه على أنه من أصل إلهي، يدافع الميت عن قضيته أمام المحكمة التي تقف بباب الجنة قائلا. «يارب الصدق والعدالة إني لم أغش الناس، ولم أعذب الأرملة، ولم أكذب قط».. ومن أجل هذا فقد ظهر رويدًا رويدًا بالنسبة للإنسان ضرورة الامتثال لقانون إلهي أو إنساني، ولنظام مرضى عنه إلى حد الرضا بالجزاء، أعني الرضا بالعقاب أو الثواب وفقًا لنوع الأفعال التي أديت عن طريق الفرد في أثناء حياته الدنيوية. وهكذا فإن الإنسانية سبقت إلى تصور ما ستكون عليه الديانات بعد نزولها، وما سيكون عليه القانون، هذا القانون الإلهي الذي كانت تنتظره الإنسانية بحماسة وشوق شديدين.

إن الكتابات المسطورة في أوراق البردي القديمة وفي النحت والرسم المعاصرين للحضارات التي اختفت، تشير إلى جهود الإنسانية في الشرق وهي تحمل في أحشائها فلسفة ميتافيزيقية لا غنى للإنسان عنها كي تمنحه قوة الحياة. ويثير تصوير بدن الميت، والتماثيل المجنحة أو ذات الريش إلى أن الإنسان قد تخلص من نقائضه الفانية، على حين أن وفرة تصوير محكمة توزن أمامها الأعمال

---

(1) ذلك اسم حديث أطلقه لبسيوس على نحو ألفي ملف من ورق البردي وجدت في عدة قبور، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغا لإرشاد الموتى. واسمها المصري هو: الخروج (من الموت) بالنهار. ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام، ولكن بعضها أقدم منها. ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله. وقد جاء في الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه في عين شمس وأنه كان «بخط الإله نفسه». [عن قصر الحضارة. الشرق الأدني –تأليف ول ديورانت– ترجمة محمد بدران ص١٦٣].

(المترجم)

الخيرة أو الشريرة في كفتي ميزان، تؤكد عقيدة خلود الروح التي يمكن أن تكون سعيدة أو شقية تبعًا لدرجة سمو الأخلاق للفرد.

وفي الحقيقة، لقد كشف المستشرقون معتقدات وشعائر هي علامات على طريق مذاهب ستظهر فيما بعد، قبل ظهور الأديان الثلاثة المنزلة دينًا بعد آخر. وتعرض الآثار وأوراق البردي قضايا العدل الإلهي، والجنة، والنار، وشجرة الحياة والمعرفة، والمرأة والأفعى، والطوفان. ويؤكد «كتاب الموتى» أنه بعد العصيان والقصاص يتحمل الإنسان وذريته وزر خطيئة حياتهم تكفيرًا عنها وفي كل لحظه، يمكن أن نلاحظ أن الفن المصري والأشوري والكلداني، وكذلك الأدب العبري أو الأدب الفارسي في «زندافستا» كان مشبعًا بالاهتمام الدائم لبقاء الإنسان المستمر بعد الموت.

أجل، لقد قيل كل شيء منذ وقت طويل. فهذا أفلاطون في محاورة طيماوس يلقى على لسان المتحاور المصري هذا القول المدهش: «أنتم أيها الإغريق الآخرون، أنتم لستم إلا أطفالا، ولا شيء لديكم يحمل طابع حضارة موغلة في القدم».

لكن، يجب الاعتراف بأن أية عشيرة من العشائر الدينية في أي وقت من العصور القديمة لم تكن قد أكدت إيمانها بالدستور الأخلاقي للعالم نحو نهاية عادلة ونبيلة على يد إله متعال، مما يعد نقصًا كبيرًا اخذت الديانات المنزلة تتلافاه.

وفي سعي الإسلام إلى «المطلق»، نبذ لشدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته، عقيدة الثالوث المقدس مبتعدًا في ذلك عن المسيحية التي كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها في ألوهية ثلاثة أشخاص. ولقد احترك الإسلام احترامًا نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى منزلة، وسلم(1)

---

(1) القرآن لم يستلم بالتوراة والإنجيل تسليما مطلقًا، بل قرر أنهما محرفان.
(المترجم)

بما جاء في الكتاب المقدس من روايات يهودية نصرانية. وقد أشار النبي عليه السلام للدلالة على صدق رسالته إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق، وكان على غرار المسيحية يحفل بالعقيدة أكثر من اهتمامه بالسلوك ذاته للفرد.

وإذا بحثنا عن رأي عام فيما يختص بأصل الأديان المنزلة، نلاحظ أن الأديان الثلاثة قد تأثرت بمفاهيم معينة كانت موجودة من قبل في الشرق عن طريق مفاهيم أكثر شرقية، خذ مثالا لذلك فكرة حساب الأرواح بعد الموت تجد أنها تمت بصلة إلى المذاهب الفارسية لزرادشت تلك التي أسهمت من وجهة أخرى إسهامًا معينًا في الأديان الأخوية الثلاثة. وفيما يحتص بتلك الأديان الثلاث، وبصرف النظر عن بعض الخلافات بينها، يجدر بنا أن نليه إلى أن التشابه بينها جوهري متعدد الجوانب. وقد حث محمد (صلى الله عليه وسلم) –بكل تسامح وقوة إدراك في الوقت نفسه– اليهود على إطاعة شريعتهم، والمسيحيين على إطاعة أناجيلهم؛ وعلى أن يرتضوا القرآن خاتم الكتب المقدسة والدين والإسلامي خاتم الأديان المنزلة.

وصفوة القول: تلك هي على الجملة المظهر العام لنشأة الأديان وأول مبدأ للحضارة ستحاول هذه القوى الروحانية الثلاث، التوراة، والتلمود، والقرآن، وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في العالم الذي أصبح بربريا، ستحاول إعادة تنظيم الشعوب والنفوس، وغزوها كذلك. وتتركز مأساة التاريخ الغربي للعصر الوسيط في الصراع الدامي غالبًا بين هذه الأديان الأخوية الثلاثة.

(٢) شعوب الشرق

نشأت المواطن الحضارية العربية الأولى على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية في المناطق الخصبة نسبيًا من الحجاز وبخاصة من اليمن، وفي هذا القطر الأخير يصادف المرء آثار مملكة سبأ التي اتصلت ملكتها بسليمان قبل الميلاد بألف سنة. وكان لزلماً على الحميريين –وهم شعب اليمن الذي كان يهيمن على العلاقات التجارية البحرية بين الهند ومصر– أن يغزوا سكان سبأ قبل العصر الميلادي بقليل.

وبصرف النظر عن هذه التجمعات البشرية التي نشأت في موقع جغرافي لا مثيل له على أطراف مساحة شاسعة من الصحراء، كان العرب لا يرتضون أية تبعية ولا إجبار على الإخلاص والخضوع، اللهم إلا أن يكون ذلك لقبيلتهم.

العرب البدو:

وكان الجزء الأكبر من السكان في الجزيرة العربية لا يزال بدوًا. فإن رعاة الغنم من البدو الذين يشكلون حتى اليوم هذه الأقوام الرحل من أفريقية الشمالية ومن الجزيرة العربية ذاتها يعيشون في الخيام كأسلافهم منذ عصور موغلة في القدم، ويتجولون بقطعاتهم بحثًا عن مراع تبعًا لفصول السنة والأمطار. وبداوتهم أو بعبارة أخرى، هذه الخاصية للانتجاع هي التكيف الوحيد الممكن للإنسان وفقًا لطبيعة جدباء تحت شمس لا يخمد أوارها.

في عصر ما قبل الإسلام، كانت كل أسرة عربية تملك خيامها، ويشكل مجموع هذه الخيام، عشيرة، وبتجمع العشائر ذوي القربى تتآلف القبيلة. وكان التضامن مطلقًا بين أعضاء القبيلة الواحدة، بينما نجد موقفها مع القبيلة المجاورة مختلفًا تمام الاختلاف إذ تصبح الأخيرة فريسة تترصدها للهجوم عليها ونهبها.

ويتولى الرئيس (السيد، القائد) قيادة التشكيل القبلي، وينتخبه مجلس القبيلة (الجماعة) مراعاة لثروته أو لصفاته الحربية.

والجمل والحصان هما عنصران لا غنى عنهما للبداوة القبلية، ذلك أن الجمل في حياة الصحراء يلعب دورًا رئيسيًا لأن صبره واحتماله يتجاوزان الخيال، وليست هاتان الصفتان الوحيدتين لهذا الحيوان الخارق للعادة لأنه ليس «سفينة الصحراء» فقط ولكنه ضروري أيضًا للاقتصاد المنزلي: يشرب لبنه، ويستخدم «بوله» كدواء مقو عجيب، وروثه السليلوزي يكون قابلا للاحتراق بشدة، وأخيرًا، يذبح بعد أن يذرع المساحات الشاسعة من الصحراء حلا وترحالا دون ضعف ولا وهن، ويؤكل لحمه، وتصنع من وبره وجلده الملابس والخيام.

وينافسه الحصان، وهو حيوان كريم جافل، وقد اشتهر من أجل ذلك لكن العناية به أصعب. ويتخذه البدوي صديقًا له، وقد سجل الشعراء في قصائدهم كثيرًا من القصص التي تروى عنه، وتربو الكلمات التي تشير إلى الحصان في مفردات اللغة العربية على الألف، ولا عجب فقد كان لسرعته ونشاطه أعظم الفضل في كسب غارات لا تحصى كانت القبائل تنهض بها حفظًا لحياتها.

يستطيع البدوي المولع بالخلاء الفسيح والأفاق الشاسعة، الصبور كجمله، النشيط كحصانه، أن يعيش على تمر ولبن، وأن يقضي شعارًا من حياته في حرب، وهجوم، وغزوات. وهذه هي الشواغل الوحيدة الخليقة به، لكن غريزته كرجل صيد، كثير السلب والنهب، محب للقتال، مفتون بالنساء عاشق لهن، عشقه لحصانه. هذه الغريزة يعوضها إلى حد ما كرمه ونبل خلقه وإحساسه السامي بكرم الضيافة والشرف.

هذه الصورة تمثل الشخصية الرئيسية للعربي بطل صحراء الجزيرة العربية قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكثير، ومنذ العصور القديمة حتى أيامنا هذه، ودون أن يعرف المرء من أي مكان تقبل هذه الشخصية يراها تنقض فجأة وهي تعدو على

ظهر حصانها تجاه أماكن مختارة من الهلال الخصيب، وعلى قوافل تسلبها أو تفرض عليها فدية، ثم تعود إلى نجعها الذي يصعب الوصول إليه حاملة غنيمتها وهي تركض في أقصى سرعة.

وكانت المنطقة الأكثر تعرضًا على الدوام لضربات قطاع الطرق في الصحراء هي: بلاد الكلدانيين وسوريا.

الكلدانيون والأشوريون

يعد الكلدانيون من الساميين الذين نجهل ماضيهم السحيق على الرغم من أحدث الكشوف، ذلك أن سفر التكوين قد وضع مهد الإنسانية في بلاد الكلدانيين فيما بين نهري دجلة والفرات، والأساطير الكلدانية غنية بالأحداث التي تسترجع بطريقة عجيبة قصة الطوفان، وبرج بابل، ومغامرات نوح وتشتت اليهود.

لم تكن هناك فروق رئيسية بين الشعبين الأشوري والكلداني اللذين كانا يعيشان جنبًا إلى جنب. وتكشف النصوص المسمارية أنه إذا كانت السيادة تراوحت طيلة ١٠٠٠ عام بين بابل ونينوي، فإن الحضارة والطبائع واللغة والمعتقدات ظلت مشتركة بين الشعبين.

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، اشتغل الذين استقروا في بلاد الكلدانيين بالزراعة وبناء المدن. ومن أجل هذا أنشئوا أوروسيرتلا وبابل. وإذ كانوا يمتازون بالنشاط والمهارة فقد شقوا قنوات وأقاموا سدودًا على طول الأنهار وأصلحوا الأرض وأعدوها للري. وبمجرد أن أنجز الكلدانيون هذا العمل التمهيدي باشروا بعد ذلك استعمار المنطقة الجبلية، وأسسوا مدن آشور، وسنجار، وكلخ، ونينوي، وبعد أن أخضع المصريون فيما بعد بلاد الكلدانيين إخضاعًا مؤقتًا، هب الأشوريون، وهم سكان الجبل الذين تدفقوا على الأقطار المجاورة، يشددون من سيطرتهم على بقية الشرق.

وتتابعت خلال ألف سنة على هذه المنطقة الغزوات والخراب والمذابح بين

كر المنتصرين وفر الملعوبين. هكذا بدأت الشعوب الشرقية تلك السلسلة الطويلة من الحروب التي يقتتل فيها الأخ مع أخيه والتي انقضَّت دون هوادة على هذا الجزء من العالم. وقد ظهر الميديون والأسكيذيون[1] والفرس بدورهم على مسرح هذه الأحداث. وكان كانت الفكرة الدينية عند هذه الشعوب القديمة لا تزال مبهمة. ففي الوقت الذي كان السلطان فيه في يد الملوك، كان أيضًا في يد كبار رجال الدين، وكانت آلهتهم لا يحصيها العد. وكانت العقول مضطربة بسبب ما توحى به خرافة القوى الخفية الشريرة من رعب وفزع. كما أنه كان للساحر والراقي قدرة على إدخال الذعر على أشد الناس قوة. ومهما يكن من غرابة في انتشار هذه الخرافات؛ فإن الأكثر غرابة أن تحيا هذه الخرافات على مر الأيام وتنتقل حتى تصل إلينا. وفي الحق أن سر الطبيعة وقواها الخفية مازالا يستميلان الفكر البشري.

ومهما يكن أمر ذلك، وعلى الرغم من تقلبات مصير الكلدانيين والأشوريين، فقد شغلوا مكانًا مرموقًا في أصول الحضارة. وقد وضعوا أسس المبادئ الأولى للتنظيم الاجتماعي، ولكن ظهر أن هذه المحاولة كانت شاقة وعسيرة.

صحيح أنه لم يبق شيء بعد من حضارتهم الأولية، لكن عناصرها التي نشرتها هذه الشعوب تفرقت في أنحاء العالم، حق ليحق للمرء أن يقول إن «الرياح حملت بذورًا أخرى كثيرة غير الحبة المقدسة من القمح لتنثرها على أراضي الغرب» من هذه القرى الخصبة التي ذهب العرف إلى أنها مكان جنة عدن. ولا نتجاوز الواقع إذا أضفنا إلى ذلك أن «هذين الشعبين بذرا في الأمم الخاملة أيضًا بذور جميع الفنون المفيدة وبواعث الفكر».

([1]) قبائل همجية قديمة، كان أكثرهم بدوًا يقطنون الشمال الشرقي من أوربا، والشمال الغربي من آسيا، لقد جاء ذكرهم على لسان المؤرخ اليوناني هيرودوت، غزوا بلاد ما بين النهرين في القرن السابع قبل الميلاد، وانتصروا على قورش، وقهروا دارا في عام ٥١٣ق م، ثم اختفوا من التاريخ حوالي القرن الأول الميلادي، ولقد عثر الحفارون منذ سنوات قريبة على أثر لأحد الملوك الاسكيذيين على مقربة من مدينة «ساكين» في جنوبي بحيرة أورحيا في الكردستان. (المترجم)

الفرس

كان أثر الفرس أعمق في هذه المجموعة من الشعوب وهذه البدايات من الحضارات وكانت. الإمبراطورية الفارسية تمتد من نهر دجلة إلى الهند، ومن بحر قزوين إلى المحيط الهندي على هضبة شاسعة منفصلة عن البلاد المجاورة بوساطة مدرجات عالية، ووسط الهضبة التي يوجد فيها بعض الواحات القليلة المنتشرة التي تتميز بطبيعة صحراوية بينما يهبط جنوبيها على شاطئ شديد الحرارة غير صحي.

وهناك عدد وافر من القرى والمدن المنشأة على شواطئ عدد كبير من الأنهار التي تروى وديانًا خصبة كانت تتوارى حول الهضبة وفي متعرجات منطقة التلال. وظلت الحياة ووفرة الأقوات مركزتين في هذا الموضع الذي كانت ترعي فيه قطعان الغنم، والذي استطاعت الحبوب فيه أن تنمو بسرعة فائقة، على حين كانت هناك حدائق غناء تثمر فواكه لذيذة الطعم. وكانت الضرائب في هذه الأرض الخصبة أقل عبئًا منها في الإمبراطورية الرومانية، ومع ذلك كانت الخزانة الفارسية أكثر ثراء من خزانة الأباطرة. ومن أجل ذلك أفضى كمال هذا الجهاز الإداري إلى أن يأخذ به العرب منذ انتصارهم على الفرس دون تغيير.

وتاريخ بلاد فارس خاضع كذلك لموقعها الجغرافي الذي حملها على الدفاع عن نفسها دفاعًا مستمرًا. فمن جهة آسيا ضد العصابات البربرية، ومن جهة أوروبا ضد الإغريق والرومان. وفي القرن السادس قبل الميلاد كان ملكها قورش[1] قد فتح العالم القديم وفي القرن التالي اجتاز دارا[2] سيد الشرق في ذلك الزمان البوسفور

---

(1) مؤسس الإمبراطورية الفارسية (٥٦٠- ٥٢٩ ق. م)، هزم ملك الميديين، واستولى على ليدبا في آسيا الصغرى، وبابل، وبذلك أصبح حاكم آسيا الغربية كلها، واستمرت إمبراطوريته قرنين من الزمان. (المترجم)

(2) ملك الفرس من عام ٥٢١ إلى عام ٤٨٦ق. م، غزا الهند، واخضع تحت سلطانه إقليمي طراقيا ومقدونيا، لكنه هزم على أيدي اليونانيين.

(المترجم)

وتوغل غربًا حتى عبر الدانوب. لكن بعد موت دارا انهزم ابنه اكسركسيس في سلامين، وفي مدينة بلاتيه[1]، وسقط خلفاؤه تحت ضربات الإسكندر في سنة ٣٣٠. ثم إن قامت به فارس من حروب مستمرة، ومعارك وجب أن تخوضها مع الرومان، إلى جانب ألوان النزاع الداخلي في بلادها، كل ذلك أسرع بها إلى الفوضى.

لهذا السبب، استطاع الحاكم العربي في سوريا سنة ٦٣٤ أن يشير على الخليفة عمر بأن هذه الإمبراطورية ثمرة يسهل غزوها. هذا وقد خلف الفرس تراثًا عظيما للحضارات المتتابعة.

كان دين الفرس من أنقى الأديان في العصور القديمة، بشر به زرادشت في الأفستا قبل الميلاد بزمن طويل، وجاء في ذلك الكتاب أن العالم من خلق إله قادر وحكيم خيّر، ولكن روح الشر نازعت باستمرار ملكوته وقامت على أساس هذا الدين أخلاق تستحق الإعجاب لسموها، أخلاق تأمر الإنسان أن يفعل الخير في كل مناسبة، كما تمجد العمل وتكرم الأسرة، وتنادي بالمساواة بين الناس.

وقد ترعرعت الفنون والآداب والعلوم في ظل الساسانيين الذين تولوا رعايتها رعاية مستنيرة وكانوا سعداء بنشر الفنون. وفي ظل حكمهم بنيت في برسبوليس وسوسا قصور لا مثيل لها في الترف لا تزال آثارها شاهدة عليها. وتدل الرسوم والنقوش البارزة المنحوتة في الصخور على عبقرية ملحوظة في الفن كما تدل على الأصالة، ومن بين الفنون التكتيكية التي بلغت درجة عالية من الكمال صناعة الخزف. وقد احتفظت الأواني الفارسية على الرغم من مرور زمن طويل عليها بألوان وبهاء يفوقان الخيال. وكذلك تعد الأقمشة والسجاجيد الساسانية أثمن المنسوجات في

---

(1) مدينة قديمة من مدن مقاطعة بئوسى في بلاد اليونان القديمة، تقع على المنحدر الشمالي لجبل سيتيرون، شهيرة بالموقعة التي انهزم فيها الفرس على أيدي اليونانيين.
(المترجم)

العالم. ثم نشأت بعد الفتح الإسلامي نهضة فارسية بارعة بتأثير العرب القوي.

المصريون

في غرب العالم القديم، كانت الحضارة المصرية تتطور بانتظام وبدون جهد بفضل عزلة هذا القطر. وعلى حين ظلت بقية سكان الكرة الأرضية غارقة في البربرية، كانت شواطئ النيل ترعى «ملكية قوية مستندة إلى تنظيم رائع». وعلى رأس المراتب الاجتماعية كان يحكم فرعون وهو ظل الله في الأرض، ويتلو فرعون الكهنة والجيش ويشكلان الصفوة الحاكمة. ثم يأتي بعد ذلك الكتّاب وموظفو الدولة المكلفون شغل الوظائف الإدارية. وأخيرًا نجد الشعب الذي يضم التجار والعمال مقسمين طوائف والفلاحين المرتبطين بالأرض الزراعية.

كانت طبائع المصريين حميدة وحياتهم يملؤها الود والبهجة والتسامح حتى مع الأرقاء. وكانت قوانينهم المدنية حكيمة تخضع العلاقات بين الأفراد إلى قانون العقود. وكانت تمتد آثار لا حصر لها غربًا على طول السلسلة الليبية من أجل الحياة الآخرة.. هذه الآثار ربعة الشكل منخفضة متكتلة على غرار هذه السلسلة. وأمكن الفن الديني وكذلك الفنون الزخرفية والصناعة المليئة بالواقعية والصدق أن تبلغ رشاقة وكمالا يتيح للفن الحديث أن يستلهم في هذه الآثار رشاقته وكماله.

وانتهت الغزوات النادرة التي اقتحمت برزخ السويس مثل غزو الهكسوس وغزوة الأشوريين إلى الامتصاص والذوبان. وكتب لمصر تحت حكم البطالسة، وبخاصة الإسكندرية أن تظفر بحياة فكرية قوية. وعلى الرغم من الفتح الروماني الذي حمل إلى مصر ضربات شديدة الوقع، فإن تقدم مصر كان مقدرًا عليه في مجموعة، أن يهيئ هذا البلد لدور قيادي في العالم الإسلامي.

الفينيقيون

على حين كانت بلاد فارس وبلاد الكلدانيين ومصر دولا تقع في الغرب من آسيا، فإن فينيقية –وهي شريط ضيق من الأرض يقع بين لبنان والبحر– كانت

إمبراطورية بحرية. ومع ذلك فإن شاطئها رديء وغير متعرج وخال من مصبات الأنهار، ومن المرافئ، ومن الموانئ الطبيعية. وفي الحق أن الوسائل الضرورية لأية حياة بحرية لا وجود لها في فينيقية، وقد يكون في خلق مثل هذه الوسائل بطريقة مصنوعة ما يتنافى مع العقل السليم لولا أنها نشأت عن حاجة ملحة.

هذا ولأن المنفذين المحيطين بفينيقية من الشمال والجنوب –وهما الطريقان الوحيدان لدخول آسيا– لم تكن فينيقية مستقلة عن الأقاليم الداخلية من ورائها وكان لها من مرافئها الحصينة وأسطولها البحري ما أمكنها أن تفرض نفسها على مدخل هذه المضايق وعلى طول هذا الشاطئ وعلى الطريق الذي تتبعه الجيوش دائمًا في اتجاه أو في آخر.. هذا الطريق الذي ظل حتى أيامنا هذه أكبر طريق دولي. وهناك عند مصب نهر الكلب، قريبًا من طرابلس كتابات هيروغليفية وأخرى منقوشة على المباني، ونصوص لاتينية وإغريقية محفورة في صخور على الشاطئ تحكى أبدًا ذلك العبور الظافر لرمسيس الثاني ولستة ملوك أشوريين ولجيوش إغريقية وكتائب رومانية.

ولعل الفينيقيين كانوا بحارة لأنهم لم يكن لديهم منفذ آخر غير البحر، عندما كانوا يحاصرون في الجبال وسواء أكان هذا بحكم الضرورة أم على سبيل الهواية فإن المعروف عنهم أنهم كانوا بحارة مهرة ومفاوضين من الطراز الأول. ومن ثم، فقد أسسوا أضخم قوة بحرية وتجارية في العصور القديمة فسقط حوض البحر المتوسط، والبحر الأسود، والبحر الأحمر بين أيديهم، ولما كانوا أول من مارسوا الملاحة البحرية بين الشعوب، فقد داروا حول إفريقيا ورأوا «الشمس عن يمينهم» وهذا ما بدا لهيرودوت وهو غير معقول، لكنه يؤكد صحة الرحلة. واختفت مع ذلك إمبراطوريتهم بعد تدمير طروادة[1] وصيدا، وصور وقرطاجنة التي لم يبق منها غير أطلال مشوهة.

([1]) لم يفرق هيرودوت في كتابه «التاريخ» بين الطرواديين والفينيقيين.

لم يكن عند الفينيقيين فن أصيل. فقد كانت نزعات مواهبهم تجارية، ومما كان مثار دهشة كبيرة لحرفائهم البرابرة معرفتهم المحافظة على عرض أمين لجميع أعمالهم التجارية بوساطة تواليف من الرموز تمثل مخارج الصوت. وكان هذا هو النواة الأولى للحروف الأبجدية.

ويقتضينا الانصاف أن نعترف للفينيقيين باستحداث طريقة ماهرة في تبسيط الأعمال التجارية بوساطة اختراع قطع معدنية تحمل علامة كبار التجار وذلك في عصر كان الإنسان لا يمارس فيه غير المقايضة ولا يتبادل إلا ببضاعة أخرى. وقد خطت حضارتهم خطوة حاسمة بفضل عبقريتهم التجارية، واختراع النقد (العملة).

الإغريق والرومان

قد لا يكون هذا السرد المختصر لشعوب الشرق مكتملا، لو أغفل هذا السرد ذكر ما قام به على التوالي الإغريق والرومان الذين كان عليهم القيام بعبء إنشاء الروابط الأولى بين الشرق والغرب.

في سنة ٣١٢ قبل الميلاد أسس الإغريق في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية مملكة سلوقيا، ونشروا فيها الثقافة والحضارة اليونانيتين وخضعوا بدورهم لتأثير الفكر والتقاليد وعبقرية الحضارات السابقة من سومرية ومصرية وإيجية وحيتية وكلدانية، كما تشهد بذلك الأشياء التي يجدها المرء في أثناء التنقيب عن الآثار. وذلك أنه قد ظهر بوضوح في سوريا إلى أقصى حد اندماج جميع هذه الظواهر لعبقرية شعوب الشرق. وتقدم انطاكية والسويداء واللاذقية يومًا بعد يوم إلى أيدي الباحثين، عجائب هي في نهاية الأمر ذات طابع سوري.. هذا النمط أخذ ينضم بعد زمن قليل إلى تراث الحضارة العربية.

لقد رحل الإسكندر الأكبر (٣٥٦– ٣٢٣ قبل الميلاد) الذي عين قائدًا عامًا لقوات الجيوش الإغريقية لغزو الشرق وتحت قيادته ٣٥٠,٠٠٠ ألف جندي منهم ٥٠٠٠ فارس، وقد استطاع الانتصار على قوات تفوق عدد قواته بعشرين أو ثلاثين

مرة في نهر جرانيك وفي مدينة اكسوس وفي مدينة اربل، وأخضعت بسرعة هذه العبقرية المحاربة آسيا كلها حتى تركستان والسند فيما بين عامي ٣٣٥، ٣٢٣، ولكن في اللحظة التي كان يحلم فيها بجمع الفرس والإغريق وهما الخصمان اللدودان في وطن واحد، فاجأه الموت في الثالثة والثلاثين من عمره.

كان الإسكندر بالنسبة للشرق بداية المرحلة الهلنستية التي مارست تأثيرها العميق طيلة ألف سنة وأكثر. وكانت اليونانية حينئذ هي اللغة الرسمية، ثم صبغت المدن الشرقية بالصبغة اليونانية. واصبحت الإسكندرية وإنطاكية وسلوقيا أمصارًا عظيمة ومراكز لحركة تجارية شديدة. وامتد الفكر المتسامح والشبكي للحضارة اليونانية حتى بلغ الأرض المقدسة في مملكة يهوذا.

بيد أن الاندماج الذي حلم به الإسكندر يومًا ما لم يكتمل، ولم تستطع الحضارة اليونانية المحصورة في المدن أن تستقر في القرى. وظلت هاتان الحضارتان متقابلتين وجهًا لوجه، ثابتتين ومتميزتين، ففي سوريا كانت سلوقيا وإنطاكية تكونان ولا يتين منعزلتين ومتعاديتين. وفي مصر كان مواطنو وادي النيل يعارضون يوناني الإسكندرية. وارتأى الرومان أن الساعة قد حانت للتدخل في الشرق من جانبهم.

إن الفتح الذي بدأه سيبيو الأفريقي سنة ١٨٩ قد أكمله بومبي في سنة ٦٣. وقد كان نصيب الإمبراطورية الرومانية في التأثير على الشرق ضعيفًا لأن كل ما حظيت به واجهة إدارية سطحية، وظلت الأفكار مقتبسة من الثقافية اليونانية. وقد غالت روما في احتفاظها بغربيتها أكثر من اليونان فلم تستطع أن تتفهم الشرق ويفهمها الشرق. ولعل الإمبراطورية الرومانية نجحت فقط في إمهال تطور الحضارة اليونانية وبذلك تكون قد ساعدت على إخفاقها الذي سيكون إخفاقًا تامًا أمام ظهور الإسلام.

(٣) المصادر المادية والأدبية

كان العبرانيون أقرب الجيران للعرب كما كانوا أقرب أقربائهم من ناحية الجنس، وقد روى تاريخهم في سفر التكوين واندمج مع التاريخ الأسطوري للإنسانية.

وعندما أقبلت القبائل العبرانية من الجزيرة العربية –مثل جميع الطوائف السامية– أقامت أولًا في بلاد الكلدانيين حول أور التي كانت ترعى فيها قطعانهم ثم صعدوا تحت قيادة إبراهيم، مجرى الفرات حتى منعطفة، وساروا حتى وصلوا شواطئ نهر الأردن وهم متجهون على الدوام نحو العرب. هذا الطريق هو الذي يدور حول صحراء سوريا، وهو أقصر طريق يؤدي من بلاد الكلدانيين إلى مصر، وهو الطريق الذي أتبعته الهجرات والجيوش الفاتحة. وحوض نهر الأردن هو الأرض «الموعودة» أكثر من مرة وهي بلاد كنعان التي أصبحت فيما بعد مملكة يهودا ثم فلسطين. وكان هذا البلد أرضًا جدباء بالنسبة لشعب راع. وقد ترك عليها إبراهيم ابن أخيه لوط، ثم تابع السير حتى بلغ مصر.

ووفقًا لما ورد في التوراة، كان لإبراهيم ولدان: اسحق الذي خرجت منه الاثنتا عشرة قبيلة لإسرائيل، وإسماعيل أبو الأرومة العربية التي يجعلها محمد صلى الله عليه وسلم أصلا لنسب العرب.

عندما تكاثر عدد اليهود بمصر أخذوا في الخروج نحو «الأرض الموعودة» وسار الشعب العبراني بقيادة موسى تائهًا زمنًا طويلا عبر المناطق الصحراوية للجزيرة العربية من صحراء النفود تصادفهم في أثناء ذلك معارك مع القبائل البدوية المستوطنة. وفي سفح جبل سيناء، منح موسى اليهود «ألواح العهد» ثم الشريعة التي حكمتهم قرونًا عدة. ولم تستطع القبائل اليهودية والقبائل البدوية في المناطق الصحراوية أن تتجنب الصدام بعضها ببعض. ويقال إن موسى كان سيتزوج ابنة

كاهن من نسل الأرباب في أرض مدين، وهذا الرب المسمى يعقوب لم يكن سوى الذي أطلق عليه العبرانيون اسم يَهْوّه. بيد أن مدين تحاذى الحجاز التي كانت قد جمعت فيها القبائل البدوية أوثانها. وهكذا، تمت المبادلات بين قوم زحل وبين بدو من أصل واحد ومن بلاد مجاورة.

ومن جهة أخرى خرج العبرانيون مع إبراهيم من بلاد الكلدانيين، ومع موسى من مصر، ولم يكن هذا الخروج هذه المرة بين جيران مارسوا التأثيرات المتبادلة فيما بينهم فحسب، بل كانت كذلك من أقصى طرف في العالم الشرقي إلى الطرف الآخر.

إن مفهوم الإله الواحد الذي أشاعه اليهود، وتبادل الأفكار، كان لهما الفضل شيئًا فشيئًا في تغلغل اليهود، حتى إن العرب أنفسهم –على الرغم من عزلتهم وانطلاقتهم الجامحة لم يستطيعوا أن يفلتوا من هذا التأثير. وعند ما أقبلوا فيما بعد على توحيد الشرق في ظل إيمانهم الديني والسياسي، وجدوا الأرض ممهدة.

وكانت ثمة أمجاد أخرى تنتظرهم..

وإذا تذكرنا أن الفينيقيين وهؤلاء الكنعانيين سكان الشاطئ كانوا قد أخضعوا مع قرطاجنة شمال أفريقية وإسبانيا اتضح لنا سرعة غزوهم لهذه البلاد.

إن التغلغل الحتمي الذي هو ثمرة للموقع الجغرافي، والعنصر العربي والعنصر اليهودي من قبل الإسلام بوقت طويل إنما هو نتيجة عنصرية. وهذا التغلغل يجلو كثيرًا من الحقائق التاريخية القليلة الأهمية إن لم تكن اسطورية. فالملوك الذين تحدث عنهم ارميا[1] ربما كانوا بعض شيوخ الجزيرة العربية الشمالية، وسالومي التي خلدها كتاب «نشيد الأناشيد» أميرة عربية من قبيلة خيضر، وأيوب، مؤلف أجمل شعر تنامى عربي. بل لعل «حكماء الشرق» الذين اهتدوا بالنجم حتى أورشليم، لم

([1]) أحد أربعة أنبياء من بني إسرائيل ظهروا فيما بين سنتي ٦٥٠ تقريبًا، ٩٣٠ قبل الميلاد.

(المترجم)

يكونوا غير رؤساء بدو لا كهنة قادمين من فارس البعيدة. وهكذا نرى أنه من اليسير تتبع مثل هذه الموافقات مع تلك الواردة في التوراة.

لقد وحدت الديانة اليهودية فلسطين في «دولة كهنوتية»، وكانت قد اصطدمت الأرستقراطية الدينية بعض الشيء بالصبغة اليونانية تدريجًا تحت ظل حكام متسامحين كالبطالمة وبعض السلوقيين، وزعم بعض المؤرخين أن تيتوس[١] قضى فيها بعد على الشكل القديم لليهودية بتدميره أورشليم، وخلق بذلك شكلها الجديد على الرغم منه بغير شك. لكن هجرات الماضي التي لم يكن الإكراه باعثًا عليها دائمًا كانت قد رسمت الخطوط الكبرى لمصير اليهودية المشتتة.

بيد أنه عندما تفرق اليهود، لم تعد الديانة اليهودية شرقية خالصة لأن روما قد استبعدت هذا المثال الشرقي للفكر الديني.

لقد تساءل الناس عن كراهية اليهود للرومان ألا تشكل الانعكاس العميق لشعور الشرق تجاه الإمبراطورية. ومن الواضح أن ضمائر الشرقيين وكذلك ضمائر اليهود لم يكن في الاستطاعة أن تناصر عقيدة الإمبراطور أو الوثنية ولم تجد تلك الضمائر كذلك ما يشبع تطلعاتها الغامضة في المسيحية التي لم تستطع أن تظل حبيسة مهدها في الشرق. وعندما انطلقت المسيحية إلى غزو الجموع الشعبية للإمبراطورية، وبعد أن صبغت نفسها بقوة بالصبغة الغربية، هزت الإمبراطورية من أساسها. وعندما أصبحت المسيحية في نهاية تطورها العقيدة الرسمية للرومان، لم يعد في استطاعة الشرق معرفة نفسه في هذا الدين الذي كان قد رحل من وطنه، ويلاحظ ذلك بوضوح عندما أمر الملك شابور الساساني في سنة ٣٤١ بذبح مسيحي مملكته في نفس الوقت الذي كانت فيه المسيحية معترفًا بها على أنها عقيدة رسمية لبلاد اليونان وروما. وهما عدوتان من قديم الزمان لبلاد فارس،

---

(١) ابن الإمبراطور فيسباسيان، تولى حكم روما بعد أبيه من سنة ٧٩ إلى ٨١.
(المترجم)

وهكذا فإن كلا من اليهودية والمسيحية قد طردتا بصورة من الصور من الشرق. وإذا كان رينان قد استطاع حقًا أن يسخر من «عدم كفاية رجال الغرب الدينية» فإن المدافعين عن الأديان الجديدة في هذا القطر لم يستكينوا إلى اليأس طيلة القرون الأولى من عصرنا الميلادي، ومن جهة أخرى فإن الغريزة الدينية في الشرق لا يمكن إنكارها.

هذه الحال الذهنية وهذا الاستعداد للتأمل الميتافيزيقي لا يمكن تصورهما بغير حدود أو بغير إفراط، ذلك أن انطواء نفوس الشرقيين على القلق ظل تربة صالحة لهر طقات في وسعها أن تشعر علماء روحانيين كبارًا على غرار صانعي المعجزات المتعصبين الذين يستميلون معهم جموعًا من المرتدين ومن طلاب التعميد. أنه لإغراء لا يدوم طويلًا: فالمانوية التي هي مثال على ذلك، كان لها شهداء لم ينبت دمهم أي فوز مثمر. وماني الذي أعلن أنه رسول إلهي ومحب للسلام وتابع لمذهب التصوف، صلبه المجوسيون المجاهدون والقوميون. وفي فورة الهرطقات، من ذا الذي لا يتذكر دين مترا وهو يمثل النور الإلهي، وإله الشمس الشعبي عند البارتيين[١] وفي القرن الثالث، انتصر دين مترا على الإمبراطورية، وبلاد اليونان الآسيوية، ثم انهار أخيرًا أمام المسيحية.

من الضروري بلا شك أن نهيئ مكانًا على حدة لجوليان المرتد[٢] الذي وضع الجيش الروماني في خدمة نزعاته الصوفية. وعندما غلب على أمره كذلك، أورد

---

(١) قبائل الإسكنديين القدماء، أقاموا في الجنوب من مقاطعة هيرافانيا التي تقع في الجنوب والجنوب الشرقي من بحر قزوين، قد أخذوا عن الفرس لغتهم وحضارتهم، في القرن الثالث قبل الميلاد، وشنوا حربًا ضد السلوقيين، وأقاموا أحد حكامهم ويطلق عليه ارسكيس في عام ٢٥٥ق. م مملكة قوية استمرت حتى عام ٢٢٦ بعد الميلاد. وبعد عام ٢٢٦، ضمت هذه المملكة إلى إمبراطورية الساسانيين الفارسية الجديدة، وكان يطلق على عاصمتهم اسم بارتيا وهي الاسم القديم لمدينة خوراسان. (المترجم)

(٢) إمبراطور روماني حكم من ٣٣١ إلى ٣٦٣، ابن أخت قسطنطين، نشأ مسيحيًا ثم ألحد، ومن هنا جاء اسمه المرتد. (المترجم)

مؤرخون حياته أنه عندما سقط تحت أسوار المدائن، لم تكن كلماته الأخيرة موجهة ضد الفرس –خصومه– بل كانت موجهة إلى المسيح: «إنك انتصرت، أيها السيد المسيح».

إذن، فقد جاء اليوم الذي لم يعد فيه الشرق الذي كان يحكم حكما إلهيًا يملك روحانية على طريقته. وفي ربوع الشرق التي فيها العاطفة المسيطرة هي الدين يملأ الروح ولا شيء غير الروح، والذي لا يدع اهتمامه خارج شريعته الخاصة.. في هذا الشرق وجدت النفوس نفسها فجأة دون مثل أعلى، ودون إيمان، ودون قانون أخلاقي، ودون وازع ديني أي أنها وجدت نفسها ضالة، وهو موضوع لابد من الإشارة إليه لذا كانت الحياة العامة بأكملها غير منظمة. ولم يستطع أصحاب الإيمان من الأولياء إعفاء أنفسهم من إيمان خاص بهم يستجيب للحاجات العميقة للروح الشعبية.

وفي الجزيرة العربية، يبدو أن وثنية القبائل الموروثة عن الأجداد لم تعد تحقق ميول البدو التي كانت شديدة الغموض. وكانت الانتجاعات والقوافل بل الغزوات، مناسبات للاتصال والتبادل مع أصحاب الأديان المنزلة. وكانت هذه المناسبات تسير بالعقول رويدًا رويدًا إلى وحدانية غامضة أيضًا، من غير شك. لكن كان لزامًا على هذه الوحدانية أن تتخذ شكلًا في يوم ما. ومن الوجهة السياسية كانت الجزيرة العربية دائمًا لا حياة فيها ومن غير قوانين. وظل الشرق غارقًا في الفوضى بسبب انهيار الإمبراطورية الرومانية ولم يعد هناك شيء يستطيع أن يسد الطريق أمام رئيس وطني وديني. وقد تحقق الجو المثالي لظهور دين جديد وإمبراطورية جديدة.

أجل، لقد دقت الساعة معلنة ظهور الإسلام..

(٤) محمد والقرآن

في منتصف الطريق بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها، كانت المحطة الرئيسية للقوافل التي كانت تحقق العلاقات التجارية بين الهند ومصر. كما كانت بداية ونهاية للحركة التجارية مع فلسطين وسوريا وكلديا. وكان التجار الأغنياء في مكة أصحاب الكلمة العليا على سوف عكاظ مجتمع التجار والخطباء والشعراء والكهان كل عام. وكان من اختصاص هؤلاء التجار كذلك الإشراف على رسوم شعائر الحج التي كانت تدر دخولا كبيرة والتي كانت تمارس في نفس المناسبة. وتتوقف المشاحنات والسرقات والحروب طوال أربعة أشهر حتى تتمكن القبائل والقوافل في شبه الجزيرة العربية كلها من المشاركة في هذه الأعياد. وكانت تعقد في هذه الأسواق مباريات شعرية، يتنافس فيها كبار شعراء القبائل، ومن ثم كانت مسابقات عكاظ تتابع بكثير من الاهتمام، وكان الشاعر الفائز يتردد اسمه في جنبات الجزيرة كلها، مما يرفع من قدر قبيلته. ولا يوجد قوم يحبون الشعر كما يحبه البدوي، لأنه يتغنى فيه بالجمال والشجاعة والمتعة. وكان الأميون أنفسهم – كان الشعراء كلهم تقريبًا على هذه الحال– ينتشون بالفصاحة وباللغة الجميلة. ولذا، كانت القافية والوزن تحدث فيهم سحرًا صادقًا.

ومن وجهة النظر الدينية، كان البدو لا يحترمون إلا بعض شعائر متعارف عليها أملاها استعداد غامض للتطبع بتقاليد القبيلة. وهذا يفسر لنا عبادتهم لعدد كبير من الآلهة أقاموها في الكواكب كما أقاموها في الأرض. فكان هناك الإله بعل الذي يمثل الشمس، وعشتروت وهي فيض إلهي عن القمر، وأدونيس لوتاموس إله كلديا، أو حورس إله مصر أو مولوخ مردوك إله كلديا، أو آمون إله مصر، وكان خيالهم يملأ الصحراء بعوالم من الجن، وهي كائنات بعضها يمت بصلة إلى الملائكة وبعضها إلى الشياطين بحسب مودتها أو عداوتها. ولم يكن يعنيهم إلا قليلا أمر

الحياة الآخرة لأنها عندهم غير مؤكدة، ولذلك كانوا يترددون عن خرافة أكثر مما كانوا يترددون عن إيمان على معابد شتى أرفعها مكانة معبد الكعبة في مكة على بعد ثلاث مراحل قصيرة من سوق عكاظ الكبير.

اشتهرت الكعبة، وهي معبد صغير ذو شكل تكعيبي، بأن إبراهيم وولده إسماعيل –جدي جميع العرب– قاما ببنائها، ويقال إن جبريل أحضر إلى إسماعيل وإلى أمه هاجر حين بقيا وحدهما، حجرًا ناصع البياض يسندان رأسيهما إليه، ولما أسود لونه على مر الزمن بسبب آثام البشر أصبح «الحجر الأسود». وقد ثبت في أحد جدران هذا المبنى على ارتفاع ييسر تقبيله. وعلى بعد بضع خطوات من هناك، فجر جبريل نبعًا عجبًا هو بئر زمزم الذي تشفى مياهه جميع المرضى.

وفي هذا المكان أيضًا حوالي منتصف القرن الخامس، أسست قبيلة قريش وهي سادنة الكعبة(١) حول المعبد الأصلي مدينة مكة المكرمة. وكان الحجاز الذي بنيت فيه مكة يقر بوجوده إله أكبر يتشفع به المرء في الأخطار الشديدة. وهذا الإله المسيطر الأعلى لأصنام الوثنيين والجان ثم لهذه الأصنام الستين بعد الثلثمائة التي كان قد جمعها العرب في صحن الكعبة هو الله تعالى، إله إسماعيل وإبراهيم وبنوع من التوفيق بين هذه العقيدة الخاصة بوحدانية غامضة وبين العقائد القديمة الخاصة بالوثنية التي كانت تعظم اللات والعزى ومناة، أصبحت الكعبة مقر الآلهة وبيت الله.. لذلك كانت قريش تقوم بخدمة الكعبة والإشراف على مواردها في الوقت نفسه.

ولد محمد بمكة في الثلاثين من أبريل عام ٥٧١، وهو ينتمي إلى بني هاشم من قبيلة قريش. وقد مات أبوه قبل أن يولد وماتت أمه وهو في السادسة. وترك له والداه قطيعًا من الماعز وخمسة جمال، وبيتًا وجارية اهتمت به، وقامت على تربيته عند جده عبد المطلب، ثم عند عمه أبي طالب وعلى الرغم من آلاف المؤلفات

---

(١) سادنة الكعبة = خادمتها (المترجم)

التي كتبت حول هذا الموضوع، لا نملك كثيرًا من الشواهد المؤكدة عن حياته طفلا أو مثابًا –وكانت قبيلته تطلق عليه لقب الأمين، ويطلق عليها القرآن لقب محمد الذي يعني عظم الحمد والثناء عليه، وتزوج محمد راعي الإبل وقائد قوافل التجارة وهو في الخامسة والعشرين من خديجة، والأرملة الذكية والغنية، فكانت زوجته الأولى. وكان محمد ربعة لا بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون، أدعج العينين، سبط الشعر، كث اللحية. وكان أميًا كمعظم رجال قبيلته، لكنه كان متين البنيان، ذكيًا نشيطًا، وكان فصيحًا في التعبير عما في نفسه، وكانت شخصيته تأخذ بمجامع القلوب، لما اشتهر عنه من أمانة ووفاء كما كان ذا إحساس نادر رفيع وهو الذي قدر له أن يكون فيما بعد النبي ﷺ. كان في شبابه فتى حاد المزاج، سريع التأثر والانفعال، نهبًا لشواغل[1] غامضة، ذا ميل طبيعي للأحلام والنزعات الروحية. وعندما بلغ النبي ﷺ سن الرشد عرف كيف يكبح جماح نفسه وأن يستمر مسيطرًا عليها وقد هيأه هذا التأمل الروحي وكلفه بالمثل العليا منذ صباه للاهتمام بالقضايا الدينية، فكان يحلو له محادثة المسيحيين واليهود، والحنفاء الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام وينكرون الخرافات التي لا سند لها. وقد أخذ الميل لدراسة القضايا الأزلية التي ملكت دائمًا عليه فكره ولبه ينمو أيضًا حتى أصبح الإنسان المصطفى.

راح محمد ﷺ قبل الأمر بالبعثة يختلي بنفسه أكثر فأكثر باحثًا متأملا ولما يبلغ الأربعين، فكان يعتكف كل عام في أثناء شهر رمضان[2] في غار حراء بالقرب من مكة لكي يفرغ للصيام والتأمل. وهناك ذات ليلة من سنة ٦١٠ نزل عليه جبريل قائلا له إنه «رسول الله» شدت هذه الدعوة من عزيمته فأعلن عن نفسه

---

(١) الذي يعرف عنه أنه لم يكن حاد المزاج ولا سريع التأثير والانفعال وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، ويقول الله في كتابه العزيز: {إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}. (المترجم).

(٢) الذي في سيرة ابن هشام (جـ١ ص١٥٣) أنه كان «يجاور في حراء من كل سنة شهرًا «دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات، إلا أن هذا الشهر كان رمضان في السنة (التي بعث فيها ﷺ) (المترجم).

جهارًا في السنوات التالية أنه نبي الله، رب العرب[1]، وكان اعتقاده خالصًا بأن عليه واجب قيادة الشعب العربي إلى الدين الحق وإلى أخلاق جديدة.

لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعيش في جماعة تشتغل بالتجارة، يعتمد فحلها الأساسي على النذور كانت تؤدى إلى أصنام الكعبة في أثناء الحج، لذلك لم يلبث أصحاب السلطان القائم على الثروة أو الطبقة أن أخذوا ينظرون إليه على أنه منافس خطير يجب الوقوف في وجهه، وكانوا لا يجسرون على محاسبته خوفًا من مشاحنات دامية لأن أفراد عشيرته حتى الثائرين على دعوته سيجدون أنفسهم ملزمين بالدفاع عنه وفاء لعاداتهم القديمة، ولكنهم لم يكفوا عن اضطهاد أتباعه الأولين، الذين نفد صبرهم وهاجروا إلى الحبشة، البلد المسحي.

بيد أنه على الرغم من الاضطهاد المستمر المؤلم، وعلى الرغم من فقده خديجة زوجه التي كانت أول من ساندته وأخلصت له والتي فاضت روحها في سنة ٦١٩، وعلى الرغم من موت عمه أبى طالب الذي كان معينًا له أيضًا، فإن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لم يكل، بل مضى عبر الجزيرة العربية يدعو إلى الدين الجديد وكان كل يوم يضيف روادًا جددًا اعتنقوا الإسلام متأثرين بقوة اقتناع النبي وبلاغة عباراته. ومع هذا فقد كان موقفه يتعقد أكثر فأكثر. فعند ما رحل إلى الطائف وهي مدينة لا تهتم بإرضاء الطبقة الأرستقراطية في مكة أو عدم رضائها، طرد منها مشيعًا بقذف الأحجار. ولما شعر بالكراهية تعظم وتحيط به، وعند ما علم من ناحية أخرى أن سيد قريش الجديد، أبا سفيان قرر التخلص منه، أدرك أنه لم يعد أمامه غير الهرب من مكة إذ أراد أن يتجنب أسوأ العواقب.

اتجه يومئذ إلى يثرب، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ١٤,٠٠٠ نسمة، وعلى بعد ٤٠٠ كليو متر من شمال مكة، والتي كان قد سبقه إليها بعض صحابته، وكانت

([1]) هذا ما لا توافق عليه المؤلف ولا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم حيث يقول: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}. (المترجم).

هذه المدينة تبدو بتوفيق من الله مهيأة لتفهمه واستقباله. وقد حدد هذا الحادث التاريخي الذي عرف باسم الهجرة بداية التاريخ الإسلامي (١٦ يوليو ٦٢٢) ويثرب التي استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو فيها إلى دينه الجديد بكامل حريته، سُمِّيَتْ بـ«المدينة» أي مدينة النبي.

لكن الصعاب لم تنقطع..

وأمام اهتمامه والتزامه بإطعام سكان المدينة التي كانت فريسة للقحط، أدرك محمد وقتئذ ضرورة العمل، ودون تردد، أخضع قافلة تتجه من سوريا صوب مكة، ثم مضى بعد ذلك إلى غزو قريش، وألحق بهم هزيمة دامية في بدر ورجع إلى المدينة مجملا بالزاد والغنائم.

قد كان هذا العمل بمثابة نقطة انطلاق لسلطانه الزمني. فقد قاتل الإسلام وكسب معركته الأولى بطليعة من ثلثمائة رجل، كلهم نشاط بسبب جرأتهم وثقتهم في مقدرات الدين الجديد. ولقد أدرك محمد (صلى الله عليه وسلم) الضرورة الملحة في نشر الإسلام والدفاع عنه عن طريق سيادة السلاح، وسيادة العقيدة متشجعًا بسبب نجاح تلك المظاهرة من القوة. ومن الآن فصاعدا أصبح الرسول رجل دولة، ويجمع كل أسباب السيطرة داخل جماعة المسلمين.

ولما استمد النبي (صلى الله عليه وسلم) من المضايقات التي كانت تدبر ضده حقائق إنسانية، طرد وقتئذ من المدينة دون شفقة اليهود للذين كانوا يكيدون له، وأعلن أن الإسلام سيبقى الدين الوحيد للدولة التي أقام أسسها، وكانت قوة رد الفعل قاسية النتائج. فقد تكتلت ضده متحالفة القبائل اليهودية والعربية زحفت لمحاصرة المدينة (سنة ٦٢٧)، فحشد النبي (صلى الله عليه وسلم) كل أنصاره وأمرهم بحفر خندق حول المدينة المحاصرة، وأكره أعداءه الممقوتين على رفع الحصار ومضى بعزم يرد هجمات الأعداء، وأحرز انتصارًا جديدًا على يهود بني قريظة الذين كانوا قد ساعدوا قريشًا. وقد سلك معهم مسلكا يدل مره أخرى على

عظيم خلقه، ذلك أنه منحهم حق الاختيار بين الإسلام أو السيف. وانتهت المرحلة الحرجة، وبعد عدة معارك انتصر في غضونها محمد صلى الله عليه وسلم دون صعاب على أعدائه، توقفت الحروب.

وعرف النبي (صلى الله عليه وسلم) عندئذ كيف يفاوض ببراعة ومن ثم، عند ما توجه إلى مكة سنة ٦٢٨ على رأس ألفى جندي مدججين بالسلاح، كف المشركون عن الأقدام على مهاجمته. وبعد ذلك بسنتين حطم أصنام الكعبة، وعند ما تغلب نهائيًا على جميع سكان مكة أذعنوا له بالولاء. ووصلت وفود من كل فج تقدم فروض الطاعة لسيد الأنبياء الذي أصبح فيما بعد سيد مكة المكرمة. وهكذا، دانت الجزيرة العربية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) في عام ٦٣١. ولم تكن قد خضعت أبدًا لرجل واحد. وزالت دولة الوثنية في الشرق على يد الإسلام الذي أصبح هو نفسه دولة.

فاضت روح النبي (صلى الله عليه وسلم) وعمره واحد وستون عامًا في ٨ يونية من سنة ٦٣٢، دون أن يدون بنفسه نصوص رسالته. وعند ما كان ينزل عليه الوحي كان يتلو أقوالا يسجلها صحابته المتيقظون على لفافات من الورق والرق وعلى صحائف من الحجر أو من العظم، وسعف النخيل، وغالبًا ما كانوا يحفرونها في ذاكرتهم ولقد مات ستمائة من هؤلاء الحفاظ في معركة واحدة بعد سنة من وفاته. ولكن الباقين منهم جمعوا النصوص والروايات.

ثم عهد إلى زيد كاتب النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يدون مصحفًا رسميًا مجمعًا عليه، وذلك بعد وفاة النبي بتسعة عشر عامًا. وقد راجع هذه النسخة الق حررها زيد ثلاثة من الثقات، وأصبحت هذه النسخة «القرآن» أي «الكتاب».

وقد أرسلت ثلاث نسخ من هذه المصاحف إلى دمشق والكوفة والبصرة التي حفظت فيها بعناية، وليست شرعية هذا المصحف موضع شك حق في الأجزاء المروية من الذاكرة، على الرغم من أن هذا الجمع هو في الحق مجهود رجل واحد.

«والقرآن» مقسم إلى سور، والسور إلى آيات، وأقدم الآيات –وهي آيات مكة– قصيرة، مثيرة، ونبوية، شعرية، وروحانية. فهي تعالج القول بوحدانية الله وصفاته وما فرض من عقائد. أما الجزء المنزل في المدينة في وقت الانتصار فهو على العكس أكثر طولا وتفصيلا وذكرًا للأحداث العملية. وموضوعات هذا الجزء هي العبادات والمعاملات من علم وطب. وفي بعض الآيات من العظمة والبلاغة ما يأخذ بالألباب ويستهوى القلوب. والذي يهمنا أن نسجله هنا هو أن «القرآن» بالنسبة للمسلمين «غير مخلوق» فهو كلام الله، والهادي الذي لا يحيد عن القصد، ودعامة الدين، وخلاصة كل معرفة، ومصدر كل سلطان، ومبدأ كل إدارة والأساس الوحيد للحياة الشرعية.

لم يوجد مؤلف في النثر باللغة العربية قبل «القرآن» فهو أقدم كتاب عربي نثرًا، ولا نزاع أنه أروع الأدب العربي. ولما كانت روعة «القرآن» في أسلوبه فقد كتب ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يهمان في إشعارنا بأن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان ملهمًا بجلال الله وعظمته.

(٥) الدين والفكر الإسلامي

الحديث:

القرآن يكمله الحديث الذي يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبي وإرشاداته وفي الحديث، يجد المرء ما كان يدور بخلد النبي صلى الله عليه وسلم، العنصر الأساسي من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة في الحياة. هذه الأقوال أو هذه الأحاديث التي يشكل مجموعها السنة دونت مما روى عن «الصحابة» أو نقل عنهم مع التمحيص الشديد في اختيارها وهكذا جمع عدد كثير من الأحاديث. والبخاري الذي يعد إمامًا في الحديث لم يصح عنده سوى عشرة آلاف من ثلثمائة ألف حديث. ولا تزال السنة هي التتمة التي لا غف عنها للقرآن والتي يلجأ إليها المرء على مر الأيام عندما يواجه بمشكلة لم يقل فيها القرآن برأي قاطع، فإذا لم يستطع القرآن أو السنة أن يقدما الإجابة المطلوبة، يرجع حين ذاك إلى القياس أو اتفاق الجماعة ويسمى هذا الاتفاق «الإجماع».

والكثرة الكاثرة من المسلمين سنيون. ومع ذلك فإن عددًا صغيرًا منهم لا يقبل غير «الأحاديث» المروية عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهم الشيعة، ولكي تطبق أحكام القرآن والسنة لا بد من شروح دقيقة. وهذا هو ما قامت به المذاهب والجماعات الدينية التي انتظمت علماء دينيين لهم مكانة مرموقة.

العقيدة:

تتلخص العقيدة الإسلامية في إقامة البرهان على ثلاث: إثبات وجود إله واحد، خالق العالم، قادر على كل شيء ورحيم–، ورسالة محمد والطابع الإلهي للقرآن–، والبعث في الآخرة والحساب فالواجب على المسلم أن يشهد بوحدانية

الله في كل مناسبة حتى الموت، هذه الشهادة عقيدة أساسية ولا يجوز مساسها، وتقابل هذه الوحدانية المنزهة الشرك بالله، بل كذلك الثالوث المقدس. والقول برسالة الرسول جزء لا بد منه في بناء العقيدة عندما يقصد بها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم المرسل من الله، وكذلك القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق وأن كل آية منه أوحى بها الله، وهذه عقيدة لا تقبل المناقشة، ويتضمن البعث ويوم الحساب أن تكون الأنفس خالدة، وأنها إما سعيدة أو شقية وفقًا لأعمالها. وترتكز العقيدة الإسلامية وهي تتشابه في ذلك مع العهد الجديد في الخوف من العقاب والأمل في الثواب.

وكما فرض القرآن الإيمان بالملائكة والجن فرض أيضًا الإيمان بالأنبياء، ومن بينهم المسيح عيسى بن مريم. الحق أن الفكرة العامة للدين الإسلامي تتلخص في تعريف كلمة «إسلام» التي تعني «إنكار الذات» كما تعني كلمة «مسلم» أي «المطيع»، وتدل هاتان الكلمتان على مدى ما توصف به من امتثال للإرادة الإلهية، وإيمان بقضاء الله.

العبادة:

العبادة في الدين الإسلامي هي قبل كل شيء عبادة عملية خالصة من التعقيدات اللاهوتية أو الصوفية. والعبادات المفروضة خمس أطلق عليها «أركان الإسلام الخمس» «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان. وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

ويتخلص الإيمان في التأكيد بوحدانية الله ورسالة محمد في قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» وتسمى «الشهادة» وعندما تنطق بالعربية أمام شاهد فإنها تكفي للاعتراف بالانضواء تحت راية الإسلام. وهذه الصيغة يستشهد بها المسلم في كل مرة تجعلها المناسبة ضرورية، على المهود، وعلى القبور، وأمام المحن، وفي مواجهة الخطر، وكذلك في وقت الدعوة إلى الصلاة.

والصلاة التي تؤدي خمس مرات في اليوم هي أمر بالعبادة يمارس بحسب

أحكام محددة حيث يولى المسلم وجهه تجاه مكة، ثم يقرأ بعد وضوئه –أي لا بد من أن يكون في حال طهارة– الشعائر الدينية باللغة العربية مهما تكن لغته الأصلية. وصلاة الجمعة في المسجد إجبارية بالنسبة لكل البالغين من الذكور، وهي تقتضي تجمع «المسلمين» في صلاة يلقى الإمام قبلها خطبة مع دعاء باسم «رئيس الدولة». وتشكل هذه الصلاة الجامعة نظامًا هامًا للبدوي الذي لا يقيم وزنًا لشيء قدر ما يقيمه لحريته. وهذه الصلاة الجامعة هي في الامتثال لشريعة النبي ﷺ التي ارتضها القبائل عن تضامن لم يكن معروفًا حتى ذلك الوقت وهو التضامن الذي أصبح مصدر قوتهم. من أجل ذلك فغنه قبل نشوب معركة القادسية التي انهزم فيها جيش الفرس قال القائد. الفارسي الذي كان يرى –عن بعد– العرب يسجدون جماعة وقت الصلاة، لحاشيته: «هذا عمر يعلم النظام»..

كانت الزكاة قبل كل شيء عملا تعاونيًا حرًا وإداريًا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى وفي تنظيم جماعة «المدينة» اعتد النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا العمل الخير كأنه ضريبة شرعية وإجبارية ربع[1] العشر لصالح الفقراء والمعوزين: وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين، وبيت مال، وخراج حاد عن هدفه. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت من هذا العمل الخير مصدرًا لمواردها، فغن مبدأ الزكاء ظل –بفضل القرآن– فضيلة مارسها المسلمون تلقائيًا بوصفه واجيًا دينيًا. وينبغي أن نزجى الثناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء.

هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية[2]..

---

(١) في الأصل الفرنسي العشر.

(المترجم)

(٢) عبثًا يحاول المفطرون، وعبثًا يحاول أصحاب الدراسات والنظريات إيجاد طريقة تؤمن للإنسان حياة كريمة شريفة فلا يجدون سوى شريعة محمد عليه السلام لو نفذت بروجها وبنصها وبواقعها لما بقى فقير على وجه الأرض أو محتاج. (المترجم)

الصيام

يحتفل الصائم بذكرى «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ...» ويجب على المسلم أن يمتنع عن الطعام والشراب أثناء شهر رمضان من الفجر حتى الغروب. ويمكن أن ينظر إلى هذا التقشف الشديد على أنه عمل يقصد به وجه الله ونوع من التفكير عن الخطايا، وبذلك يكون عملا توسليًا شافعًا أمام الله، لكنه يهدف كذلك إلى تقوية الإلزام الاجتماعي وإلى إشعار المسلمين بتضامنهم وتماسكهم. وكثيرًا ما يلجأ العامة من المسلمين إلى تجريح أولئك الذين لا يحترمون هذه العادة.

وبالإضافة إلى الصلاة والصيام والزكاة، شرع محمد (صلى الله عليه وسلم) الحج إلى مكة على أنه واجب ديني. فيجب على كل مسلم ولو مرة واحدة على الأقل في حياته إذا استطاع صحيًا وماليًا أن يتوجه لزيارة الأماكن المقدسة وهذا بلا شك بقية من عادات قديمة سامية. وكانت الكعبة والحجر الأسود يمثلان مكانة كبيرة بالنسبة للبدو، وقد أبقت مناسك الحج على عادات الماضي. لذلك كان علينا أن ندرك مبلغ التأثير المتزايد لهذه التجمعات البشرية الضخمة التي يأتي إليها المسلمون من كل صوب وحدب، للتآخي في دي واحد.

الحرب المقدسة

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول في بداية دعوته إنه لا إكراه في الدين ... وأمهل الكافرين رويدا.. وفي ذلك الوقت، أقر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلقاء السلام على اليهود والمسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالله وكان لا ينبذ إلا عابدي الأصنام.. لكن، هذه الطريقة التي يبدو فيها التسامح الجميل والمسالمة العظيمة لم تجتذب إلا قليلا من الأنصار ولم تستمر وقتًا طويلا. وفي الحق كان الاضطهاد كفيلا بأن يملأ روح محمد (صلى الله عليه وسلم) بالمرارة، لذا يتضح العنف الذي راح يلعن به المشركين {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.

وهكذا وبالضرورة، جدد هذا الرأي مشروعية الجهاد:

{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}.

وفسر كثير من المؤمنين هذا الكلام على أنه دعوة إلى الحرب وإلى أعمال السلب. ولكن النبي حرص على أن يحدد لهم أن {اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

بيد أن الخليفة القائم على أمر الدين والمدافع عنه فيما بعد، كان عليه أن يوسع رقعة. الإسلام، كما جاء في الكتاب والسنة من أن ذلك أول الواجبات. وسيصوغ. هذا المفهوم الحركي للدين من الحرب المقدسة (الجهاد) الركن السادس من الإسلام.

الدعائم الدينية

كان في استطاعة الإسلام أن يستغنى عن أماكن العبادة، وعن رجال الدين، لأن الدين الإسلامي ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين، ومع ذلك فهو مزود بوفرة من المساجد ومن رجال الدين. ففي «المسجد» ينبض قلب الإسلام. وفي صحنه المغطى بالبسط الفاخرة وأحيانًا بالحصر المتآكلة، وفي أرجائه التي تضيئها بنورها الخافت مصابيح زجاجية متعددة الألوان، يحس المرء إحساسًا حيًا أنه بحضرة الله. «الحق أنه لا شيء في المسجد إلا البساطة» ويشير على وجه الدقة بتجويف بسيط جدًا في الحائط مزين بالفسيفساء ذي نمط فني إلى المحراب وإلى الباب الرمزي في اتجاه مكة، ويترقب منبر متواضع من الخشب المنقوش؛ الإمام وخطبته البليغة. ولكن كل شيء كذلك ذو جمال، وبساطة وتجانس، وتنطلق تجاه السماء أعمدة الأروقة الرشيقة من المآذن.

هكذا، يبدو المسجد فكل المساجد خالية من العظمة المتشامخة للكاتدرائيات الغوطية ومن فخامتها الصارخة.

وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقر نظام الدرجات والمراتب الدينية، فإن سلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) الأشراف يمثلون قبل كل شيء في أعلى ذروته، وهذه السلالة التي تتمتع بتأثير سياسي وديني ضخم، هم أولياء عهد، وذوو قداسة لهم مكانة مرموقة، ويتلوهم العلماء، وهم علماء مفسرون للشريعة ويدرسون في الجامعات، والمفتي المكلف المحافظة على أحكام القرآن والقاضي المدني والديني والإمام الذي يؤم الصلاة ويعظ الناس في الجامع، والشيوخ الذين ينظمون إدارة الجمعيات الخيرية الدينية.

إن أكبر الأعياد في السنة وفقًا للقرآن، هو العيد الكبير الذي يحتفل فيه بذكرى تضحية إبراهيم، أبى جميع العرب، ويشتمل على أربعة أيام من الطهارة، ومن الصلوات ومن الأفراح. أما العيد الصغير فإنه يختتم شهر رمضان، ويستمر كذلك أربعة أيام[1] ويوم الجمعة الأول الذي يأتي بعد الاحتفال بهذا العيد يكرس لكريم الموتى. ويحتفل أخيرًا «المولد» بذكرى مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) ويوم عاشوراء[2] بمقدمه إلى المدينة.

وقد استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يحقق آماله العريضة بسبب قوة مثله الأعلى الديني. فكانت القبائل العربية تعيش منطوية على نفسها، مستقلة، متنافسة، تعبد الأصنام، وتعتقد في الخرافات، فلما جاء الإسلام وطد قواهم الكامنة، وناشد خيال رجل الصحراء، ومخاوفه، وآماله، ولقنه النظام الفردي

---

(1) العيد الصغير ثلاثة أيام فقط.

(المترجم)

(2) الاحتفال بيوم عاشوراء لذكرى مقتل الحسين في كربلاء لا لمقدم النبي عليه السلام إلى المدينة.

(المترجم)

والجماعي الذي كان يفتقر إليه عن طريق أحكام ثابتة، وفي الحقيقة، شكل هذا الدين النواة لشعب متماسك ومنظم أخذ يتكشف عن شعب لا يغلب.

من أجل هذا، كان لزامًا على محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يحقق طيلة بضعة قرون تفوق الشعب العربي بالأنعام عليه بدين سام في بساطته ووضوحه وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية. وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يظل في عداد[1] أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان.

---

(1) .. وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو، وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله [عن قصة الحضارة عصر الإيمان. تأليف ول ديورانت. ترجمة محمد بدران ص٤٧]. (المترجم)

(٦) انتشار الإسلام

الخلافة:

عندما توفى محمد ﷺ لم يكن قد عين خليفة له، فمن يقع عليه الاختيار؟ لقد حدث ما يحدث عادة، حينما يناط حكم بالموافقة الشعبية أن تشكل أحزاب مختلفة يعارض بعنف بعضها بعضًا.

كان حزب الصحابة الشكل من المهاجرين من قبيلته، وحزب أوفيائه الأول أنصاره بالمدينة، يعلن أن له الحق في تعيين خليفة من بينهم، وكان المدافعون عن الحقوق الشرعية الثائرون على مبدأ التعيين بالانتخاب وأنصار الحق الإلهي، يتمسكون –على العكس– بعلى، ابن عم النبي، وأحد السابقين إلى الإسلام، وزوج فاطمة بنت النبي الوحيدة. وكانت الأسرة الأرستقراطية من قريش، وهي أسرة الأمويين التي كانت آخر من اعترف بالإسلام، والتي كانت تقبض على السلطان قبل النبي، تتواطأ كذلك على السعي حثيثًا إلى الخلافة.

ولم توجد قضية سياسية أراقت كثيرًا من الدم الإسلامي، مثل مشكلة الخلافة هذه، وهي المشكلة الأولى التي طرحت أمام الإسلام، ولم تحل بعد قانونًا. وادعى عدد من القبائل والأسرات الحق في السلطان واللقب، ومنذ إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا في عهد كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ عقدت في القاهرة أو في مكة مؤتمرات متنوعة من جميع الشعوب الإسلامية، لكنها لم تستطع أن تعين الخليفة الشرعي النبي.

وطيلة القرن الأول، وقعت أزمة الحكم في أيدي بدو الجزيرة العربية. والخلفاء الراشدين الذين يمتد حكمهم من عام الهجرة حتى عام ٦٦١ ميلادية كانوا صحابة النبي: أبو بكر، عمر، عثمان، على. وقد نجح عمر في المحافظة على الوثبة

الحربية للقبائل وحقق استمرار الإسلام وتقدم. وفي سنة ٦٦١ نشأت الخلافة الأموية. وهي الطبقة الأرستقراطية التقليدية لرؤساء القبائل العربية التي كان لا بد لها أن تستمر حتى سنة ٧٥٠.

.. كانت هذه الفترة مرحلة الفتوح.

فتوح عسكرية وسياسية:

قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها في الخلق السامي الذي كان قد تشربه العرب عن الدين الجديد، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة، واحتقار للموت، جعلهما لا يغلبون، ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه المزايا الخلقية الطريقة الفنية الحربية التي كانت تحترم تشكيل القبيلة ووحدتها، وكانت تتواءم بشكل عجيب مع اتساع السهب الذي لا نهاية له: وكانت هذه الطريقة الفنية الحربية تتمثل في سهولة الحركة الفائقة للفرسان، وبساطة التسليح الذي يتكون من الرمح والقوس، وتقتصر عدتهم على العباءة والعمامة. وكانت العباءة الصوفية التي يختال بها البدوي نهارا، ويلتحف بها ليلا، والعمامة ذات الأهداب التي تقى الرأس الشمس وضربات السيف يمنحان طمأنينة كافية لهؤلاء المحاربين الصحراويين الأشداء الذين كانوا يترقبون من المعارك الواقع المباشر لنصيب ثمين من غنيمة كما ينتظرون صدق وعود بنعيم الحياة الآخرة.

لم تكن الشجاعة الحربية للعرب هي التفسير الوحيد لفتوحهم الهائلة فقد ظاهر هذه الشجاعة ضعف أعدائهم، وهما إمبراطوريتا الساسانيين والبيزنطيين المتنافستان. ولم تكن هاتان الإمبراطوريتان الغازيتان للشرق الأدنى قد حققتا نفوذا بعيد الغور في هذه الربوع: وظل كل شيء –النظام الاقتصادي والأخلاق والعادات– ذا طابع شرقي. وكان الفتح العربي يملك الرضا الضمني من السكان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الديني والسياسي، ونظام ضرائبهم الفادحة. ولم يعد الوطنيون قادرين على أن يتحملوا أخيرًا هذا الاستبداد

المتغطرس من حكام أصبح تفوقهم ضربًا من الذكريات. تلك هي الأسباب التي من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتاخمة جيرانها ذوي التاريخ الطويل كأنهم ذوو قرابى قد أقبلوا لتحريرهم من ظلم الغاصبين الأجانب الممقوت. ونادتهم بعض القبائل العربية من سوريا لنجدتهم وكان كل شيء يمهد لفتح الطريق للشعب العربي الذي لم يدهش حين وجد لغته وعنصريته الخالصة راسختين كل الرسوخ، كما أنه عندما نهكت الحروب المستمرة والخلافات الخفية، الجيش البيزنطي في سوريا، فقد مقاومته. وكانت الإمبراطورية الفارسية من جهة أخرى في انحلال تام.

بدأ الفتح العربي بسوريا، ففي سنة ٦٣٦، أحرز خالد، سيف الله الانتصار على قوى متفرقة في وادي اليرموك، واستولى بسرعة على مدن سوريا ولم يتوقف إلا عند جبال طوروس. وأشاد هذا الانتصار الباهر السريع على حساب بيزنطة بذكر الكبرياء العربي. وقد غزت القبائل العربية التي استغلت سوريا كنقطة انطلاق، غزت بعد ذلك أرمينية واندفعت حتى القوقاز.. وفي العام التالي أباد سعد بن أبي وقاس جيشًا فارسيًا كبيرًا في القادسية. واستولى على العراق. وبعد ذلك بقليل فتح العرب المدائن عاصمة العدو وأحرزوا نصرًا ساحقًا. وكانت مصر القريبة من سوريا والحجاز في وقت واحد، وقاعدة الأسطول البيزنطي تشكل تهديدًا مستمرا في الغرب، وفي سنة ٦٩٣ فتح عمرو بن العاص الإسكندرية عاصمة مصر، واندفع حتى طرابلس الغرب. وفي أقل من عشر سنوات كان العرب قد دمروا الإمبراطورية الفارسية وزعزعوا إمبراطورية بيزنطة، وهما أكبر قوتين في ذلك الوقت.

لكن تقلبات سياسات العرب الداخلية، راحت تقف من وثبتهم، فقد نشأ شقاق في صفوفهم. وكان أهل السنة والجماعة والشيعيون الموالون لعلى، والخوارج أصحاب الاتجاه الديمقراطي يواجه بعنف بعضهم بعضًا، ولقد مات ثلاث خلفاء اغتيالا من بين الخلفاء الراشدين. وأضحت المدينة ومكة نهبًا للسلب، وحرقت الكعبة، ولذلك لم يكن بد من الالتجاء إلى القوة فاستولى معاوية الداهية (٦١٠–٦٨٠) حاكم سوريا، وابن أبى سفيان، وحفيد أمية، وابن عم عبد المطلب جد

محمد، على الحكم وحسم نهائيًا موضوع الخلافة.

ومنذ ذلك التاريخ، ظلت السيادة المطلقة لأسرة الأمويين، ثم بدأت مرحلة ثانية من الفتوح. فقد شيد معاوية من خشب أرز لبنان أسطولا قويًا في غضون السنوات التي كان في أثناءها حاكم سوريا. واستولى هذا الأسطول بعد مناورات بحرية على قبرص وكريت ورودس، وأحرز في سنة ٦٣٥ ضد القوى البيزنطية على شواطئ ليفيا، أو انتصار بحري عظيم للإسلام، وحاول الأسطول العربي متشجعًا بانتصاراته القديمة –أن يستولي في سنة ٧١٦ على القسطنطينية، لكنه تخلى عن هذا المشروع بعد عام من الجهود غير المجدية. وعندما انحسر المد الإسلامي في الشمال، أخذ في مداومة إحراز انتصارات باهرة على الخطوط ذات المقاومة الضعيفة من الشرق ومن الغرب.

في الشرق، كان العرب قد وضعوا أقدامهم، في غزوة خاطفة، في وديان نهر السند ونهر أموداريا، واندفعوا تجاه آسيا الوسطى. وفي الشمال استولوا على تركستان مع مدن بخاري وطشقند وسمرقند، وبلغوا حدود منغوليا. وفي الجنوب، بعد أن عبروا نهر السند، واحتلوا دلتاه، واستولوا على مولتان الواقعة إلى جنوب البنجاب في بلاد بوذية، وفي سنة ٧١٢ استقر الإسلام في الأقاليم المتاخمة للهند.

في الغرب كان الزحف أكثر نصرًا. ففي سنة ٧٠٠ نجح العرب في طرد البيزنطيين من الأراضي التي كانت باقية في أيديهم في أفريقية، واستولوا على قرطاجنة وبعد أن هزموا البربر، تابعوا تقدمهم حتى المحيط الأطلنطي. وأشهد عقبة بن نافع الذي كان يقودهم وهو يتقدم بحصانه وسط هذه الحشود من المحاربين، أشهد الله على أنه كان لا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك.

وفي سنة ٧٠٨ كانت كل إفريقية الشمالية قد فتحت، وقد أخذ الفتح الإسلامي في محو الآثار الطفيفة من سيطرة رومانية لم تكن لها دراية بتوطين نفسها

إلى أبعد الآماد داخل البلاد، ولا في الهضاب العالية التي يقطنها البربر، وهم بدو أو أنصاف بدو. أما الإسلام فقد تواءم إلى أقصى حد مع هؤلاء السكان الذين كانت أخلاقهم شبيهة جدًا بأخلاق القبائل البدوية، ووجد العرب في البربر معاونين لهم ذوي عزمه مبدئية في وقت الفتح الإسباني. وفي وقت الفتح الإسباني. وفي ذلك العصر، كانت إسبانيا تحكم استبداديًا على يد بعض أمراء القوط الغربيين الذين كان السكان الأسبانيون – الرومانيون ينظرون إليهم بكراهية شديدة. وكان العرب بدون شك لهم مكانتهم كمحررين كما حدث في الشرق. ففي سنة ٧١١، أطلق موسى بن نصير في أوروبا ١٢,٠٠٠ بربري تحت قيادة طارق بن زياد، ونزلوا بالقرب من صخرة ضخمة أطلق عليها اسم هذا القائد البربري «جبل طارق» وتقدم لوذريق ملك القوط لمقابلتهم وتقابل الجيشان في بحيرة لا يندە، بالقرب من شريش. فقد تخلى عن لوذريق أتباعه، وقهر في سيجوفيا. (قشتالة القديمة) (٧١١)، وسار طارق الذي استغل نجاحه إلى طليطلة عاصمة المملكة، واستولى في أثناء الطريق على أرشذونة وغرناطة. وانتزعت قرطبة على حين فجأة وعند ما انتصر أيضًا في أثيخا، سلم إليه اليهود طليطلة، وهكذا، فإن هذه الحملة التي كان مقدرًا لها أن تكون غزوة للاستطلاع، انتهت في بضعة شهور بفتح مملكة.

وفي سنة ٧١٢، بادر موسى بنفسه ومعه ١٠,٠,٠ عربي، وهاجم المواضع الحصينة من ماردة ومن أشبيلية التي كان قائده قد تحاشاها من قبل عن رأي صائب وانتظمت المقاومة، ودافعت أشبيلية وماردة عن نفسيهما بعنف طيلة أكثر من عام. والتقى موسى بطارق في طيطلة وأمره بجلده لأنه لم يتبع تعليماته، ولكنه تابع مع ذلك الفتح، وبلغ سرقسطة واندفع حتى جبال البرالس. وفي سنة ٧١٣ لم يبق في أيدي المسيحيين الإسبانيين غير غير الجبال في الشمال الغربي من أسبانيا، وموسى نفسه الذي كان قد تخطى أوامر الخليفة، استدعى إلى دمشق بسبب تحول تام في الأمور. ودخل دمشق في أبهة كبيرة بموكب مؤلف من «٤٠٠ أمير قوطى حاملين تيجانًا وأحزمه من الذهب، هذا إلى فرقة ضخمة من العبيد وأسرى الحرب

المحملين بغنائم ثمينة». ولم يشفع هذا كله لدى الخليفة إذ انتهى فاتح أفريقية وإسبانيا إلى قضاء أيامه في فقر وحاجة مثله في ذلك مثل بيليزاريوس[١].

ولم تفتر جرأة خلفاء موسى عن المضي في ذلك. فكانت تتغلب روح المغامرة على الفطنة، وفي سنة ٧١٨ عبر الحر الثقفي جبال البرانس.

وبعد ذلك بعامين، على الطريق الذي يصل إلى فرنسا، وإلى ألمانيا وإيطاليا، استولى السمح بن مالك على مقاطعة سبتيمانيا، وانتزع ناريون التي حولها إلى قلعة ذات مكانة إستراتيجية فائقة. لكن في سنة ٧٢١ هزم في حملة أمام تولوز على يد إيد، دوق اكيتانيا، وفي سنة ٧٣٢ انتزع الأمير عبد الرحمن مدينة بوردو، وسار في اتجاه تور، وهناك بالقرب من بواتييه، عند ملتقى نهري فين، وكلان كان عليه أن يلتقي بإفرنج شارل[٢] مارتلس وبعد بضعة أيام من الانتظار، بادر الأمور بالهجوم. ويروي المؤرخ أن الجموع الحاشدة من الفرسان انقضوا كأنهم عاصفة شديدة على خطوط الإفرنج التي ظلت «كأنها حاجز من الجليد.. وقد عاد المسلمون إلى الهجوم على هذا الحاجز عشرين مرة.. والحائط من الحديد لا ينثني أبدًا».. ووضع الليل نهاية المعركة. وفي فجر اليوم التالي، كان العرب قد عادوا من حيث أتوا تاركين خيامهم وأمتعتهم.

وقيل عن يوم بواتييه أنه كان توقينًا لإحدى المعارك الحاسمة في التاريخ. فقد أنقذت هذه المعركة، حسب رأي العدد الأكبر من المؤرخين، العالم المسيحي، وحسمت مستقبل أوروبا.

---

(١) قائد بيزنطي (من ٤٩٤ إلى ٥٦٥) في حكم جستينيان، انتصر على الفرس والوندال ولقوط الشرقيين، ورغم هذا فقد غضب عليه الإمبراطور، وقد ذكرت بعض القصص عنه أن حياته قد انتهت بفقد بصره ومد يده. (المترجم)

(٢) أي شارل المطرقة. (المترجم)

حقًا، كان المد الإسلامي الذي ابتعد كثيرًا عن قواعد انطلاقه قد بلغ «نقطة توقفه الطبيعي.. لقد كان ينتشر –إذا جاز القول– على أسس غير ثابتة».. وكانت وثبة القبائل حقًا لا تباري في السبق، ولكن كانت هناك أسباب أخرى أيضًا تقف دون العودة إلى مهاجمة الإفرنج، فالحرب الأهلية في أسبانيا والتنافس بين العرب والبربر والاختلافات في المشاعر والمشاحنات الخفية.. كل أولئك كان قد قوض من تماسك الجيش وقوته.

ويمكن دائمًا أن نتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن المسلمين لم قفهم حاجز بواتييه الجليدي» لقد كان رؤساؤهم يظهرون من العجلة في قراراتهم، ومن المبادأة ومن الجرأة في المعارك، ومن المهارة الدقيقة في طرائق معالجة الأمور حدًا يجعل تقديراتهم أخطر. فموسى وطارق في إسبانيا، وعمرو في مصر، وسعد في فارس، ومعاوية في سوريا، وخالد نفسه على استعداد ليطيع الأوامر، إذا أراد الخليفة ذلك.. كل هؤلاء القواد العرب كانوا قد تخطوا الأهداف التي كانت تحدد لهم، وأظهروا أنهم أساتذة في فن استغلال الانتصارات. وقد لمس دون شك حلم عبور أوروبا وضرب بيزنطة من طرف وإزالة الارتباط مع خليفة دمشق، لمسا خفيفا روح هؤلاء الذين كانت معارفهم الجغرافية لا تسمو سمو خصائصهم المميزة.

ومع ذلك فإن فتوجهم كانت تبدأ عادة على أنها غزوات سريعة، وغزوات لا يسبقها تخطيط ما، ولا تبحث بحثًا متأنيًا. ولكن هذه الغزوات المذهلة والمترامية الأطراف تذكرنا سير آلة عظيمة تركت قيادتها لهؤلاء الذين أداروا محركاتها عند ما أطلقوها عند ذلك.

فتوح لغوية:

إن أعظم ما كان يتمناه الإسكندر، تحقيق إدماج الإغريق والشرقيين معا على قدم المساواة: ومن ثم، فقد أغرق في سبيل هذا الهدف آسيا الصغرى بالمزارعين الإغريق، وأسس سبعين مدينة «أكثر مما لم يدرمه جميع المنتصرين الآخرين في

الشرق».. وجمع نظامه شمل المهزومين، وأفضى إلى رخاء عظيم، لكن خلفاءه فشلوا في سياسة جمع الشعوب وإعادة بناء الإمبراطورية، ولم يكن في استطاعة هذا الإدماج أن يؤتى ثمره على الرغم من أن المشروع الاقتصادي والاجتماعي ككل بالنجاح.

وبقى المجتمع والثقافة اليونانيتان على حالهما في ظل الإدارة الرومانية التي كانت ظاهرية فقط وظلت اللغة اليونانية لغة رسمية طيلة أكثر من ألف عالم وعند قدوم العرب كان لا بد أن ينهار كل شيء دفعة واحدة، ابتداء من اللغة والفكر اليونانيين وكانت الثقافة اليونانية قد غزت من غير شك المدن والأوساط الحاكمة، لكنها لم تكن قد عرفت طريقها إلى قلوب سكان القرى، لذلك كانت الإدارة والقانون والتجارة إغريقية في المدن، وذات عرف تقليدي يختلف اختلافًا أساسيًا عنه في الأقاليم ولم يكن في استطاعة الثقافة اليونانية على الرغم من احتلالها الطويل أن تأخذ في مجموعها مكانة الحضارات الشرقية القديمة. أما الإسلام الذي كان يمت بصلة أقوى إلى هذه الحضارات، فقد رأى نفسه أنه في موطنه من أول الأمر.

والحق أنه منذ بدء الفتح، أثر العرب تأثيرًا عميقًا وسريعا في البلاد التي كان الساميون قد تركوا فيها آثارًا من لغتهم ومن عاداتهم، ففي أراضي الهلال الخصيب وفلسطين وسوريا وكلديا، ظلت اللغة العربية واللغة الأرامية –قريبة اللغة العربية– لهجتين من لهجات الولايات المترامية الأطراف. كما أن العرب عندما نفذوا إلى فينيقية، لم يجدوا أية صعوبة في أن يفهم عنهم سكانها الذين كانوا قد هاجروا من الجريرة العربية منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وفي أفريقية الشمالية، مهدت أيضًا صلات لغوية إلى استقرارهم بسبب تقارب اللهجات البربرية من اللغات السامية نتيجة التأثير الشديد لقرطاجنة مدة عشرة قرون في أفريقية الشمالية. وكانت اللهجات البونية قد حافظت على نفسها في

الريف حتى عصر الوندال. وكانت الأندلس –وهي قاعدة يونانية– تتحدث نفس اللغة على الرغم من عدة قرون صبغتها بالصبغة الرومانية، ولقد توقف الفتح العربي عند الحد الأقصى لذكريات لغوية، وعند خط انفصال تأثير قرطاجنة وتأثير الغرب الذي استند في الواقع إلى الميدان الشرقي القديم.

ويشير التاريخ إلى أن الشعوب التي افتتحت كانت تفضل اختيار أي نظام سياسي جديد على تغيير لغتها. وقد أيد هذه الحقيقة فشل الإغريق والرومان في الشرق مرة بعد مرة. فما الذي تكون عليه لغة الشعوب التي ستخضع للإسلام من الآن فصاعدًا؟ لم يكن في استطاعة أية لغة أخرى غير اللغة العربية التي كان لديها المزية القاهرة وهي لغة المنتصر. وفوق ذلك لم تكن هناك أية لهجة قادرة على أن تحدث في الأفكار تأثيرًا أكثر سموًا من اللغة العربية. وكان للعامل الديني أثره الهام في تعزيز مكانة اللغة ولما كانت اللغة والدين يساند بعضها بعضًا، فإن الشعوب التي آمنت بالدين، انضمت إلى العالم الإسلامي جسمًا وروحًا.

كان في «القرآن» فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف. وكان يطلق عليه في البلاد الإسلامية «الكتاب» وكانت تعني كلمتا «القراءة والكتابة» قراءة وكتابة القرآن، وظل «القرآن» زمنًا طويلا أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية «إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها» ولذلك يجب أن يقرأ «القرآن» في نصه الأصلي.

ابتدأ العرب إذن بقصد تعليم الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام في إعطائهم دروسًا منظمة في اللغة العربية ونشأ البحث الأول لقواعد اللغة من هذه الحاجة. ثم اتضحت ضرورة هذه البحوث فيما بعد وبخاصة لهؤلاء الذين كانوا يسعون حثيثًا وراء الوظائف العامة. ولما كانت اللغة العربية لغة دواوين الحكومة والتشريع

والدبلوماسية، فقد أصبحت لذلك في وقت قصير جدًا لغة العلاقات الاجتماعية والتجارة والأدب.

كانت الشعوب التي اعتنقت الإسلام تملك في الأغلب ثقافة فكرية تفوق ثقافة العرب. فلم يكن البدوي، لولوع بركوب الخيل وبالخلوات الطليقة، صاحب آداب. وإذا كان يملك ناصية لغته بالفطرة، فإن كل معرفته كانت تتلخص في بضع آيات من «القرآن». بيد أن الكتابة العربية الخالية من الحروف المتحركة والتي اقتصرت على حروف ساكنة رئيسية كانت تستخدم كسند للذاكرة وكانت تتطلب قواعد مضبوطة ومتماثلة، ومجموعة قواعد نحوية لا تعلم إلا في المدرسة، لكن البدوي الارستقراطي كان لا يذهب إلى المدرسة ولم يكن لديه إلا صياغة مجموعات لقواعد نحوية. وحسب هذا العربي المعتز بعنصريته أن يكون في قمة المرتبة الاجتماعية، مزودًا بدخل طيب فكان من واجب الشعوب الجديدة التي اعتنقت الإسلام أن تنهض بوضع قواعد اللغة العربية المكتوبة. وقد بدأ العلماء والمتبحرون في العلم من تلك الشعوب والمزودون من قبل بحضارة سابقة، عملهم مستندين إلى أساس راسخ من «القرآن»، وقد اكتسبوا مع طول الزمن ملكة الجدل البيزنطي فكان عليهم أن يضعوا قواعد البلاغة التي تمثلها اللغة العربية في متانة الأسلوب وقوته، وأن يبينوا عما فيها من وضوح، ونظام ودقة، وأن يهذبوا مفرداتها، وأن يمنحوها قواعد ومنطقًا وإعرابًا ونحوًا. وجندت صفوة مخلصة من رجال الفكر نفسها لهذا العمل الضخم. وعند ما تشبعت هذه الصفوة بمفهوم اللغة وروحها الحية، جمعت منتخبات من النصوص لولا هذا الجمع لضلت طريقها، وألفت معاجم، وأنشأت موسوعات. ومما لا ريب فيه أن نصيب هؤلاء الطلاب من الصفوة كان مهمًا في إعداد فقه اللغة، هذا الفقه الذي طبع في غضون ذلك الوقت بطابع الفجاءة والتوسع، اللذين هما من غير شك طابع العرب أنفسهم.

عن هذه اللهجة التي استخدمها قديمًا شعراء الجاهلية ليشيدوا بذكر رفاقهم في القتال وليساندوهم في المعركة تولدت أخيرًا أكمل لغة في العالم، وأكثرها

صلاحية من اللهجات الوطنية المسايرة لجميع المقتضيات. ومن ثم ظلت هذه اللغة لا مناص لها من بين جميع لغات البلاد المحتملة. وهنا نلاحظ أن غزارتها ودقتها يسرنا لها أن تعبر عن جميع الفروق الدقيقة للفكر، وعن جميع دقائق روح العصر الوسيط المدرسية. وهذه اللغة الشعرية التي سحرت الأعراب الجفاة، أصبحت من الآن فصاعدا لغة البلاط، والمجالس والعلماء. وأصبحت سرعة البديهة وطلاوة اللسان صفتين لا بد منهما في المجتمع الراقي أكثر مما كان المجتمع يتطلبه من رقة الحاشية وحسن الذوق.

ولا نزاع في أن اللغة والدين اللذين انتشرا معًا قاما بدور خطير في هذا العمل الضخم لتقريب هذه الإمبراطورية الشاسعة وتحويل أبنائهما إلى الإسلام. وحطمت هاتان القوتان الحواجز التي كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما في العصر القديم في هذا الميدان والأنجلوسا كسون في الفترة المعاصرة. فالذي كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة، يسمح له أن يعد عربيًا، وهذا حدث خطير في تاريخ الحضارة الإسلامية. وقد ألغت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية ومنحت بنحو ما شكلا موحدا لبلاد مشتقة مترامية الأطراف في ثلاث قارات، وأصبحت فيما بعد خالية من القيود. وكان المسلم يجد في كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات، ونفس الشرائع. وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة، كان يشعر في كل مكان بأنه في بلده، سواء أكان في رحلاته خارج الحدود أم في معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية.

وطيلة قرون عدة، كتب العلماء المسلمون، أيا كانت جنسيتهم جميع مؤلفاتهم باللغة العربية. وأثرت اللغة كما أثرى الفكر أيضًا من هذا الواقع ويعزز ذلك ويعمل على انتشاره تعليم مجاني للجميع. وآزرت أيضًا الترجمات العربية للعلم وللفلسفة اليونانيتين وكذلك للشرق الأدنى وللشرق الأوسط في انتشار هائل للأفكار واللغة. ثم إن منطق» أرسطو الذي كان يحتوي في ترجمته العربية على كتابي البلاغة

والشعر، وكذلك «أيساغوجي» لفورفويوس الصوري قد احتل منزلة متعادلة بجانب النحو العربي، بوصفه أساس الدراسات الإنسانية في الإسلام.

وقد حدث نتيجة لذلك أن اللغة العربية حققت نوعًا من نزعة دولية للآداب والعلوم في مختلف الشعوب التي كانت تؤثر فيها. وقد فرضت اللغة نفسها وتسلطت بطريقة محكمة إذ أن العرب. كانوا من بين المفكرين والعلماء الذين ساعدوا على ازدهارها. هذا إلى أن الفرس بعد خضوعهم بقليل منحوا الأدب العربي مؤلفات مبتكرة متساوية متناسقة حتى إن التأثير العربي بات لا يحس به في هذه المؤلفات. وهذا الانتصار العالمي الذي كان يتجاوز نفسه بنحو ما كان ينطلق من كتاب لا ريب فيه، ألا وهو «القرآن». وكان لتداول لغة واحدة مزايا أخرى تحققت عمليًا عن طريق كثرة المبادلات الثقافية التي أمكنها لذلك أن تنظم نفسها عبر الإمبراطورية كلها وحتى عبر حدودها. وقد أربى تأثير ابن سينا، وهو مواطن من إقليم ما وراء النهر، على مؤلفات ابن رشد فيلسوف قرطبة. وكذلك، فإن الإدريسي الذي كان يعلم ويدرس في أسبانيا يطبع بطابعه العميق مؤلفات ياقوت الحموي الذي كان يتلقى تعليمه بالقرب من بحر أورال.

كما أنه عبر الامتداد الشاسع للعالم الإسلامي، ساعدت كذلك البلاغة الحية والمؤثرات الباهرة للغة العربية على نفاذها إلى اللغات الغربية إسبانية أو لاتينية ظلت مليئة بألفاظ من أصل عربي. ومع ذلك لم يكن هذا النفاذ سهلا.

لقد قيل إن قصة الكتابة واللغة العربية لم يكن شيئًا آخر غير قصة الحضارة العربية. ومما لا جدال فيه أن هذه القصة مهدت بشكل لا نظير له إلى الانطلاق والتطور وراحت هذه الرسوم، وهذه النقوش الفنية التي اقتبست من الأرض القديمة لآسيا والهند إنشاءاتها الأولية الخطية المتفرعة من حروف هيروغليفية، راحت هذه الرسوم تصبح شيئًا فشيئًا لغة وكتابة كاملتين.

ونظرا إلى الصعوبة التي كانت تمثلها قبل كل شيء الكتابة الخطية العربية

بالنسبة للغربيين، فقد نسى عصر الحضارة الأوربية القديمة بسرعة ذكرى الحضارة العربية. واتجه الأوروبيون تجاه العصور القديمة الكلاسيكية الإغريقية والرومانية للحصول على المعارف التي كانوا يفتقرون إليها. وهذا الاختيار ولو أنه ينطوي على نكران الجميل يمكن فهمه وتصوره في ضوء هذه التحليلات. فقد كانت الحضارة الغربية لليونان وروما أكثر سهولة في طابعها على الفهم بالنسبة للغربيين إذا قيست بالحضارة العربية. وإنه لأمر رهيب في أن يكون الغرب هو الوارث لهذا الماضي الضخم، والممثل لتلك الحضارة إلا رسخ قدما في الكرة ارضية (أ. جوتيه) عندما يكون الأمر بصدد تلقين أصول مبادئ تلك الحضارة في شعوب فتية[1].

([1]) لا شك أن هذه إحدى المغالطات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع. والواقع أن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه عن الشرق الأدنى أكثر مما ابتدعوه. ويقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة –الشرق الأدنى– ترجمة محمد بدران ص١٠: وكان اليونانيون الوارث المدال المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاث آلاف من السنين، ولما جاء إلى مدائنهم من مغانم التجارة والحرب. فإذا درسنا الشرق الدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد. (المترجم)

(٧) أخلاق وعادات

السيكولوجية الإسلامية

في عصر الأمويين، في القرن السابع والثامن الميلاديين، وعلى الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التي تشكل الإسلام، كان المسلمون يبينون سلفا عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو، اغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريبًا مسلكا وحدًا. ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة. وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوي للحياة، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا في الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق. كما كان تأثير الدين عظيما بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعي معهم.

ويقال إن عشر درجات من خط العرض تغير من القوانين، ولكن الملاحظ في هذا الصدد أن الإسلام انتشر نحو الشرق ونحو الغرب، وأنه يكون شريطا مترامي الأطراف لا يحيد عن خطى عرض ٣٠، ولكن، إذا كان هذا الشريط يمتد بطريقة طوليه، فإنه ينحسر من جهة أخرى في حدود ضيقة نسبيا عرضا ولا يتقدم كثيرًا نحو الشمال أو الجنوب أعني نحو البرد الشديد، أو نحو الحرارة القصوى، فيظل المناخ تقريبا نفس المناخ في الأقطار المختلفة التي يسود فيها الإسلام. وينشأ أيضًا عن هذا الاعتدال المناخي حال صالحة لاستعداد معين للتوافق السيكولوجي.

كانت رسالة محمد (صلعم) تستهدف رفع المستوى الأخلاقي والثقافي أتباعه. ولم يوجد من بينهم من لم يؤمنوا بتفوق دينهم مهما يكن اعتقادهم ساذجا. فليس لحرية التفكير، والنضج السياسي والبراعة الفنية عند الغربيين قيمة أمام التفوق الروحي عند الشرقيين فهو في نظرهم واضح وضوح النور. إن القول الذي يوحي به إليهم التقدم العلمي الغربي: «لم يعد يعوزكم إلا القضاء على الموت» فيه

من التهكم أكثر مما فيه من إعجاب وهو يعني أن جهود الإنسان سوف تكون عاجزة أمام قضايا الآخرة التي حسمها المؤمن دفعة واحدة: فقد وضحوها لنا بكلام صريح: كل الصراحة «إذا كانت الدنيا لكم، فالآخرة لنا». وقد يوجد كثير من التعليق على هذا المفهوم الحاسم لمشكلة الإنسان. ومما لا شك فيه، أن الدين الإسلامي ينطوي على نوع من التقشف، ولكنه ينتهي إلى بذل أقل جهد فروح الكفاح للرجل الغربي التي أصبحت غاية في حد ذاتها، لا تبصر الأمور الروحانية وتؤدي من الضعف إلى الألم النفسي المبرح. فمن هو على صواب؟ إن يقين المسلم يبلغ من التمام الحد الذي يجعله كلما واجه تفاقم الأخطار تحرك رد فعل دفاعي بطريقة آلية في كل مرة توضع عقيدته فيها موضع جدل: وهذا الإيمان القوي الراسخ الرسوخ كله لا جرم يزداد رسوخا عند محاولة القضاء عليه.

ذلك أن القرآن يتنبأ بكل شيء، ويجدا الحلول مقدما لجميع القضايا ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يعسى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصى بالبر ويأمر بالرحمة، كما جاء في قوله تعالى: {وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.

وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود، والمواريث، وفي ميدان الأسرة، حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، الخ...

ويجدر بنا أن نراجع الآن باختصار شديد أخلاق المجتمع الإسلامي وعاداته، ثم البيئة التي كان يعيش فيها المسلمون الأول، وأن ندرس بعد ذلك كيف تضافرت مختلف العوامل الجثمانية والسيكولوجية لمولد حضارة جديدة.

قبل وفاة محمد (صلعم) وبفضله كانت قد بنيت الأسرة المسلمة بنساء يشد بعضه بعضًا، وهي مدينة له بالولاية التي زود بها رب الأسرة، والتي تبدو في نظر رجال الغرب متجاوزة الحد. فالمرأة ملتزمة بطاعة الرجل، وإذا عصت فعليه تأديبها، إلا أن القرآن يذكر الناس فأن أمهاتهم حملتهم في ألم وولدتهم في وهن على وهن، وأرضعتهم في أكثر من عام ويقول النبي «الجنة تحت أقدام الأمهات».

هذا وقد فرض على المسلم أن يتزوج، ويدين له أبناؤه بالطاعة والاحترام، وتراعي هذه القاعدة شكلا وموضوعا في المدينة. أما في الريف فلا يدخن طفل أمام أبيه. ولا تسأل فتاة أباها. ولما كان ألاب مطلق الحرية في ممارسة حقوقه تجاه امرأته، لأنه سيدها المطلق، فهو كذلك رب أولاده يتصرف في مستقبلهم وفقًا لصالحهم كما يتراءى له. ويستطيع من حيث المبدأ تزويجهم دون موافقتهم، ولا نستشار البنات أبدًا من جهة اختيار أزواجهن.

ووضع المرأة في الزواج هو وضع خضوع مصون يخفف بقدر معين من السلطان الذي تستمده طبيعيا من مفاتنها. لكن حياتها الحقيقية قبل الإسلام كانت تتجاوز بسرعة بضع لحظات من هيام عاشق إلى حياة طويلة ذات عمل كادح. لذلك كانت رفيقة متعة لفترة قصيرة، وخادمة على مدى الأيام. وهكذا، آمن محمد بوجوب تحسين وضعها الاجتماعي.

لقد وضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجل في القضايا الخاصة بالمصلحة. فأضبح في استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة. لكن مكانها الصحيح هو البيت. كما أن مهمتها الأساسية هي أن تنجب أطفالا. إنها «حرث لكم» وكثيرا ما كان ينظر إلى المرأة الولود نظرة تقدير. ولا غرابة في ذلك لدى مجتمع زراعي قبلي. وعلى ذلك، رسم لها النبي واجبها: «أيما امرأة مات زوجها، وهو راض عنها، دخلت الجنة».. واستنادا إلى هذا التشريع كان

يمكن أن يحكم على خيانة المرأة بالموت. وفي الحق أن تعدد الزوجات بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني.

وفي الأسرة الإسلامية، تعد ولادة الطفل وبخاصة الذكر كأنه حدث سعيد، ويحاط هذا الطفل بألوان كثيرة من الرقى ضد الجن، وبأساليب تجلب الحظ السعيد، بوضع السكر قريبا منه لكي يكون ميمونا والخبز لكي يعيش طويلا، والذهب لكي يكون غنيا.

وليس من الصعوبة تسميته باسم يقتبس عادة من الدين، ويضاف إلى اسم أبيه المسبوق بابن. ويعني اسم التصغير، هذا «ولد» مثل «آن» في إيران، و«وليهي» في بلاد باريس[1] و «بن» في إفريقية الشمالية فقولنا ابن أحمد، وأحمد آن، وأحمد وليهي، كل هذه الثلاثة تدل على ولد أحمد.

وكانت الأسرة الإسلامية ترعى دائمًا الطفل، وصحته، وتربيته رعاية كبيرة وترضع الأم هذا الطفل زمنًا طويلا، وأحيانًا لمدة أكثر من سنتين. وتقوم على تنشئته بجنان، وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة، وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة. وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تبنيهم.

واليوم، مثل الأمس، يعيش الطفل ويكبر تحت رعاية أمه في المساكن التي خصصت للنساء في غضون سنواته الأولى. وفي سن الخامسة، تقام له الحفلة التقليدية للختان[2] التي تكون على شيء كثير من الأبهة والتي تبقى دائمًا الفرصة لعيد الأسرة، تجيز دخول الطفل في الحياة الإسلامية، ومنذ ذلك الوقت، يبدأ في الإفلات من مراقبة النساء وينبغي أن يكون قادرًا على أن يقوم بنفسه بغسل يديه

---

(1) بلاد الفرس القديمة. (المترجم)

(2) هذه العادة كثيرًا ما تتقدم إلى سن مبكرة في حياة الطفل عندما يكون في اليوم السابع من مولده، وليست هذه العادة جزءًا من الإسلام نفسه. (المترجم)

ووجهه، وأن يباشر ملبسه وزينته، وأن يؤدي صلواته.

ثم إذا كان صبيًا، يبدأ في الاتصال بأبيه الذي سيشرف على تعليمه بنفسه. ولن يمنع الحنان والحب الحزم بل ولا القسوة. وتملك كل أسرة مسلمة في ذاكرتها التعليمات التي كان قد أعطاها الخليفة هارون الرشيد مؤدب ابنه الأمين: «ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة نقيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فليك بالشدة والغلظة». وكان الشاعر سعدي يقول أيضًا بطريقة أكثر إيجازًا: «إن قسوة المعلم أعظم نفعًا من لين الأب».

ويقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قويمة، وعلى تعويدهن الصلاة، وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية(١)، وبعد سنوات أيضًا، يعلمن قرض الشعر، والفنون الزخرفية والموسيقى والرقص في المدارس المخصصة لذوي اليسار في المجتمع الإسلامي واليوم يذهبن في ساعة مبكرة إلى المدرسة الابتدائية والثانوية.

وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية، أن ينظر الناس إلى العزوبة على أنها خطيئة، وعلى أن الزواج مستحب عند الله. ومن ثم، يتزوج المسلمون في سن صغيرة جدًا، حين يبلغ البنات سن البلوغ من بداية التاسعة أو العاشرة، والصبيان حوالي الخامسة عشرة، يدفع إلى ذلك ما يحض الدين عليه ويرتضيه العرب وتقتضيه المحافظة على العفة قبل الزواج. وتشير بجربة البلاد الحارة إلى أنه ليس هناك وقت للضياع، لأن المرأة إذ تصبح أمًا في سن الثالثة عشرة تذبل منذ وقت مبكر. وبيت في الزواج بترتيب من الأسرة. ففي أفريقية، كما في كل مكان في

---

(١) تدل شواهد كثيرة أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريعها للبنت العربية منذ عصر بني أمية، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات، وبرزن في علوم «القرآن» والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام. [عن سلسلة اقرأ –المساواة في الإسلام– تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي ص٤٧]. (المترجم)

العالم، تقوم النساء بهذه المهمة، وينهض بها، ويكثرون من العابثات الصغيرة الخاصة بالزواج، أما في إيران فإن الرجال هم الذين يقومون بالطلب التمهيدي للزواج المسمى بالخطبة. وعند ما يرضى الطرفان يحرر عقد الزواج على يد المأذون، ويؤيد بصداق (مهر) يقدمه الخطيب على أن يبقى ملكا للمرأة.

ويقترن الزواج بتلاوة خطبة قصيرة، وهو مناسبة بعد ذلك لوليمة فاخرة مع توزيع هدايا في احتفال متلألئ بالأنوار. والموكب الذي يذهب إلى منزل الزوج يطوف بالأماكن القريبة، ويمتطي فيه الزوج صهوة جواد، بينما تتوسط الزوجة هودجا ثم يتبع الموكب بغال محملة بالهدايا.

ويسمح بفسخ الزواج لدوافع مختلفة، وغالبًا ما يكون هذا الفسخ من عمل الزوج الذي يطلق زوجته بإعلانه أمام قاض. وإذا كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أقر حرية ما قبل الإسلام في الطلاق. فإن لا ينصح به لأنه غير مستحب عند الله، ويعوقه ببينات وجهود تبذل للصلح، وبتحكيم. وفي حال الانفصال القاطع[1] بعد فترة العدة ذات الثلاث حيضات. تحتفظ الزوجة المطلقة بمهرها وبأموالها. ويبقى الأطفال تحت رعاية الأب اللهم. إلا إذا لم يستطيعوا أن يستغنوا عن رعاية أمهم وتأخذ هذه الأخيرة في هذه الحال نفقة يحددها القاضي.

ولما كان تعدد الزوجات بعامة متتاليًا أكثر منه دفعة واحدة، فغن الزوجات الشرعيات يقبلنه على أنه حال عادية، وتتباهى الإماء غالبًا بعدد أطفالهن، وبخاصة عندما يصبحن «أمهات أولاد».

الجنازات:

لا يهاب المسلم الموت أو على الأقل يرتضيه باستسلام، وتلك نتيجة لتعاليم دينه. وينطق بالشهادتين ساعة الموت متجهًا برأسه نحو القبلة (مكة) ويتلواسم الله،

---

(1) الصيغة الشرعية هي أن يقول الزوج لزوجته «أنت طالق ثلاثًا». (المترجم)

ويطلب من الله رحمته،، والعفو عن خطاياه: ويقترن الموت بحفلات جنائزية لا تختلف عن حفلات الأديان الأخرى. ويسهر المعزون الليل على المتوفى بتلاوة صلوات من أجله وسط زفرات ونواح من نسائه وأسرته وجيرانه. والاحتفال بغسل المتوفى وتزيينه له طابع ديني وطابع مميز، ويقام الغسل في الصباح الباكر أو بحسب العادات المحلية: وعندما تلف الجثة في كفن، تحمل إلى المقبرة على النعش، ويتناوب أربعة رجال في أثناء سير الجنازة حمل النعش. لهذا فإن حمل أي ميت يعد ثوابًا. ثم يتقدم موكب الجنازة الذي يتجه إلى المسجد أو إلى المقبرة للصلاة على الأموات رجال الدين وهم ينشدون مختارات من قصائد دينية. وتأتي بعد ذلك النساء. النائحات.. اللآلئ كانت تمنعهن الشريعة الدينية أن يشتركن في الجنازة. وكان نواحهن مثل نواح النائحات المأجورات يمنع من وقت لآخر بوساطة الخلفاء الحريصين على الاحتفاظ عند الدفن بكل وقاره، لكن هذا التحريم أصبح نسيًا منسيًا.

وفي المقبرة، يودع باطن الأرض الجثة، ويوجه الرأس تجاه مكة ويستند إلى حجر عار، ويستخدم للجثة عقد من بناء خفيف من الحجر مركب كذلك من بعض الآجر (الطوب) كوقاية.

من هذا المصير المشترك لجثث البشرية وللأحجار البسيطة التي تحميها وتسندها، استخلص عمر الخيام في قطعة شعرية تفيض بالسخرية والأسى أكثر طلاوة من مقطوعتنا «أنت تراب(1)» بضعة أبيات شعرية مليئة بمثل هذه التعبيرات المثيرة للحزن التي يحلو للمرء أن يرددها كثيرًا:

«أرى أجداثنا تبنى بِلبنٍ
غدًا يا صاح أن نرد المنونا
ويصنع من ثرانا بعد، لِبن
به تبنى قصور الآخرينا

---

(1) سفر التكوين، الفصل الثالث. (المترجم)

ولا تمر عادةً هذه المادة الخشنة للدفن دون إثارة ردود فعل خاصة. وكان اِبنَ وَحشية وهو من الأحرار في معتقداتهم الدينية في القرن العاشر يزعم في كتابه عن «الفلاحة[1]» أن الجثث المدفونة كانت تسمم الأرض وأن بلاد ما بين النهرين كانت مصابة بهذا التسمم. من أجل ذلك زين بعضهم حرق الجثث، لكن هذه العادة الوثنية لم يكتب لها النجاح. وهناك عادة أخرى ظلت قائمة على الدوام في المقبرة وهي عادة فصل الجنسين. وتؤكد التجربة أن هذا الأمر كان محرمًا تحريمًا باتًا. فيعد أمرًا إجراميًا أن يجمع في حفرة واحدة بين جثتي رجل وامرأة اللهم إلا إذا فصل بينهما حاجز من اللبن أو الآجر وما إليهما.

واختيار المقبرة والمثوى الأخير لا يقل عما سبق غرابة. وقديمًا، بقي في عادات المسلمين أن يدفنوا موتاهم في نفس أماكنهم الأصلية ذاتها. وكان الجمهور من الموتى يدفنون في ظل ضريح لولي محلي. وكان الأغنياء يفضلون الأمكنة المقدسة الرسمية. وكان بعض المسلمين المحنطين والمعطرين، والذين ينتمون إلى المذهب الشيعي يحصلون على مقابر فخمة فيما بين بلاد النهرين، ولكن السنيين كانوا يفضلون المدينة، أو بيت المقدس أو دمشق، وما شرع اليهود والمسيحيون يسلكون نفس المسلك حتى انتظمت مشروعات خاصة بالجنازات في نفس الوقت الذي كانت بعض الأماكن تفضل غيرها. وكان لا بد أن تنشأ تجارة رابحة عن هذه التجارة الجنائزية.

لكن قوة إيمان المسلم لم تكن تتأثر بذلك، فهو دائمًا على استعداد لمواجهة الموت، وكان يحمل كفنه في أثناء أسفاره، وعندما كان يشعر باقتراب أجله يلف نفسه بنفسه في كفنه بعد وضوئه الأخير وهو يدعو رفقاءه أن يمضوا في طريقهم.

---

(1) نشر نصه وترجمته إلى الإسبانية بانكويري في مدريد سنة ١٨٠٢، وترجمه إلى الفرنسية كليمان موليه ونشره في باريس فيما بين عامي ١٨٦٤ – ١٨٦٧).

(المترجم)

الرقيق:

كان العبد قديمًا في المجتمع الإسلامي في أسفل السلم الاجتماعي، ولا ينبغي لأي مسلم أن يسترق. وكان «القرآن» ينظر إلى أسرى الحرب غير المسلمين والأطفال الذين ولدوا من آباء أرقاء على أنهم المصادر الوحدة الشرعية للرق، وعلى الرغم من أن «القرآن» أمر بحسن معاملتهم، كان لسيدهم حق الحياة والموت تجاه أرقائه، وعلى أي حال كان هؤلاء المحرومين من الحياة الذين كانت تثقل كواهلهم الأعمال الحقيرة أن يؤدوا أعمالا في المدن، وكان في استطاعة أطفالهم أن يلقنوا تعليما خاصًا. والأمة التي كانت تنجب من سيدها كان يطلق عليها «أم ولد» وكان هذا الطفل المميز يولد حرًا وشرعيًا. ومن ثم، نرى بعض أولاد الأرقاء يتحررون ويبلغون مناصب عالية سياسية أو اجتماعية. ويصل بعضهم أيضًا – مثل المماليك الأول– إلى قمة المناصب وتحملوا أعباء السلطان. وفي الحق أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان قد أباح الرق كثير محتوم.. هذا الرق كان قد أباحه سلفًا كتاب العهد القديم. ولكن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لم يتوان أبدًا عن محاولة تحسين هذه العادة. كما أن «القرآن» والسنة عدا عتق أي عبد بمثابة عبادة يتقرب بها إلى الله.

تجارة الرقيق

يبدو أن تجارة الرقيق، التي انتشرت من تلقاء نفسها في قبائل مترامية متجمعة بعيدًا عن أية رقابة كانت قديمًا تكاد تكون وقفًا على اليهود الذين كانوا يغشون الأسواق الكبيرة الأوروبية في بزاغ ومجد بورج واكسي لا شابل والبندقية وجنوة. وكان الأسرى المقبوض عليهم بالجملة في أثناء هذه الحملات في تركستان أو في إفريقية أو في إسبانيا أو في إيطاليا والذين يباعون من جديد بالمزاد موضع تجارة نشيطة. وكان بيع هؤلاء الأسرى يعقد تجزئة في أسواق تقام في المدن تحت مراقبة رسمية لأنواعهم ولأثمانهم، لأن الدولة كانت تقتطع من هؤلاء الأسرى عددًا معينًا

لسد حاجة الجيش: فكان الأرقاء الأتراك والصقالبة تبعًا لهذا أرفع الجنود منزلة. وعلى العكس يعد أرقاء بيزنطة وأرقاء الهند للحرف الصناعية، وكان الأرقاء الآخرون يخصصون للأعمال المنزلية ويستخدمون كخصيان وحظيات وفقًا لجنسهم.

كان الراقصون والممثلون والمغنون يختارون في العادة من بين الأرقاء. أما الأعمال الشاقة في الحقل أو البحر فكانت توكل للأرقاء السود.

كان اللون والعنصر والجنس كلها تتدخل كعوامل في تحديد ثمن العبد. ففي القرن العاشر كان أي حبشي شاب يساوي تقريبًا من ١٨ إلى ٢٠ دينارًا والشاب الأسود بـ ٣٠ دينارًا والأمة السوداء بـ ٣٠٠. والجارية البيضاء بـ ١٠٠٠ وأكثر، حتى ولو كانت لا تتقن صناعة ما. وكانت الشابات الصغيرات الجميلات يؤدين بغية مضاعفة قيمتهن التجارية. وقد ألفت كتب في الأجناس تفصل القول في حسنات كل جنس وعيوبه ومواهبه. وظهر فن خاص لشراء الرقيق وبيعهم. فقبل التوجه إلى الأسواق كان المقدر عليهم البيع يزينون، وتجمل وجوههم ويزال شعر أجسادهم عند الحاجة لإخفاء حقيقة سنهم. ولم يكن المشترون يجهلون هذه الممارسات في الدلالة فكانوا على حذر منهم. وكان كل مشتر يعرف فوق ذلك الصفات والعيوب الخاصة بأجناس معينة: فكان أرقاء الحبشة ينظر إليهم على أنهم لصوص وهم معروفون بذلك. وكان أحسن الطاهيات يأتين من السند. وكان أرقاء تركيا لا يحسنون الاقتصاد. وكان الأرقاء السود لا يعرفون غير الرقص.

فصل الجنسين:

في الشرق وحتى في الزمن المعاصر، يعيش الجنسان منفصلين ولا يختلط مجتمع النساء ومجتمع الرجال بعضهما ببعض. ولم تجر أبدًا معالجة الأمور أو المصاحبة بين أشخاص من جنس مختلف عن الآخر لأن الفصل تام بين

الجنسين[1]. فهناك مجتمعات وحفلات ومآدب عشاء خاصة بالرجال، وهناك أدب خاص بالرجل غني جدًا بكتب الغزل. ويعيش النساء من جانبهن فيما بينهن، ويتزاورن زيارات متبادلة، وعندما يشغلن بالهن بالأمور الصغيرة الأنثوية اللانهائية، يكرسن جزءًا من نهارهن في العناية بأسباب جمالهن التي تمارس في الحمامات.

وحياتهن أقل رتابة مما يتصوره المرء غالبًا، لكن يظل المستوى الفكري للمرأة غير المتحرة بسبب الحياة الحديثة منخفضًا جدًا ما عدا حالات نادرة. وليس الأمر كذلك على مستوى الشعب. ففي المدينة تشتغل المرأة في المشغل أو في المنزل أو في الحقول. إنها تساعد زوجها وليس هذا عن تعطل ولكن لكي تزيد من موارد الأسرة وفي هذه الظروف ينبغي احترام مبدأ الفصل بين الجنسين بقدر الطاقة. وقد خفف التطور الاجتماعي جزءًا منه، ولكن لا يزال العرف قائمًا.

الخصيان:

كان وجود الخصيان في منزل دليلا على رفاهية صاحبه، ولأنهم توابع ضرورية للحريم، كانت الأسر الميسورة تمتلك منهم الكثير لتعهد إليهم حراسة الحريم والأطفال وكانوا يشترون بثمن غال في الشمال وفي الهند وفي إفريقية. وأحيانًا يرتفع ثمنهم إذا عهد إليهم خطف رجال الدين الذين كان البيزنطيون يخصونهم لكي يسمحوا لنسائهم بالذهاب إلى الكنائس دون خطر على شرفهن.

الحريم:

أخذ الناس عن الحريم فكرة غير صحيحة ومعنى الكلمة مقدس، محرم، ويقصد بها الجزء الأسرى من المنزل المخصص للنساء، والذي كان لا يستطيع

([1]) لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة طبيعة كل من الجنسين وأعبائه في الحياة، وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة نفسها. [عن سلسة اقرأ- المساواة في الإسلام- تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي ص٥١].

(المترجم)

أحد من غير أهل المنزل التسلل إليه. وإذا كانت شريعة القرآن تبيح للمسلم أن يتزوج أربع نساء، بل أن يتخذ عددًا غير محدود من الخطيات، فأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى تعدد الزوجات على أنه ضرورة بيولوجية قصد بها تعويض عدد الوفيات المتزايد، والهبوط السريع للقدرة على النسل. في البلاد الحارة. حقًا إن هذه العادة التي كانت تبررها الضرورة إلى الحريم، ظلت ترفًا سهل المنال على الأغنياء وحدهم. وفي الطبقة العاملة كان العامل يكتفي طوعًا أو كرهًا بزوجة واحدة. وكان المرء يضحك دون تحفظ من محن أهالي البيوتات المتعددة الزوجات. وعلى أي حال، فقد قصر تبرير هذا النظام في القرون الأولى من الفتح بضرورة تلافي استنفاد العنصر العربي وزيادة عدد مواليده.

البغاء:

الدين من حيث المبدأ يحرم البغاء، لكن الدولة كانت تأذن به وتنظر إليه على أنه مصدر للدخل. وكانت كل مدينة تملك سوقًا لها من الخربات[1]. وتنبى في هذه السوق منازل ذات طابق واحد، وذات ترف وكانت تشبع رغبات الحرفاء المترفين. كما كانت الأحكام الصارمة تقرر من وقت لآخر إيصادها، وذهب الخليفة الحاكم بأمر الله إلى تحريم الخروج على النساء في الشوارع، ومنع حتى صانعي الأحذية من أن يبيعوا لهن أحذية. لكن هذا لم يكن إلا انتفاضات ذات أمد قصير لأن تكاثر الثروات كان يزيد من الرفاهية بجميع صورها. ومنذ خلافة الرشيد، كان القصاصون العرب يولمون ولائم ذات نزوات أنثوية من غلمان أو ندمان، وكان شعراء إباحيون مثل أبى نواس يخصصون لهم أشعارًا غزلة وأخذت هذه الرقاعة وهذا الترقع ينتشران حتى إن النساء بدورهن سقطن في انحرافات مشابهة تحت حكم الأمين.

---

(1) الخربات = العيوب والعورات والزلات.

(المترجم)

الصحة:

كما أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قاد العرب إلى درجة من القناعة ومن الاعتدال التي لم يكن لها نظير قط، فقد لقنهم معارف أولية، بل دقيقة عن الصحة، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «النظافة من الإيمان» لكنها كانت أحيانًا بابًا للدخل، ومن ثم كان الأغنياء يهتمون اهتمامًا كبيرًا بشخصهم، فبعد أن يسترخوا لمدة طويلة في الحمام، وبعد أن يعهدوا بأيديهم إلى مقلم الأظافر، كان عدد كبير منهم لا يترددون في تطييب أنفسهم، وفي زيادة بريق عيونهم بتزجيج الحواجب والأهداب بوساطة عجينة أساسها كحل من أصبهان. وكان الفقراء أكثر إهمالا على الرغم من أن الحمامات العامة كانت كثيرة العدد. وكان الناس –أغنياء أو فقراء– يعفون لحاهم التي كانت تحلق من الوسط لكي تميزهم عن اليهود، وكان المرء يستطيع أن يحدد طبقتهم تبعًا للعناية التي ترجل بها لحيتهم. وفي الحق أن الرجل الشرقي يعني عناية كبيرة بجسمه وتبدو عادة الختان نفسها مقصورة على أنها اهتمام أولى بالنظافة.

الحجاب وذوق العصر (الموضة):

في كل زمن، في الشرق، كان النساء ذات اليسار يغطين الوجه ليصن بشرتهن من قسوة الجو. وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم بنشر هذه العادة بين جميع نساء العرب اللاتي زادهن الإسلام شرفًا. لكن الانتشار العظيم للديانة الإسلامية جعل هذا الإجراء غير عملي، وأصبح الحجاب من جديد العلامة المميزة لطبقة اجتماعية. وكان وضع الحجاب في الحق غير متفق مع الأعمال الريفية وأعفت نساء الشعب وجوههن من الحجاب. وكانت الملابس وزينة الرأس تتغير مع ذوق العصر. وطيلة القرن الأول الهجري كان الرجال الأشراف يرتدون الملابس من الحرير الأبيض أو الأسود ويتنقلون على صهوة الخيل. وكان أوساط الأغنياء يرتدون ملابس من ألوان قابلة لتحمل القدرة وفيما بعد تحول الأسود والأبيض إلى ألوان

زاهية أو متنوعة تنوعًا دقيقًا، لكن البدوي كان يحافظ دائمًا على ملبسه الفضفاض و(شاله) وعقاله.

كان لباس الرأس في العادة مكونًا من عمامة يصحبها وشاح ملون، وكان الأزقاء يرتدون قلنسوات من اللباد. وفي عصر الرشيد، كان ذوق العصر في ارتداء القلنسوات المدببة الأطراف التي كانت في الأصل لباس رأس على شكل طرطور في العصر الوسيط الأوروبي. وكان الحذاء أو النعل أحمر اللون للشعب، وأصفر أو أسود للطبقة الميسورة. وكانت العباءات المنسوجة من شعر الماعز فضفاضة بأكمام عريضة جدًا يستطيع المسلم أن يدس فيها أي شيء كزوج من النعال مثلا. والمرأة التي كانت تبقى من حيث المبدأ في الحريم، تملك صوانا من الداخل مصنوعا من نسيج قطن رقيق، ومن أجزاء عليا لحلل مبرقشة، ومن أحزمة مبرقشة لامعة برسوم مرصعة، ومن (تنورات) ملونة عريضة جدًا. وفي الخارج، تلف المرأة نفسها دائما إلى جانب خمار من (شاش) أو من (دانتلا) نغطي الوجه إلى ما تحت العينين، تلف نفسها بإزار واسع جدًا من نسيج حرير أطلسي لإخفاء الأوضاع المثيرة لجسم الأنثى. وترتدي المرأة المتواضعة الحال نفس الملبس، لكن الأنسجة لم تكن من نوع ممتاز، وكانت الأصواف والأقطان تنسج نسيجا رقيقا متينا يستطاع صبغها عدة مرات قبل استهلاكها. لذا كانت صناعة الصباغة مزدهرة بوجه خاص.

الملاهي والألعاب الرياضية:

كان لا بد للشرق أن يسبق الغرب بكرم ضيافته، ورقة أدبه، ومشاربه الطيبة لدى جميع طبقات المجتمع. وكانت الطبقة الميسورة تتخفف من الولائم والانغماس في الحب بإقامة مباريات في الفلسفة وفي العلوم، وفي الدب تتخللها مناقشات لطيفة يسودها دائمًا البهجة والمرح وكانوا يحضرون أحيانا حفلات من الغناء والموسيقى والشعر وتلاوة آيات من القرآن.

كان الشعب مولعًا بمعارك الديكة، وحيل المشعوذين والسحرة وبمسرح

(الأراجوز) وكان يستمع أحيانًا إلى أغاني الشوارع أو يتغنى بأغانيه الخاصة. وكان يتقبل بسهولة –وهو البسيط المرح في حياته الجارية– المصاعب والتعقيدات، وكان يتلقى ضيق الحال بصبر واحتمال. وكان يعرف الامتثال لضربات القدر بعزة نفس. وعرف المسلم ذو الروح اليقظة والفهم السريع على مدى الأيام أن يتسلى بالقليل ويضحك في طلاقة.

وكانت المباريات الرياضية من قبل ذات منزلة كبيرة. وتروى النصوص المعاصرة أن العرب كانوا يمارسون بانتظام الملاكمة والمصارعة والألعاب الرياضية والمبارزة بالسلاح الأبيض والقوس والرمح والفروسية (والبولو[1]) وكانوا يلعبون بالشطرنج والنرد، لكن لعب الميسر كان محرمًا، وإذا كان سباق الخيل فيما سلف ذا فائدة عظيمة فإن الصيد كان يشكل أكثر المسليات شأنًا.

ولكي ننتهي من هذا الحديث مع هذا الفصل عن الأخلاق والعادات يجدر بنا أن نلقى نظرة في الأحوال المادية لماكنهم.

المنزل

في الشرق كانت منازل الفقراء كما هي الآن لا تكاد تزيد صلابة ورحابة عن الخيمة. وقد أقيمت هذه المنازل على غرار الخيمة بحيث لا تصلح إلا لحياة قصيرة، فقد بنى سوادها بلبن أو ملاط مع سقف من سعف النخيل ومن طين مجفف، وتبنى أحيانًا منازل الطبقة (البورجوازية) من طابقين وقاعة ملائمة للإقامة محلاة بقبة وشرفة ويطل باب الدخول على فناء داخلي بحديقة ونافورة من المياه، وجزء من الحديقة مخصص للأزهار. ويتجه في الصل فن معمار هذه المنازل إلى توفير أكبر قدر ممكن من العزلة والأمن قبل كل شيء. ومن النسيم العليل بعد ذلك. ومن أجل ذلك توصد الأبواب دائمًا إيصادًا محكمًا بالمزلاج. وتسمح

([1]) المعروف عند العرب بالجحف.

(المترجم)

النوافذ المزودة بعريش من الخشب المحفور (مشربيات) والتي تقوم في وقت واحد مقام النوافذ، والستائر والمصاريع، تسمح هذه النوافذ بمرور الهواء، وتتيح الرؤية من الداخل إلى الخارج، وتمنع الرؤية من الخارج إلى الداخل. وتشكل السقوف سطوحا تصونها فتحات صغيرة مثقوبة من أجل مرور الهواء. وكانت أكثر المنازل يسارًا خالية من أنابيب للمياه، ووسائل لتوصيل المياه. وعند خلو البيت من صهريج أو بئر، كان العرب يجلبون المياه بوساطة القرب، كما أن المنزل العربي كان به غرفة صغيرة ذات حفرة لقضاء الحاجة ولم يكن للدار موقد، وكانت وسائل التدفئة تعتمد على مواقد سهلة الحمل.

وعند الفقراء، تغطى الأرض الخشبية إما بالبسط أو بالحصير، وتطلى الحوائط المبنية من الجبس بألوان متنوعة، وعلى الجوانب الثلاث من الغرفة يشكل الحائط مصطبة منخفضة تغطى ببسط أو بوسائد تقوم مقام المقاعد، وفي الليل يمد عليها الفراش وتشكل الأريكة قطعة الأثاث الرئيسية لحجرة الأكل، ولما كانت مستندة إلى الحائط ذي ثلاثة الجوانب من الغرفة، فإنها تغطى دائمًا بمساند وتشكل مقاعد أخرى من الجلد موضوعة هنا وهناك على البساط وكذلك موائد صغيرة منخفضة تشكل هذه القطع من الأثاث لهذه الحجرة الرئيسية. ومع الموائد والمقاعد والمساند يتكون أثاث التدبير المنزلي من أطباق وأدوات من النحاس، وأباريق وأحواض وأواني ومصابيح تأذن بمرور الضوء موضوعة أمام المرايا وفجوات في الحائط ذات شكل قوطي تستخدم لترتيب تحف صغيرة أو كتب. ولا يوجد عادة قمطر (دولاب)، بل خزائن مزودة بأقفال متينة توضع فيها الملابس الداخلية والملابس الخارجية وكذلك المراتب والأغطية ومساند للرأس. ومع ذلك، وحتى إذا عنينا المنازل المتواضعة، فإن البيت العربي يمثل مظهرًا من الترف والرفاهية بفضل البسط والطنافس والستائر. وتساعد أخيرًا الأسقف والحوائط المزينة بملاط من كلس، ومن رخام، ومن رسوم ملونة، ومن فسيفساء على إعطاء جو دافئ رائع.

وفي المدن، كانت تتجمع المنازل في أحياء متميزة تبعًا للطوائف أو القبائل

وكانت أحيانًا تتجمع مختلف الطوائف في حي واحد.

وابتداء من القرن العاشر، وتمشيًا مع نمو عدد السكان، حتم على العرب أن يتجمعوا في عمارات مكونة من ستة طوابق أو سبعة أو ثمانية. وكانت هذه الأبنية مكونة دائمًا من أربعة مساكن أصلية يحيط بها فناء داخلي مجهز بحديقة. وكان كل طابق مزينًا برواق من الآجر المنحوت في المحيط الذي كانت تشق منه المساكن طريقها وكان من الصعب جدًا على النساء أن يحمين أنفسهن داخل هذه المساكن من الحرارة أثناء الصيف الطويل اللهم إلا بأن يظهرن غير محجبات. وكان الجميع يحتالون مع ذلك بمشقة على خلق نسيم عليل قابت بمساعدة بعض الطنافس المرشوشة غالبًا بالمياه وبجهاز من المراوح التي تهز ببطء.

وعلى الجملة كانت معدات هذه المنازل لا تنقصها رفاهية؛ أو أناقة. فالأفنية التي كانت تنفجر من وسطها نافورات من المياه الرفيعة المجنحة، كانت تتجلى في شكل بساتين مصغرة، تسترعي النظر إليها بأراضها المغطاة بالعشب الأخضر المنسقة بشكل يثير الإعجاب والمزينة بالأزهار والرياحين.

التغذية:

كان للمطبخ أوفى نصيب من العناية في الربوع الإسلامية، وقد خصص عدد من الطرق لفن الطهو ويذكر من بين الطرق الأخرى كتاب «الوصلة إلى الحبيب» من تأليف أحد أحفاد صلاح الدين و«كتاب المطبخ» لمحمد البغدادي في القرن الثالث عشر. وفي مختلف طبقات المجتمع كان يحلو للعرب الاجتماع حول الموائد المزودة بأفخر الأطعمة. وكان استخدام الشوكة غير متداول، بل كانوا يأكلون بأصابعهم ثم يغسلونها مستخدمين في ذلك الأباريق والطسوت والفوط المصنوعة من القطن الرقيق، وكان استخدام هذه الأدوات شائعًا لديهم. ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق لأكل الثريد الذي كان في العادة لذيذ الطعم حتى عند الفقراء منهم.

وإذا كان القرآن قد حرم أكل الميتة أو الذبيحة التي ذبحت على وجه آخر غير الشرعي وكذلك لحم الخنزير أو الكلب، أو لحم ما أهل لغير الله به فإن الخضر على العكس كانت منتشرة جدًا. فكان الإيثار يجري على الباذنجان واللوبيا والحمص والكراث والبصل، وكان كل شيء متبلا بشيء من فلفل وأفاوية.

كان دهن الخروف المذاب والطيب كثير الاستعمال في المطبخ، وكان الزبد عادة مخصصًا للسكريات والحلوى التي كان لها قدرها بخاصة عند خبراء المآكل الفاخرة. وكانت التوابل من قرفة، ومن حبة القرنفل، وفلفل أسود، وزنجبيل، الخ.. وكذلك الفواكه ممتازة امتيازًا لا مثيل له. وظل النبيذ في الأصل محرمًا. ومع ذلك، كان الشعراء يشيدون بمزاياه إذ كان محببًا لديهم التغني بالقصائد الخمرية التي لا تقل في قوة نسجها عن القصائد الأخرى في الأدب العربي.

كان الفقراء يعيشون على ثريدة من اللبن أو على حساء من اللبن (اسبيذج) ومن الدقيق (عصيدة) ومن طعام متبل من الباذنجان. وكانت الأكلات الشهية تحتوي على البطارخ والفطائر المحشوة من عش غراب صحراء الجزيرة العربية وعلى لحوم مشوية ودجاج، وفطائر من الفواكه المحشوة. وكانت هذه الأطعمة تعد بعناية فائقة وكان بعض الراقصات والموسيقيين يحبون الولائم التي كان يعقبها أرق وأندر عطور الجزيرة العربية القى تفوح بأبخرة عطرية من مباخر ثمينة.

ظهرت القهوة الحجازية في القرن الثاني عشر، على حين أن الشاي الصيني المعطر بالنعناع كان منذ وقت طويل له مكانته، أما استعمال التبغ فلم يدخل في العادات العربية قبل القرن السادس عشر.

قد لا نستطيع أن نختم هذا الفصل القصير دون استرجاع العادات والأصول والعلاقات المجاملة التي كانت تفرض نفسها في أثناء المآدب والاستقبالات. ويوضح كتاب مختصر في آداب السلوك عن هذا العصر انه من الضروري أن يتصرف المرء بأدب رقيق وأن يستعمل أساليب رقيقة وألا يتخلى أبدًا عن أي شكل

من أشكال الوقار وجدير به أن يتجنب بعناية المزاح الخشن الذي يجري في غير موضعه. ويقتضي حسن الهيئة أن يكون الملبس نظيفًا وغير مستهلك. وفي أثناء تناول الطعام على المرء أن يتحاشى الإفراط في تناول الثوم والبصل وأنواع الفلفل ذات الرائحة النفاذة، وعليه أن يتحاشى كذلك أن يمص أصابعه على المائدة وأن ينظف أسنانه بمرأى من الناس.

(٨) تطور الدولة والأمة

يقال إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة: المعنى الأول دين، والثاني دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة.

بعد أن خضع العرب للتربية الدينية، كان التبشير بنظام جماعي وعسكري بين بدو عرفوا بالفوضى والفردية كأنه تبشير في صحراء بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.

وقد نجح محمد (صلى الله عليه وسلم) مع ذلك في ربط هؤلاء البشر الجفاة بأوضاع غريبة جدًا على طبيعتهم. لكن عند وفاته -كما حدث الرواة- زعمت قبائل معينة أن الخليفة لم ينتخب من بينها وأن أشراف المدينة ليسوا جديرين بحكمهم. وإذ قامت هذه القبائل على الردة فقد اتجهت نحو المدينة وكانت فترة من فوضى شاملة.

وفي بضع معارك قصيرة وعنيفة حقق الخليفة أبو بكر (المتوفى في المدينة في عام ٦٣٤) وحمو محمد (صلى الله عليه وسلم) وخليفته، بمساعدة خالد بن الوليد (٥٨٢- ٦٤٢) سيف الإسلام، بقوة السلاح، حكم شريعة «القرآن» الذي هو في الوقت نفسه تأكيد لحكمه نفسه. وقد كان هؤلاء القواد المسلمون، وهم تابعون متحمسون لمحمد (صلى الله عليه وسلم) يحاربون بنفس الإيمان الذي يؤدون به الصلاة. وهذا الإيمان المتوقد الذي كان يحث جنودهم على الجهاد، أثر تأثيرًا بعيد الغور في أعدائهم، وعند ما عاد المرتدون إلى العقيدة الدينية الحق، تحققت من جديد الوحدة الدينية والسياسية معًا تحت سلطان حاكم واحد. وأسست الدولة الإسلامية مستوفية جميع الأركان.

لقد أراد المؤرخون أن يروا في انتشار الدولة العربية والأمة العربية وفي تكوينهما ثمرة تخطيط أقيم سلفًا، بعد تأملات ناضجة حكيمة.

وفي حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يتهم بالجنون كل من يتنبأ بمثل هذه الأحداث، ولم يتبادر كثيرًا إلى ذهن خلفائه التمهيد لمجازفة خطيرة واسعة النطاق.

وإذا كان هناك منطق في هذا التعاقب من الأحداث الخارقة للعادة، فإنه يتجلى في الاستغلال الواسع النطاق للظروف المواتية.

لقد كانت القبائل العربية تتقدم على الدوام متوغلة بعيدًا أو قريبًا خارج حدود الجزيرة العربية، وقد أدرك البيزنطيون فجأة أن هذه القبائل كانت تركز نفسها كثيرًا في كل مرة وأن غزواتها أصبحت متكررة أكثر فأكثر فإذا كانت هذه الغزوات الحربية قد استجابت للغرائز العريقة في القدم لرجال تعودوا أن يقاتل بعضهم بعضًا، وإذا كان هؤلاء الرجال قد كفوا عن القيام بهذه اللعبة على أرضهم الخاصة، فإن هذا يفسر لنا أسباب انتشار فتوحاتهم كما يبرر كذلك وفرة هجماتهم وعنفها. وعندما كان خالد يمتطي صهوة جواده في جنوب العراق إذ به يظهر فجأة بالقرب من دمشق ليساعد بعض القبائل في معركتها ضد بيزنطة حتى قيل إنه وقع من السماء. وكان قد سار في المقدمة، وكله ثقة في هؤلاء الجنود الممتازين المدربين تدريبًا عظيمًا في صحراء لا طرق فيها ممهدة ولا ينابيع مياه.

وترجع سهولة تحركاتهم ومباغتتها إلى تناسق ملحوظ من عناصر ملتئمة، وإلى قيادة حازمة كانت تظفر دائمًا بشيء جديد. وكانت تستطيع أن تعوض عدم الكفاية العددية للقبائل كما أنه ظهر فجأة للأعين العربية المشدوهة، أن المستقبل كان يناديها للانتصار والفتح. فقد كانت الأسباب الاقتصادية والسياسية والدينية تجعل النجاح محققا، ومن جهة اخرى لم تعد التربة القاحلة للجزيرة العربية قادرة على تغذية سكان يزدادون على الدوام. وكان ضعف بيزنطة والفرس وانهيارهما الكامل مما يحث أخيرًا على مهاجمة هاتين الإمبراطوريتين بكثير من الاقتناع لا سيما أن قبائل كثيرة كانت تدعو إلى مساعدة إخوانهم المسلمين.

وقد اعتقد العرب فيما وبين أنفسهم -على غرار محمد (صلى الله عليه وسلم) - اعتقادًا صادرًا عن إدراك وضرورة أن الإسلام يستطيع بل ويحتم عليه أن ينتصر بالسلاح، فلم يصعب كثيرًا على الخليفة عمر (٦٣٤- ٦٤٤) وهو الذكي، الحازم، والمدرك لهذا المفهوم الحرَكي (الديناميكي) للإسلام أن يحسن توجيه المسلمين لكي يدركوا عظمة رسالتهم. وكان على عمر في أثناء ذلك، وهو الخليفة العظيم الكريم أن يعزل خالدًا الذي كان قد شان شهرته في الشجاعة أكثر من مرة بسبب الأعمال القاسية المتكررة فقد دل هذا العقاب المثالي للعرب على أن دعوتهم ليست مقصودة على دعوة جنود للإسلام فحسب بل كانت كذلك دعوة رواد له ومبشرين به.

وتكشف الفتح العربي إذ ذاك عما كان يمكن أن يحققه الأقدام والإيمان. فقد استولى العرب على دمشق في سنة ٦٣٥، وإنطاكية في سنة ٦٣٦ وبيت المقدس في سنة ٦٣٨، وبقية بلاد سوريا في سنة ٦٤٠، وفارس ومصر في سنة ٦٤١، وتوالت الفتوح بعضها إثر بعض وهكذا في أقل من عشر سنوات بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت حفنة من الجنود قد جعلت من نفسها سيدة لإمبراطورية مترامية الأطراف. ومن ذلك الوقت، عاشت القبائل العربية في هذه الربوع، وأصبحت أصلا لذرية. وتكاثرت بسرعة، على حين أن قبائل أخرى بدوية كانت تقبل أيضا على دعم تأثيرها المستعرب باختلاطها بالسكان الأصليين الذين كانوا يحيون حياة هؤلاء العرب المستعمرين. وكانوا يهرعون من كل صوب، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن فارس إلى طرابلس الغرب. ولكن، عبر هذه الامتدادات الشاسعة، وفي زحمة هذه القبائل الأجنبية، لم يكن العرب إلا أقلية ضعيفة. ولم يطل بهذه الأقلية المتحفزة، النابهة المقدام وهذه أصدق صفة لها، لم يطل بها البقاء حتى ترى أن الربوع الغزوة كانت آخذة في الانهيار ما في ذلك شك. وكانت هذه الأقلية منظمة تنظيما حسنًا، ومن ثم لم تغير شيئًا من الجهاز الإداري الذي وضع من قبل. وكان عمر قد حرم على أتباعه،

الاستحواذ على الأراضي كي يحافظ في عزم على الطبقة العسكرية وخصائصها الحربية. ولا جرم، فقد طالب المنتصرون المغلوبين بالفوائد الاقتصادية والمالية دون أن يلحق ذلك ضررًا، بالناحية السياسية والمادية. هذا إلى أنهم، وعلى عكس ما كان يعتقد فيهم، قد عرفوا بفطانة تثير الإعجاب وبحماسة سياسية صادقة، صانتهم من التأثر بأي تبشير لدين آخر، وكان السكان المغزوون يحتفظون بدينهم التقليدي في نظير ضريبة عقارية، وجزية. من أجل ذلك كان نظامهم في الحياة يسير سيره الطبيعي كما كان عليه في الماضي. وخلدت من جديد ذكرى الحضارات القديمة والثقافة اليونانية مع الثقافة الإسلامية التي كان لزامًا عليها أن تنمي نفسها على أسس هذه الحضارات. وقد حدث أيضًا أن الشعوب التي اهتدت بهدى الإسلام انتهت إلى نسيان ماضيها التاريخي الخالص، وإلى مزجه بالحاضر كأنما الإسلام سيكتب له البقاء. وأهل امتزاج هذه الحضارات لم يكن بعد امتزاجًا تامًا.

وقد قتل سنة ٦٤٤ عمر الورع الذي كان يتألم وهو يشاهد شعبه وقد غرق إلى أذنيه في الثراء، ثم قتل خليفته عثمان على هذا المنوال في سنة ٦٥٦، وكان الحزب الهاشمي ينادي حين ذاك بخلافة على زوج بنت النبي (صلى الله عليه وسلم). لكن الطبقة الارستقراطية للقبائل القرشية والتي كان على رأسها أموي داهية هو معاوية، حاكم سوريا، هذه الطبقة ثارت ضد على الذي مات مقتولًا بسبب المتطرفين من حزبه الخاص والخوارج الذين كانوا ينادون بالمساواة. وعندما نودى بمعاوية خليفة في سنة ٦٦١، أعد عاصمته في دمشق وحاط نفسه بجهاز حكم ملكي منقول عن بيزنطة وعن حكم الله. ومن أجل ذلك كان لا بد له أن يقوض عقيدة الخلافة المطلقة باتخاذ مبدأ الوراثة بالنسبة للخليفة، بدلا من الانتحاب الذي مورس حتى ذلك الوقت عن طريق رؤساء الطوائف. ومنذ ذلك الوقت، يبدو أن العشيرة الأرستقراطية في مكة انتصرت على عشيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أصبحت الجمهورية التيوقراطية من الأعقاب ملكية مدنية وراثية. وأسس معاوية –وهو إداري كبير وسياسي ذكي– أول مجتمع إسلامي منظم. وباستثناء

بعض فترات من الضعف، فإن فترة الأمويين التي استمرت قرنًا، كانت فترة مجد للإسلام ويرجع الفضل لهذه الأسرة في إيجاد حكومة حرة ومنظمة لهذه الإمبراطورية المهيبة التي امتدت من النيل إلى الهند.

وعلى حدود العالم الإسلامي في المشرق كان الفرس والمصريون قد ضاقوا ذرعًا بسلطة دمشق السياسية. ولم يكن أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) بأقل نفورًا بسبب أخلاق الأمويين المنحرفة وبسبب تهاونهم الديني. وعلى ذلك أخذت الميول الانفصالية للقبائل تشتد يومًا بعد يوم. وكانت الروح القبلية التي حاربها محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل قوة، والتي قهرها من وقت إلى آخر حكام صارمون، تظهر من جديد بدون توقف، وأخذت تتكشف كعائق رئيسي لتحقيق قوة موحدة. ويجمع أبو العباس –أحد ذوي القرابة من النبي (صلى الله عليه وسلم) – يجمع المنشقين والقوى المعادية في تحالف واحد، ويأمر بقتل جميع الخلفاء الأمويين معلنًا بذلك عودة أسرتهم إلى الأبد، ثم ينصب نفسه خليفة تحت اسم «السفاح» وينقل عاصمته إلى بغداد سنة ٧٥٠.

وكان لزامًا على الخلافة العباسية التي نشأت في حمام من الدم أن تمر في أثناء ذلك بعصر عرفت في غضونه ألوانًا من الرفاهية والترف، كما عرفت فيه ازدهار الآداب والعلوم والفنون. وستشرق ببريق وضاء جدًا على طول القرنين التاسع والعاشر، وسيقرر إشعاعها الروحي والسياسي العصر الذهبي «للحضارة العربية» وبعد موت «أبى العباس» في سنة ٧٥٤ قام خليفته المنصور بتثبيت دعائم الأسرة العباسية. وعلى يد خالد البرمكي الذي اختاره المنصور وزيرًا نشأ عصر الرخاء الذي جنى ثماره هارون الرشيد الذي أصبح حكمه أشهر حكم في تاريخ العصر الوسيط، وقد أثبت وزيره يحيى البرمكي أنه من أحسن الإداريين في الإمبراطورية.

هذا ولعل التاريخ لم يظفر بحاشية ملكية مثل حاشية هارون الرشيد التي

ضمت كوكبة من العقول الناضجة المتنافسة. ولم يكن الخليفة مولعًا بالموسيقى والفن وحدهما، بل كان يجيد الحكم، وحماية الحدود، وقيادة الجيوش في حذر، والقضاء بعدل، وعلى الرغم من عطاياه، وبذخه، بل إسرافه الذي لم يستطع أحد أن يجاريه فيه فإنه وجد عندما ما مات في الثانية والأربعين، أنه ترك في صناديق الخزانة أكثر من ٨٤ مليونًا من الدنانير وهو مقدار يساوي ١٠٠ مليار من الفرنكات القديمة وترك إمبراطوريته بين يدي ابنه المأمون الذي كان لا بد له أن يتابع سيرى الخلفاء الكبار. واستطاع المأمون بحكمته وسعة نظره وشمول أفكاره أن يجمع في مجلسه ممثلي جميع معتقدات إمبراطوريته، حتى أحرار الفكر. ولما كان نصيرًا للعلماء والأدباء واسع الأفق فقد حث على نشر الآداب والعلوم والفنون، وأمن انتشارها عبر العالم. وفي ظل إراداته الدافعة أنجزت تراجم المؤلفات الإغريقية إلى العربية على أوسع نطاق.

حقًا، لقد بلغ الإسلام في هذا العصر الذهبي ذروته..

الباب الثاني

(٩) ذروة الإسلام

الحياة الاجتماعية:

في العصر الذي بدأ مع الخلفاء الأول، كان سكان الإمبراطورية ينقسمون أربع طبقات. ففي طليعة الطبقات الأربع: الخليفة وأسرته والوزراء والطبقة الأرستقراطية من الفاتحين العرب، ثم المعتدون الجدد الذين اعتنقوا الإسلام إما عن مصلحة أو عن عقيدة، وكانوا يتمتعون في الأصل بشريعة المسلمين. وكانت الطبقة الثالثة تتشكل من الذميين أو من ممثلي الملل المتسامحة أو أصحاب الأديان المنزلة التي تدعو إلى وحدانية الله: مثل المسيحيين واليهود والصابئين الذين يطيعون سلطة رؤسائهم الروحانيين، وكان الرقيق يشكل أخيرًا الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامي.

من المعروف أن العرب لم يجلبوا معهم ثقافة خاصة. فقد ظلت ثقافتهم سريانية أو هندية –فارسية أو يونانية أثناء فترة الأمويين التي لم تستطع أن تكون غير فترة حضانة بسبب الظروف المضطربة. لكن القادمين الجدد لم يتوانوا عن أن يمتزجوا بفنون السلم. وقد استفادوا من براعة الأجناس المغزوة وطريقتهم الفنية، الأمر الذي دفعهم إلى خلق فن مبتكر على وجه السرعة. هذا الفن المبتكر شكل مظهره الأول في فن المعمار الديني. أما فيما يخص الأدب فقد كشف التقدم فيه عن عظماء كذلك، وضعوا أساسًا للازدهارات العظيمة في الأسرة العباسية. وقد حافظ نفوذ الخلفاء على سلطتهم المطلقة طيلة ما يقرب من قرنين، وعندما اقتطع امراؤهم –سواء منهم من كان غير عربي الجنس أو من كان على خلاف سياسي وديني مع بغداد –دولا لأنفسهم أقاموا فيها حكمهم على «القرآن» وهكذا لم

يتوقف انتشار اللغة العربية، والدين الإسلامي بين الشعوب عن السير قدمًا.

ومن المهم أن نلاحظ أنه ليس هناك أي وجه للموازنة بين انتشار الدين الإسلامي عبر العالم وبين التطور والانتشار للديانة المسيحية التي كان محتومًا عليها أن تغزو الجموع البشرية، بإغرائها بمثل عليا من البر والمحبة والتسامح – وكان المسيح والحواريون يعلمون جهازًا. أن «أحبوا بعضكم بعضًا[1]» وربما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على حق تجاه منهج أكثر إنسانية وأقل تثقيفًا في أن يشير إلى أن أجمل مثل أعلى لابد من تعزيزه بسلطة سياسية وقوة عسكرية. وحقًا، لم تكن السرعة المذهلة المتقدم الديني للإسلام إلا النتيجة المباشرة لأعمال سياسية ولفتوحات حربية.

الإدارة:

تشكلت في ظل حكم العباسيين، تحت رقابة الوزراء المعهود إليهم بالرقابة العليا على الموظفين وتوجيه سياسة الدولة، إدارة مركزية وإقليمية كان لزامًا عليها أن تؤمن استمرار الإمبراطورية على الرغم من تغيير الأمراء ومؤامرات القصر. وكان الوزراء في الغالب يختارون من بين أعضاء أسرة واحدة، وكان أشهر البيوتات الوزارية، بيوتات البرامكة، والمهلبيين والآمديين، والكلدانيين، وكل هذه البيوتات من أصل فارسي، وإذا كانت بعض هذه البيوتات وهم البرامكة، لاقت مصيرًا مؤلماً على الرغم من سلطانها الذي لم يكن له مثيل، فإن كثيرًا منها أجادت عن براعة الاحتفاظ بسيادتها. كما أن أسرة المهلبيين شغلت أرفع المناصب طيلة أكثر من عشرة أجيال وبلغ أربعة من أهم أعضائها أسمي المناصب ونجحوا في الحفاظ لأنفسهم بها إلى درجة أن هذه الأسرة التي كانت تتكون من كبار الموظفين

([1]) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من البر والمحبة والتسامح، فإن التاريخ يشهد بأن المسلمين ينادون على الدوام بالبر والمحبة والتسامح ويوصى «القرآن» في كثير من آياته بذلك. والواقع أن البر والمحية والتسامح في الدين الإسلامي ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس.

(المترجم)

المزودين على نطاق واسع بالسلطة وبالثراء نهضت بتشكيل دولة داخل «الدولة».

ومن وجهة النظر الإدارية كان ينظر إلى إدارات الجند والمال على أنها ذات مكانة مكينة وكان بيت المال ينتظم مجموعة من الموظفين الكثيرين، ثم يأتي بعد ذلك ديوان الرسائل الذي كان يتولى الأعمال الخارجية، وإدارات الشرطة والبريد، ومكتب للشكايات يمكن أن يتمثله المرء على أي حال بمحكمة استئناف تشريعية وإدارية. وكان الموظفون في الغالب من غير المسلمين. وكان عددهم كبيرًا تنتظمهم طوائف مهنية تشبه النقابات الحديثة. وعند ما أرادت الدولة حسن مكافأتهم وافقت لهم بسرعة في القرن العاشر على الراحة الأسيوعية في يوم الجمعة، ثم أضافت إليه بعد قليل يومًا آخر، هو يوم الخميس.

الشريعة:

كانت الشريعة تصدر عن «القرآن»، وكان الفقه فرعًا من علوم الدين، لكن أمام كثرة الحالات غير المستدركة، لم يلبث القضاة أن رأوا أنفسهم مضطرين إلى الرجوع إلى السنة، وهكذا أصبح الحديث المصدر الثاني للتشريع.

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القضاة من بين علماء الشرع أي الفقهاء. ولما كان القضاة طائفة قوية فقد كان بيدهم سلطان ومنزلة رفيعة في آن واحد تمثل الطبقة الدينية. ولما كانوا نفعيين في معظم الأحوال، أكياسًا بمقدار ما كانوا يحترمون القضاء، ويوحون بالرهبة أكثر من إيمانهم بالاحترام، فقد يعضدون سلطة الحاكم المطلقة، لكنهم كانوا يلينون للمؤثرات الخارجية. ويرون أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لم يتحرج في القول بأن كل قاضيين على الأقل من ثلاثة جديران بالنار، وقد يقال اليوم إنهم لا يساوون الحبل الذي يشنقون به[1]، لكن المتقاضي

([1]) جاء في السنن عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو في النار، وقاض قضى عن جهل فهو في النار. (المترجم)

لا يميل أبدًا إلى العدالة. وباستثناء القضايا الجنائية التي كانت تتعلق بمصلحة الدولة العليا كان القضاة أهلا للفصل في جميع الجرائم. وكانت محكمتهم تنعقد بجانب المسجد الكبير ويتم الفصل في الدعاوي علانية وكانت هيئة القضاء بما لها من سطلة مطلقة مجهزة بكاتب وحاجب، وضابط، وبعض الحرس المكلفين احترام الجمهور للنظام والسلطة العامة. وكما كانت هناك أسرات توارثت الوزارة والإمارة كذلك كانت هناك أسرات قصرت نفسها على القضاء يخلف فيها الابن أباه، فقد كونت أسرة أبى الشوارب في بغداد، وأسرة أبي بردة في شيراز في قرنين سلالنين شهيرتين فرضتا نفسيهما بسهولة فأن شهرتهما في طهارة الذيل والشرف كانت راسخة كل الرسوخ. وفي دواء القضاء، كان للقضاة من مختلف المراتب وضع خاص، وكانت هناك مهنة تسمى مهنة «رجل عدل». وبموازنة هؤلاء موازنة كافية بالمهام الراهنة لوكلاء المودعين نرى أن الأغنياء قد جعلوا من هذه الأعمال رويدًا رويدًا، مهنة قابلة للاتجار فيها بنفس اللقب وبنفس الطريقة التي يناقش المرء بها اليوم شراء أو بيعًا في مكتب لموثق عقود أو توكيل دعاوي أو لمحضر. وكان هناك أيضًا وكلاء موثقون، لكن المهنة كانت مزعجة جدًا، وخادشة للشرف كثيرًا وكثيرًا، إذا وثق المرء في حديث ابن الأخوة، الذي كتب فيهم يقول: «وأما الوكلاء الذين بين يديه فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان. فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئًا ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعًا من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل. فكان ترك الوكلاء في هذا الزمان أولى من نصبهم».

وقد اعترف بأربعة مذاهب للفقه عند أهل السنة، وكانت مدرسة القياس لأبي حنيفة (٧٦٧) تقرر أن «القاعدة الشرعية تعبر عن عرف عام، وتتغير مع الظروف التي أحدثتها»، ووقف مالك (٧٩٥) ضد هذا الاتجاه التقدمي معتمدًا على دراسة ١٧٠٠ حديث فقهي. وكان يرى أن اجماع أهل المدينة التي ظهر فيها الحديث

أصل من أصول الفقه. أما الشافعي (٨١٩) فقد ذهب إلى أن الإجماع أوسع من ذلك، وهو عبارة عن إجماع سائر المسلمين في عصر معين. ورأى أحمد ابن حنبل (٨٥٥) أن هذا الأصل شديد الابهام فأسس مدرسة رابعة، أكثر مطابقة للدين وتحدد الفقه بالقرآن والسنة. وعلى الرغم من هذه الاختلافات في الرأي، وعدم اتفاقهم في المبدأ فإن المذاهب الأربعة لم تكن تختلف من جهة التمسك بالدين، بل من جهة تكثير الأحكام والفروع، حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات، ولا لتبديلات بعيدة الغور.

الممول والضريبة:

لم يكن الإسلام يعترف في الصدر الأول إلا بثلاثة أنواع من الضرائب وهي خراج أموال الأرض وقيمته العشر، والزكاة وهي ضريبة «التأمين الاجتماعي» التي يدفعها المسلمون وحدهم، وجزية الرؤوس التي يدفعها جميع الذميين غير المسلمين عوضًا عن الخدمة العسكرية. وكانت الضرائب الأخرى التي كانت تفرض بانتظام مع نمو المؤسسات تؤخذ على أنها مخالفة للعدل والانصاف. بما في ذلك الضريبة على العاهرات.

ولتحديد جزية الأرض، كان يعمل حساب خصب الأرض وكذلك سهولة الري. وكان يفرض على المراعي الخصبة الشاسعة من الضرائب أكثر مما يفرض على زراعة الخضر ولكن في حال عدم الدفع، كانت الجزاءات قاسية: فكان القبض والسجن والجلد، وقد خفت رويدًا رويدًا هذه العقوبات حتى إذا ما رئي الرجوع إليها، وتوحدت الاحتجاجات، ولزم على الدولة أن تنحني أمام هذه الاحتجاجات.

وعن طريق خلق ضرائب غير مباشرة، بذل الوزراء كل جهدهم ومهارتهم في الكشف عن مصادر جديدة للدخل فقد استحدث من أجل ذلك احتكار الدولة الثلج لشرب المرطبات، والحرير النخين والحرير العادي، وعطر الورود، وعلى

الرغم من أنه كان من الصعب في بلد إسلامي احتكار المشروبات الروحية الممنوعة أصلا، فإن الضرائب والضرائب الإضافية نجحت مع ذلك في الوصول إليها. وعلى هذا النحو، وعلى الرغم من أن قانون الشريعة الإسلامية حرم مكوس الجمرك، فإنه كان يحصل دون شفقة عدد لا حصر له من المكوس والضرائب لا على تخوم العالم الإسلامي فحسب، بل كذلك على الحدود الداخلية التي كانت تفصل الدول الإسلامية بعضها عن بعض، وكانت هذه المكوس الجمركية فادحة أحيانًا. وكانت تبلغ بين ١٠% و٢٠% من القيمة الأصلية بحسب طبيعة البضائع والحوادث السياسية للحال الراهنة. ومهما يكن من أمر في العصور الأكثر عسرًا، فإن استغلال الدولة للإنسان لم يبلغ أبدًا في أراضي العالم الإسلامي مبلغ الشدة التي لا رحمة فيها للعالم الآسيوي القديم أو لمصر الوثنية أو حتى للعالم المسيحي. ولقد عرف العالم الإسلامي دون شك البؤس والشحاذة لكن العون الفردي لم يفقد أبدًا فيه. وظلت الصدقة ركنًا من أركان الدين. وقد امتلأ تاريخهم بسمات الكرم وليس السلوك السخي في قصة الحسن[١] الذي قسم على ثلاث مرات أمواله على الفقراء ووزع مرتين كل ما كان يملكه، هو النموذج الوحيد.

أهل الذمة:

وإذا كان الوثنيون قد استبعدوا من الطائفة الإسلامية، فقد كان يطلق على غير المسلمين الذين كانوا يقطنون أراضي العالم الإسلامي وينتمون إلى الأديان المنزلة «ذميون»[٢] وكان هؤلاء من أمم مسيحية أو من طوائف يهودية أو من الصابئين.

وكان عدد المسيحيين يتجاوز خمسمائة ألف في بلاد ما بين النهرين، وأربعين

---

(١) يروى عن الحسن بن على أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات في حياته وأنه في مرتين وهب لهم كل ما يملك. (المترجم)

(٢) وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «من ظلم معاهدًا او انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة».

(المترجم)

ألفًا في بغداد، وأثنى عشر مليونًا في مصر، وكان اليهود وعددهم ستمائة ألف في بلاد ما بين النهرين السفلى وما يقرب من مليون في إيران مبعثرين في أجزاء كبيرة من المدن حيث كانوا يكبون على أشغال كثيرة بدون إتقان كاف وبخاصة في الأمصار الإيرانية. وقد نجحوا بقوة عقيدتهم بوحدانية الله في أن يحلوا محل التجار الهنود الذين طردوا على أنهم وثليون ولكن اليهود لم ينجحوا على الرغم من قدرتهم على التسلل وعنادهم، إلا في التسلل بصعوبة في فلسطين وفي مملكة يهوذا حيث نافهم بعنف المواطنون المسيحيون وهم مهرة وفطنون على غرارهم.

كان الصائبون اللاجئون في بلاد ما بين النهرين السفلى ملاحين مهرة، وسيادي لؤلؤ في الأغلب وهم يكملون قائمة الذميين مع اتباع الشيعة الفارسية الزرادشتية المنتشرين في بلاد ما بين النهرين وفي جنوب إيران، والمزدكيين الذين كانوا يقطنون بلاد ما وراء النهر والإمارات التي على أطراف بحر قروين.

وفي الأزمنة الأولى من الإسلام، كانت حياة أي ذمي شاقة ولذلك فإنها لم تكن لها قيمة تذكر، وأي مثل ملموس يعطي صورة دقيقة عن ذلك. ففي حال القتل الخطأ كان لزاما على القاتل أن يدفع تعويضًا يحدده القانون، يدفع كاملا إذا كان القتيل مسلما، ويبلغ التعويض من ٦% إلى ٣٣% إذا كان القتيل من أصل يهودي أو من أصل بارسي على التوالي. وعلى الرغم من التسامح العظيم إزاء «الذميين» فقد أجبروا على ارتداء ملابس صفراء اللون والسكنى في أحياء خاصة بهم. وبوضع تماثيل صغيرة جدا تمثيل الشيطان فوق أبواب دورهم. وقد فرضت عليهم فوق ذلك بعض القيود مثل تحريم التجول على صهوة جواد. والإدلاء بشهادة أمام المحاكم الإسلامية لأنهم ما داموا قد حرفوا كتابهم المنزل عليهم لا يستحقون الثقة بهم[1].

([1]) لا شك أن هذه أحدى المبالغات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع وحسبنا في الدليل على هذا قوله جل شأنه في سورة الممتحنة: «{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

بيد أنه كان على خلفاء بني أمية أن يتصرفوا تجاههم بتسامح رحب جدًا. فقد أبيحت لهم سلطة ممارسة الاحتفالات بعبادتهم والاحتفاظ بمعابدهم. وبعد قليل في ظل الخلافة العباسية كانت معاملة الذميين تتراوح بين الشفقة والقسوة وإن التسامح الديني العظيم هو طابعها دائمًا. ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين يفضلون الشريعة الإسلامية على القانون المسيحي، بل كانت الهرطقات المسيحية التي اضطهدت فيما سبق من رجال الكنيسة تنظر إلى سلطة الإسلام على أنه شر أخف من شر سلطة بيزنطة. وقد ازدهرت أديرة، وبيع للرهبان، ومعابد وهياكل لليهود حتى إنه في ظل حكم المأمون، وفي أوائل القرن التاسع، كان الإسلام يملك على أرضه أكثر من ١١٠٠٠ كنيسة مسيحية، ومئات كثيرة من المعابد اليهودية ومن معابد للنار.

وفي القرن العاشر، أضحت الظروف العامة للحياة أكثر ملاءمة، وبدأ الذميون في جميع شمل أنفسهم في مديريات وفي مقاطعات. ومنذ ذلك الوقت سمح لهم بإدارة أنفسهم بأنفسهم تحت نفوذ حكام من اختيارهم، واحتفظوا بقضائهم وقوانينهم؛ وسمح لهم بدخول الوظائف العامة، خلا السلك القضائي. وأصبح الذميون بين يوم وليلة أطباء، وجباة ضرائب وأصحاب مصارف، وصيارفة، وتجار جملة، وأنشئ نوع من التنظيم بين أصول المذاهب المختلفة أو الأديان. وكان رجال المال ينتخبون من بين اليهود، والأطباء من بين البارسيين[١]. وأما الكتاب فكانوا من المسيحيين. ويمكن أن تشاهد من أجل ذلك طبقات ممتازة من الذميين الذين وصلوا إلى أعلى المناصب. وأصبح عدد معين من بينهم حكاما ووزراء. وقد تكرر هذا حتى أصبح شيئًا تقليديا. وفي نهاية القرن العاشر في مصر تحت حكم

يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}. (المترجم)

(١) الفرس القدماء. (المترجم)

العزيز بالله الفاطمي راحت المناصب العالية للمسيحيين ولليهود تثير قريحة مؤلفي الأغاني والشعراء ومن قولهم:

تنصـــر فالتنصـــر ديـــن حـــق ... عليـــه زماننـــا هـــذا يـــدل

وقـــل بثلاثـــة عـــزوا وجلـــوا ... وعطـــل مـــا ســـواهم فهـــو عطـــل

فيعقـــوب الـــوزير أب، وهـــذا ... العزيـــز ابـــن وروح القـــدس فضـــل

وفي منتصف القرن الحادي عشر، تسلل اليهود إلى أعلى المناصب على الرغم من بعض نصوص القرآن المضادة تجاههم، وانتهوا أيضًا باستبعاد الذميين الآخرين. وقد شغل أحد اليهود المناصب الوزارية في القاهرة القديمة، وأدار آخران هما ابن سعد والتستري الإمبراطورية، ولحق بهما فيما بعد الهجاء والتهكم بكل حماسة، بعد إذ تجاوزوا الحدود.

العـــز فـــيهم والمـــال عنـــدهم ... ومـــنهم المستشـــار والملـــك

يـــا أهـــل مصـــر إنـــي نصـــحت لكـــم ... تهـــودوا فقـــد تهـــود الفلـــك

الجيش:

إذا كانت الخدمة العسكرية عند المسلمين لم يكن لها طابع إجباري بالمعنى الذي يفهمه المرء اليوم، فقد ظلت مع ذلك أحد الواجبات الرئيسية لكل مسلم، وكان الجندي العربي تحت راية الإسلام يكافأ حسنة ويتمتع بمكانة كبيرة.

وشكل الفرسان صفوة الجيش، والأداة الحاسمة للمعركة في المنازلات الأولى. وكانت سرعتهم مذهلة، وقد عرف قواد العرب كيف يختارون الأراضي الملائمة ليظهروا فيها مقدرتهم في فن الحرب. وكانت الخيالة الخفيفة تستخدم الرمح والوهق[1] وكانت الخيالة الثقيلة المزودة بالسيوف تحارب بالهراوة وبالحربة.

([1]) الوهق محركة ويسكن الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان والجمع أوهاق. (المترجم)

وفي القرن الحادي عشر، كانت المشاة العربية تستخدم القوس والنشاب، والخنجر والزرد أي قبل استخدام الغربيين لها بمائتي عام. وكان القوس يستعمل من نهايتيه، فلا يسمح بانطلاق أسهم كثيرة في وقت واحد بل تقذف –لمسافة بعيدة– كمية كبيرة من كرات الرصاص. وعند ما كان القرص يرفع بوجه خاص على جهاز مثبت ثقيل يصبح صالحا لإطلاق الحراب بقوة مما يجعلها تخترق الدروع المعدنية. ثم اخترع نموذج رابع شبيه بالجهاز السابق يسمح بإطلاق حراب كثيرة وثقيلة في آن واحد. ومع هذه الأسلحة التي ذكرت سلفا، كانت مدفعية المسلمين ثقيلة ومعقدة، لكن تصويبها كان محكما، وكانت لا تستخدم قط رمي القذائف من كل نوع، بل كانت تتيح كذلك قذف الكبريتات، والأسهم النارية وقذائف أخرى حارقة.

وقد وصف لنا جوانفيل[١] **Coininille** الآثار العجيبة لتلك الأسلحة في قوله:

«وكان يبدو أن هذا السلاح كان الصاعقة التي تنزل من السماء، والشيطان الطائر في الهواء الذي يبدو أن هذا السلاح كان الصاعقة التي تنزل من السماء، والشيطان الطائر في الهواء الذي يلقى شهابا يبلغ من القوة أن ضوؤه ينطلق كضوء النهار في جيشنا، وكان لهب النار شديدًا جدًا».

وفيما بعد ذلك بنصف قرن كان العرب هم الطليعة في صنع البارود. واستغلاله.

---

(١) مؤرخ فرنسي (١٢٢٤ – ١٣١٧)، كان مستشارًا للويس التاسع، ومؤلف تاريخ القديس لويس والحروب الصليبية. (المترجم)

(١٠) الحياة الثقافية والفنية

التعليم:

لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول: «من خرج يطلب علمًا، فهو في سبيل الله حتى يرجع».

كان الطفل في سن السادسة أو السابعة يذهب إلى المدرسة التي كانت تقع في الغالب بالقرب من المسجد. وكان يلقن في هذه المدرسة دروسًا بالمجان أو بأجر يستطيع كل أحد دفعه. وكانت مدة التعليم خمس سنوات. وكان على المدرسين أن يبرهنوا أنهم ذوو ثقافة كافية وأن يكونوا متزوجين وفي سن ناضجة. وكانت العلوم بسيطة تتكون من القراءة والصلاة وقراءة القرآن الذي كان الأطفال يحفظون بعض آياته ويكتبونها إثر ذلك بعد تلاوتها معًا بصوت عال. وكان على التلاميذ أن يسعوا جهد طاقتهم لحفظ القرآن كله، ومن كان ينجح في بلوغ هذا الهدف كان يسمى (حافظا).

وفي القرن العاشر، تم تطور بتأثير الفرق المعارضة، التي كانت كل منها تسمى دون شك إلى تثقيف الشعب بحسب أفكارها ومبادئها، لكنها تسعى أيضًا إلى رفع المستوى الفكري. وقد أنشئت لذلك عدة درجات للتدريس. وكان هدف التعليم الأولى أو المرحلة الأولى أن يشكل الخلق، وكان تعليم المرحلة الثانية خاصًا بالعلوم وحدها. أما المعلومات الفنية التخصصية، فإنها كانت على الدوام تؤدي في الطوائف عن طريق أرباب المهنة، والصناع، وأصحاب المراصد.

وقد نظمت المعاهد الثانوية بسرعة كبيرة، وأصبحت مدارس عامة أو مدارس ثانوية. وكان التعليم يمارس في هذه المدارس بالمجان مثل مدرسة المسجد.. وكان مما يدرس فيها الصرف والنحو، وفقه اللغة، والبلاغة، والأدب، والمنطق،

والرياضيات. وكان التلاميذ –وهم جلوس حول المدرس– يتلقون تعليما سماعيًا أكثر مما يؤخذ عن الكتب. وكثيرًا ما كان الطلبة يركبون متون الأسفار لكي يستمعوا إلى كبار التبحرين في العلم في مكة، وبغداد، ودمشق، والقاهرة، وعلى طول الطريق. وكانوا لا يعدمون في كل مكان مسكنًا، وغذاء، وتعليما بالمجان. وأما التأثير الفكري المتزايد دون توقف لأصحاب الأفكار التقدمية أسس وزير سلجوقي في بغداد في سنة ١٠٦٥ المدرسة النظامية التي أصبحت المؤسسة النموذجية، ثم نسجت المدارس على منوالها، في المدن الرئيسية. وقد كانت هذه المؤسسة التي تولت رعايتها الحكومة باهظة التكاليف، ومنحت أموالا وفيرة. وكان مما يدرس فيها القرآن والأحاديث، وعلم الفقه والقوانين، والشرائع، والمذهب الشافعي، وفقه اللغة، والأدب، والجغرافيا، والتاريخ، وعلم التاريخ ووصف الشعوب، وعلم الآثار، والفلك، والرياضيات، والكيمياء، والموسيقى، والرسم الهندسي.

وقد أنشئ فيما بعد أيضًا، وفي بغداد دار إسلامية داخلية للشريعة، والعلوم، والآداب، والفنون: وهي المستنصرية. وكان مما يدرس فيها فقه المذاهب الأربعة. ولما كان تطبيق القواعد يثير في أثناء التطبيق العملي عقبات لا يمكن أن تحل إلا بتفسير نصوص من القرآن اتجه الفقهاء والعلماء إلى الاعتراف رسميًا بهذه المذاهب في التفسير التي كان هدفها أن تجيب على المذاهب الدينية الأربع الكبرى التي كانت تضم مجموعة العالم الإسلامي، والتي كان اسمها يسترجع اسم مؤسسها: وهم أحناف إيران الشرقية وأفغانستان، وتركستان، ومالكية إفريقية وإسبانيا وصقلية، وشافعية سوريا والعراق[1] وإيران، والحنابلة الذين كانوا يضمون الطبقة الوسطى من الشعب في المدن. وكان هذا تنظيما حقيقيًا لثقافة عامة ولطابع دولي، قلده الغرب بجمع الشعوب الأربعة للعالم المسيحي في جامعة باريس، وقد أخذت اليونسكو كذلك عنهم هذا التنظيم.

---

(١) نسي المؤلف أن يضيف مصر إلى الشافعية. (المترجم)

التبحر في العلوم:

سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ على العالم بالقوة وبالعلم، وبتفوق حضارته.

لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم، ثم بعد أن نماها، نقلها إلى أوروبا الغربية. كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكري للعصر الوسيط، وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين.

كان الخلفاء والأمراء قد وضعوا في المقام الأول انتشار الآداب والفنون والعلوم، وغالبًا ما كانوا علماء أو حماة مثقفين للفلاسفة والمتفننين، يسلكون معهم مسلك النصراء الكرماء للآداب والفنون كما كانوا يحتفون بالشعراء ورجال العلم.

وقد ارتفعت الثقافة حتى بلغت درجات العرش. ففي بلاد الأندلس كان الخليفة الناصر يتحدث عن أرسطوطاليس، وعن أفلاطون مع ابن رشد في زمن كانت طبقة الأشراف في الغرب تتباهى بعدم معرفتها القراءة. وفي قرطبة كان العالم الأموي الحكم يستخدم مكتبة تضم أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مؤلف على حين أن ملك فرنسا شارل الخامس –أعني العالم الحكيم– لم يستطع أن يجمع بعده بأربعة قرون من هذه المؤلفات أكثر من ألف مؤلف.

وفي الحق، أن إنشاء المأمون العباسي دار الحكمة في بغداد كان عاملا مهمًا وحاسمًا في انتشار العلوم. ويرى ابن خلدون صاحب المنهج الموضوعي في دار الحكمة هذه، انطلاق الازدهار المشرق للإسلام.

الفكر المستقبل:

ولكن الأمر الذي لا يزال موضع غرابة أن كتاب العرب لم يعنوا أية عناية بالأدب اليوناني الضخم ذلك الأدب الذي كان على عصر النهضة الأوروبية أن يبعثه من مرقده بقوة.

الحق أن مؤلفات الأدباء والمؤرخين اليونانيين، وكذلك العدد الهائل من المسرحيات اليونانية والتي كانت تحت تصرف العرب ظلت ولا أثر لها في الروح الشرقية. ويجب بلا ريب أن نلتمس بعض أسباب ذلك في دوافع دينية جعلت من مبادئها المنظمة محو أثر صفحات من ماض رائع. ذلك أن الأدب اليوناني لم يكن مطابقًا للدين حق المطابقة، وقد عمل مفكرو المسلمين زمنا طويلا حتى تيسر لهم التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم القرآن.

لم يكن هذا السعي إلا قرابة القرن الحادي عشر عند ما هجر المفكرون والمؤرخون العرب ما كان حتى ذلك الوقت المصدر العظيم الوحيد للإلهام. ومن أجل هذا، لم يتردد ابن قتيبة وهو أول من وقف ضد سواد كتاب جميع البلاد العربية في هذا العصر، أن يبحث الدين الإسلامي في ضوء عالمي كما ينبغي أن تكون طريقة المؤرخ الذي يحيط بعظمة العصور. وعلى هذا النحو يجدر بنا أن نعمل بمثل هذه الطريقة، إذا أردنا أن ننتهي إلى فهم متبادل بين الشعوب، وتقضي سيكولوجية المؤرخ الجمع بين لوذعيه الفيلسوف ولوذعيه السياسي.

لقد جهر كذلك علماء آخرون مسلمون باستقلالهم في الفكر في زمن كان التعبير فيه عن الآراء المخالفة للدين برهانًا على الانزلاق إلى الحضيض، على الرغم من الحرية التي اتخذها الإسلام دستورًا له. ويحلل الشهر ستاني في كتابه «الملل والنحل» الذي ظهر في سنة ١٢٨ العقائد الرئيسية بإنصاف قلما يصادفه المرء عند المؤلفين المسيحيين المعاصرين له.

النثر:

كل ما يثير الأدب العربي في ذهن الرجل الغربي اليوم، ذكريات خلقتها قصص ألف ليلة وليلة. وقد ثبت نجاح هذا المؤلف عن طريق روعة الخيال الذي آثاره. وألف ليلة وليلة بعيد كل البعد عن أن تمثل تكامل أدب الشرق الخيالي.

وقد عرفت ألف ليلة وليلة للمرة الأولى نحو منتصف القرن العاشر على أنها

ترجمة عربية للكتاب القديم «هزار افسانه» الذي يعني ألف قصة. والإنشاء الأصلي الذي كان الجهشياري مؤلفه قد استوحى من شعر قديم فارسي لكن مع الزمن، أضيف إليه رويدًا رويدًا قصص شعبية من مصادر متنوعة، وقدمت حاشية هارون الرشيد بخاصة فكرة قصص الحب والفكاهات الهزلية المؤثرة التي لا تنفد. وسحرت مغامرات السندباد البحري وعلي بابا والأربعين لصًا وعلاء الدين والصباح العجيب، فضلا عن قصص أخرى، سحرت هذه المغامرات الصغار والكبار في جميع البلاد.

تصف هذه القصص ذات المغزى الأخلاقي والمليئة بخفة الروح وجمال الأسلوب، خفايا وغرائب الحياة الشرقية، وكرم السلطان، وروحه العادل، وجرأة المرأة ومكرها، وإفك الأشرار وقسوتهم وفي غضون قرابة عشرة أجيال، أضاف القصاصون العرب إليها عددًا معينًا من القصص المبهمة تتفاوت بين الكثرة أو القلة والتي كانت تشير إلى انحطاط أذواقهم في عصر من الرخاء. وهذا الكتاب الذي بدئ تأليف في القرن السابع وانتهى في القرن الخامس عشر يمثل مجموعة الأدب الشرقي في العصر الوسيط. وقد ظهرت أول ترجمة له في باريس في عام ١٧٠٤، ولم تكد تظهر حتى بلغ من نجاحها أن ترجمت إلى جميع اللغات. وفي الشرق نفسه، حظي مؤلف أدبي آخر لقصص بيدبا بشهرة تفوق قصص ألف ليلة وليلة. واستحضرت هذه القصص من الهند، وكانت محررة باللغة السنسكريتية قبل أن تترجم إلى اللغة الفهلوية في القرن السادس، ثم ترجمت إلى العربية في منتصف القرن الثامن على يد ابن المقفع. وهذا الكتاب الذي كتب نثرًا هو أول الروائع الأدبية في اللغة العربية، وقد ظهر تحت عنوان «كتاب كلية ودمنة» ونجد فيه هذا الميل القصصي المغزى الأخلاقي.. هذه القصص يترابط بعضها ببعض بوساطة خيط متين، وتتسلسل كأنها قصة لا نهاية لها، أو على أنها قصة مرتبطة بأخرى ثم لا تزال تستطرد في ثوب رواية متسلسلة جديدة. والمهارة التي ترتكز على أن تجعل الحيوان يتحدث، أتاحت لكاتب القصة الخرافية ان يصف الوضع الاجتماعي

للإنسان وأن يقدم عبرًا لجميع الناس، وأن يهذب الأخلاق، وأن يسلك مسلك عالم الأخلاق.

وقد ترجمت قصص بيدبا في القرن الثالث عشر إلى اللغة الإسبانية من أجل الفونس الحكيم، ملك قشتالة وليون. وعندما ترجمت فيما بعد إلى أربعين لغة، أصبحت تنتمي إلى الأدب العالمي. وفي القرن السابع عشر، أتم الترجمة الفرنسية عن ترجمة فارسية لافونتين (**La Fontaine**) ولا تزال قصص بيدبا مع قصص ألف ليلة وليلة أعظم كتابين خياليين وأكثرهما انتشارًا في أرجاء العالم.

ثم ظهر بعد ذلك بقليل كتاب آخر روح كل الترويح عن أهل بغداد، وهو ديوان يحوي خمسين قصة أو مقامة، ومن هنا كان اسم المؤلف: «المقامات» التي كتبها أبو محمد الحريري (١٠٥٥/ ١١٣٢) رئيس ديوان الرسائل. وهو يقص مغامرات متسول يسمى «أبا زيد السروجي» وهو شخصية تجيد الحديث، وتمثل تمثيلا رائعًا منظرًا معينًا من الروح العربية: إنها روح، تطنب في الحديث، وتجيد الحيل الكثيرة، وتخترع جميع الوسائل للتخلص من المآزق وهي روح داهية، ولهذا، فإننا نغفر لهذه الروح كل شيء، فلقد منحها الخيال الخلاق والأسلوب الرصين مقدرة على تصوير أشخاص مخدوعين وضحايا، ألم تملك هذه الروح فن تقييم الفروق الدقيقة في اللغة العربية ودقائقها بمهارة وبحاسة سحرية تثيران الإعجاب، فالسجع والصور البلاغية، وبقية الأدوات الفنية سهل عليها تحقيق غايتها.

لم يكن للقصة الطويلة وجود عند الشعوب العربية، ولم تهتد هذه الشعوب إلى عقدة القصة الطويلة المعقدة. وكان الشرقيون يحبون القصص القصيرة، وكانوا يستمعون إليها مؤثرين عدم قراءتها –مؤملين في شيء من السذاجة أن تنتهي إلى نهاية سعيدة وسريعة لكن، خاصية القصة الطويلة هي أن تؤخر النهاية وأن تكشف عن العقدة. وعلى كل حال، لا ينطوي الأدب الشرقي على حوادث فاجعة، إنه

صور من أشعار أو من قصص محفوظة.

الشعر:

يشغل الشعر من جهة أخرى مكانة كبيرة في الأدب العربي، فلن تشاهد في الشعر الأوربي ما تشاهد في الشعر العربي، من شعراء تتغنى بمآثر الأبطال، ولا مباريات من قصائد صغيرة تنتهي ببيت من التهكم، فكان الإنشاد الشعري تسلية اجتماعية. وأمكن القول عن النثر إنه «حتى عندما يسير، يرقص» لكن الشعر رياضة روحية والشعر وحده –في نظر المتصوفة– هو الذي يستطيع أن يستحضر الأفكار السرمدية، وأن يردد صداها بقوة يظل بها المستمع الشرقي مأخوذًا بنوع من الجذب قد يكون قاتلا أحيانًا. وإذا سلمنا بأن هناك رابطة ما بين الميتافيزيقا والشعر، فربما لم يعترف أبدًا الحقيقة إلا في الشعر الإسلامي.

وقد اتجه الشعر بتأثير شعراء الفرس إلى التجمل بالملاحة الفارسية والتحدث بلغة القصور. ومن ثم، أصبح أكثر رقة، وأكثر نفاسة، وأكثر تكلفًا، وهو يعرض في ظل الصورة الشاعرية الملامح المتعددة للقطر الفارسي، حكمته، وأزهاره، ووطنيته، وفلسفته، وفجوره، وتقواه، ويشكل أخيرًا الحب، نعني –الحب الخالد– من هذا الشعر الموضوع الرئيس، ونفس كلمة «أدب» التي تعني الفنون الأدبية، كان يستخدمها الشعراء والفلاسفة لنعني في آن واحد علم الأخلاق وأدب السلوك في الحب لقد أولع شعراء الإسلام بالتغني بمفاتن المرأة، فشبهوا أريج شعرها بالعطر، وجمال عينيها بالجواهر، وظلم[1] شفتيها بالفاكهة، وبياض أطرافها بالعسجد.

ولذا، كانت موضوعات الدروس في الحب أثناء العصر الوسيط الأوروبي تتخذ مادتها مما كان يجري في صحراء الجزيرة العربية وفي الشرق، ثم في مدن الغرب الإسلامي بعد ذلك.

([1]) الظلم بفتح الظاء: ماء الأسنان وبريقها.

(المترجم)

كان العرب مثل كثيرين غيرهم من الذين عاشوا قبل اختراع الطباعة، موهوبين بحاسة سمعية ممتازة. وكانوا ينتشون من هذه الأشعار الموزونة التي كانوا يحفظونها أو ينشدونها بصوت عال. وسرعان ما اتخذ النثر العربي ونثر الوعاظ، والخطباء والقصاصين صورة سجع غير موزون بتأثير اللغة ونغمها الذي يأتي عرضًا. وكان الشعراء يبالغون أيضًا في هذا الميل الفطري وكانوا يتنافسون بحذق ومهارة في خلق فواصل وقواف معقدة، وكان كثير منهم يزنون التفعيلة ونهاية البيت في وقت واحد. وكثيرًا ما دهش الغربيون لوزن الشعر العربي.

والخلاصة. أن أرجح الأقوال تذهب إلى أنه إذا رجعنا إلى نشأة البوادر الشعرية الأولى، رأينا مصدرها الحركة الإيقاعية لسير الجمل ذي السنام الواحد، والجمل ذي السنامين، وهما رفقاء أمناء لطريق البدوي الذي أوقع الأغاني الأولى الشعرية.

ولكي يخفف حزنه ووحدته في أثناء رحلته التي تمتد أيامًا طويلة عبر الصحراء، كان البدوي المنفرد يحدو بأغنيات موقعة على خطوات راحلته. وأقدم الأغاني التي نجدها في الألحان الموسيقية العربية هي «الحداء» أو أغنية الجمال. ولم يكن «الحداء» شيئًا آخر غير لحن موسيقى، كان البدوي يسرع به أو يبطئ بحسب سير الجمل الذي تشتد أو تقل سرعته، ومن هنا، –وبحسب قول عباس محمود العقاد– أنشئ الوزن الأول للشعر العربي «الرجز» الذي هو أبسط وأسهل أوزان الشعر جميعها.

فلنسمع مثلا هذا البيت من الشعر الذي كان النبي عليه الصلوات لا يمل ترديده في إحدى غزواته:

«أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب»

وكان المعتقد أن هذا البيت من الشعر نظم عن طريق مسير الجمل ذي

السنامين، والحق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يمتطي وقتئذ نوعًا من الإبل سريع العدو. على نقيض هذا البيت الذي ينبعث من إحساس بإيقاع بطيء:

مـــا للجمـــال مشـــيها وئيـــدًا أجنـــدلا يحملـــن أن حديـــدا

ويشير هذا اللحن الموزون –مع هذا التوافق المماثل للإيقاع إلى الجمل ذي السنامين اللاهث وذي الرقبة المشرئبة، الذي يتابع ببطء مسيره المثقل عبر الصحاري.

وقد تطورت موسيقى الشعر شيئًا فشيئًا، وتحسن رويدًا رويدًا نغم وزن الشعر، حتى آذن هذا بمولد «القصيدة». وكانت هذه القصيدة الموقعة أكثر ملاءمة للأذن، كما أنها كانت تمثل في الحقيقة شعر الشعراء الرحل، ولم تلبث أن حلت محل الرجز، «بين بدو الصحراء أو عند الشعراء الذين يفتخرون باقتفاء عمود الشعر.»

وهذا هو الرياضي والموسيقى الخليل ابن أحمد الذي وضع علم العروض في الشعر العربي في نهاية القرن الثامن الميلادي. فكان من الضروري منذ ذلك الوقت الكف عن التغني بالبيت من الشعر، وأن يعطي وزنًا أكثر دقة.

هذا هو أصل نظم الشعر العربي وتطوره ولكن، بيت الشعر الآن لم يعد خاضعًا لأي التزام موسيقى، لهذا وجد الشعر نفسه متحررًا كما استطاع الإفادة من الصور الشعرية المبتكرة، ومن الممكن أن ننسق هذا الإنتاج الشعري الضخم الذي ظل زمنًا طويلا فن العرب الذي لا شبيه له بتقسيمه بحسب العصر وفقًا لفنون القول فيه، فقبل الإسلام، كان الشعر يتغنى بمآثر القبائل الأسطورية، وأثناء القرن الأول الهجري، وحتى نهاية الأسرة الأموية، وفي منتصف القرن الثامن، ظل موضوعه المفضل الحرب، ولكن يضاف إليه العاطفة الدينية. وفي نهاية مرحلة الفتوح، سارت العاطفة في موكب ازدهار الشعر. وفي عصر العباسيين العظام الذي امتد حتى القرن الحادي عشر، تميز الأدب العربي بإنتاج غزير تفوق في جميع الفروع.

صدر الإسلام والأمويون «من القرن السادس إلى الفرن الثامن»

نستطيع أن نستهل هذه المرحلة بعنترة بن شداد، وفي قول آخر «عنتر» الشاعر الفارس الذي أوحى بالقصة الشهيرة في الفروسية، القصة التي كانت تحمل اسمه. وخاتمه هذا اللون من الشعر مؤثرة وعظيمة التصوير، ويستهل البطل الأنشودة الجنائزية التي راحت تسبق منيته:

«فهو الرب القادر القاهر الذي حكم على عباده بما أمضاه فلا اعتراض عليه فيما قضاه، وقد فرغت الليالي والأيام، وانطوت كأنها أضغاث أحلام، ولو عاش الإنسان ألف علم، فلابد أن يشرب كأس الحمام».

وتصوير النهاية مملوء بصور مؤثرة في النفس. فعندما يصاب البطل بإصابة قاتلة من سهم مسموم، ويطارده العدو، يتوقف عند مدخل مضيق، على حين أن جنوده ورفاقه يتقهقرون بانتظام، وينتظر عنترة شروق الشمس والموت وهو مستند على رمحه المرتكز في الأرض، ومنتصف على جواده. ويموت، ولكن أمام هذه الجثة التي تظل منتصبة يهرب العدو.

وعاشت الخنساء وهي أشهر الشاعر العربيات في نهاية القرن السادس، وقد شهرت بالأشعار التي وقفتها على أخويها صخر ومعاوية اللذين قضيا نحبهما في أثناء القتال، والخنساء وهي شاعرة صدر الإسلام هي المعبرة عن الشعر العربي في عصر الجاهلية.

والشاعر الإمام على بن ابى طالب، هو ابن عم النبي وصهره والخليفة الرابع. وعندما نهل هذا الإمام من تعاليم محمد (صلعم) روى عنه عدد من الحكم الأخلاقية الممتازة بالسمو جمعها الشريف الرضي (٣٥٩– ٣٦٩).

«يموت من مات منا وليس   ويبلى من بلى منا وليس ببال».

ويروى أيضًا عن الإمام علي «هذا الحديث القدسي» ...

من عادة لي وليا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته.

كان عبد الحميد (المتوفي سنة ٧٥٠) كاتبا لآخر خلفاء بني أمية مشهور بصفاء أسلوبه ونزاهة خلقه. وكان على النقيض من زملائه الذين تغنوا بمديح الملوك. فقد أشاد هو بمجد الكتاب والشعراء ورجال الآداب، وكذلك ببروز شخصيتهم في سلم المراتب الاجتماعية.

«.. فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات، والعلم والرزانة.. بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم..».

عهد العباسيين «من القرن الثامن إلى القرن العاشر»

يجدر بنا أولا أن نذكر من بين الشعراء الكثيرين الذين ذاعت شهرتهم في العصر العباسي، أبا نواس الذي ولد في مارس سنة ٧٤٧ ومات حوالي سنة ٨١٥. وأصبح نديم هارون الرشيد الذي كان يخالفه مع ذلك لفرط مجونه. هذا الشاعر الأصيل الذي وصفه وصفًا جيدًا «سي قدور بن غبريط»، اعتاد الاعتذار عن شهواته وفجوره. المحبوب بسبب «نعمة ذكائه الرائعة».

كان أبو نواس يحب الحياة، والنبيذ، والنساء، وأشعاره التي ينظمها. وكان يكرم أحيانًا ويغضب عليه أحيانًا. وغالبًا ما كان يدفع به في السجن، مثله في ذلك مثل الطاغوت الذي يعبد عندما يأتي المساء. ويروى أن أبا نواس أنهى أيامه بالتقوى. وكان يذرع الشوارع فريسة للحزن والقرآن تحت إبطه، ومسبحته في يده، على حين كان شعب بغداد يتغنى في مفارق الطرقات بقصائده في تمجيد النبيذ

والإثم.

يــارب منــزل خمــار أطفــت بــه / والليـــل حلتـــه كالقـــار ســـوداء

فقــام ذو وفــرة مــن بطــن مضــجعه / يميــل مــن ســكره والعــين وســناء

فقال: من أنت في رفق، فقلت له / بعض الكرام ولى في النعت أسماء

وقلت إني نحوت الخمر أخطبها / قــال الــدراهم، هــل المهــر إبطــاء

لمــا تبــين أنــي غيــر ذي بخــل / ولــيس لــي شــغل عنهــا وإمضــاء

أتــى بهــا قهــوة كالمســك صــافية / كدمعــة منحتهــا الخــد مرهــاء(١)

مــا زال تاجرهــا يســقى وأشــربها / وعنـــدنا كاعـــب بيضـــاء حســـناء

وكان لأبي نواس سواء أكان مغتما أم صاحبا ردود بدهية سريعة تجاه هؤلاء الذين كانوا يشمخون بأنوفهم لتبحرهم في العلم:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة / حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

كان سعيد بن جودي في سنة ٨٩٧– وهو ابن لموظف كبير في قرطبة – المثل الأعلى للمحب الشرقي العاشق المشوق، بل الذي لم يرو من الحب غلته أبدًا، وقد عاش حائرًا وهو المحارب والشاعر والرحالة– أيؤثر الحب أم الحرب..؟ ولما كان حساسا لأقل صلة بالمرأة فقد مر بسلسلة من العشق المتوله الزائد، الزائد، الذي كان كل واحد بتلبأ بدوامه وقتا طويلا. وكان أكثر شعره سموا الشعر الذي ألفه لجيحان التي لم يكن قد رأى منها غير يد من سوسن.

وإنه ليتعرف عن أخلاص بهذا البحث الدائم وبهذا الركض العنيف وراء المجهول:

---

(١) مرهاء = مرهت العين خلت من الكحل أو فسدت لتركه أو ابيضت حماليقها.

جريـت جـري جمـوح فـي الصـبا   وما خرجت لصرف الدهر في ملق[1]

ولا انثنيـت لـداعي المـوت يـوم غـي   كما انثنيت وحبل الحب في عنقي

وكان لا بد لمثل هذا الطريق الحماسي أن يجلب عليه الشؤم وكان رفقاؤه في الحرب ينقمون منه أحيانًا سلطانه الفاتن على نسائهم. وفي ذات يوم، فاجأه جندي وقتله.

اشتهر البحتري كأحد عظماء الشعراء في العصر العباسي. وقد ولد في سوريا بالقرب من حلب وعاش في بغداد في موطن الخلفاء الذين كان يتغنى بسخائهم ومات في سنة ٨٩٧.

كأنهـا حـين لجـت فـي تـدفقها   يـد الخليفـة لمـا سـال واديهـا

محفوفـة بريـاض لانـزال تـرى   ريـش الطـواويس تحكيـه ويحكيهـا

وابن الرومي الذي تغني بالحب الذي لم تنطفئ ناره، وعانى حزن المحبين، مات زهاء سنة ٨٩٥ وهو القائل:

أعانقهـا – والـنفس بعـد مشـوقة   إليهـا – وهـل بعـد العنـاق تـدان؟

وألـثم فاهـا –كـي تـزول حرارتـي   فيشـتد مـا ألقـى مـن الهيمـان

ومن بين الشعراء البارزين الذين اشتهروا في ظل العصر العباسي الثاني يمكن أن تذكر أيضًا أبا الفرج (٨٩٧– ٩٦٥) الذي كانت لديه فكرة جمع المؤلفات الرئيسية الشعرية المعروفة في عصره في عشرين مجلدا تشكل «كتاب الأغاني».

والحق أنه مهما يحر المرء بسبب ثروة الشعر العربي وتنوعه، فلن يتردد في ذكر اسمين في هذا العصر بلغا المنزلة العالمية وهما المتنبي والمعرى.

---

(1) طلق = ذو حدة

(المترجم)

كان المتنبي (٩١٥– ٩٦٥) أحد كبار الشعراء في الشعر الغنائي العربي، وقد تردد أثناء ذلك العصر –على الرغم من تواضع أصله– على بلاط الأمراء، وبخاصة بلاط سيف الدولة. ولم ينفك عن التغني بكرم العظماء ومجد الأمراء، لكنه كان يتغنى قبل هذا وذاك بنفسه.

إن أكـــن محببـــا فعجـــب عجيـــب   لـــم يجـــد فـــوق نفســـه مـــن مزيـــد

أنـــا تـــرب النـــدى ورب القـــوافي   وســـهام العـــدى وغـــيظ الحســـود

والمعرى أغرب جميع الشعراء المسلمين، ولد في سوريا في سنة ٩٧٣، وعلى الرغم من أنه كان فاقد البصر منذ طفولته، فقد ارتحل كثيرًا، واستمع إلى أساتذة مشهورين وحفظ عن ظهر قلب كل ما كان يلذ له، ثم أوى إلى قريته بالقرب من حلب. وعاش فيها يائسًا على عكس شعراء عصره لأنه كان يربأ بنفسه أن ينشد مديحًا يجده مذلا. وقد نظم كثيرًا من قصائد الهجاء لكن مؤلفه الرئيسي ظل رسالة الجنة أي «رسالة الغفران» التي تصف حوار الشعراء في الجنة.

كان المعرى ذا خلق كريم وعدوا لكل ألوان النفاق، راحت شهرته تزداد مع الأيام، وأقبل عليه تلاميذه من كل فج، كما أقبلت عليه الثروة التي لم تغير شيئًا من بساطته، وكان يعيش على خبز الشعير، ويرتدي ملابس من صوف خشن. وفي السنة عشر ألف بيت التي تتضمنها اللزوميات يشن هجومها على هذه القضايا الأساسية– الوجود، والطبيعة الإلهية، والدين، والعقل. وهو شاك، متشائم في القضايا الدينية، وديمقراطي تقدمي في السياسة. وكان المعرى على علم بنقد طبائع البشر بقلم لاذع ناقم. وهذا مثال للطريقة التي كان يسلكها في شن هجومه على بعض العلماء المنافقين:

رويـــدك قـــد غـــررت وأنـــت حـــر   بصـــاحب حيلـــة يعـــظ النســـاء

يحـــرم فـــيكم الصـــهباء صـــبحا   ويشـــربها علـــى عنـــد مســـاء

ويأخذ على علماء الدين استغلالهم للدين:

طلب الخسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل في النفوس ذهولها

وهو يسخر من الحجيج الذين «يذهبون إلى مكة لقذف الجمرات ويعد الذين يقومون على إدارة الأمكنة المقدسة من الأشرار، ولكنه يعجب من الطبيب الذي ينكر وجود الخالق بعد أن درس علم التشريح:

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

وكان المعرى لا تنقصه الدعاوة وهو صاحب روح تهكمية:

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولا ريب في عدل الذي خلق الظلما

وهو مقتنع أن شرور المجتمع تعزى إلى طبيعة الإنسان، ومن هنا ذهب إلى أنه كان من الأفضل ألا يولد، وأمر أن ينقش على قبره هذا البيت من الشعر اللاذع:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وكان شيكا ساخرا، يوازن غالبا بفولتير أوبمو نتسكيو، لكنه كان كذلك طيبا كريما مقبلا على مساعدة الإنسان «الغارق في الدموع» الذي كان يثقله الألم.

لم يكن للمعرى تلاميذ «على الرغم من أن مائة وثمانين شاعرا ساروا في جنازته، وأن أربعة وثمانين عالما ألقوا مرائي عند قبره». وهذا قد يفضي إلى التدليل على أن مذهب الشك لم يسيطر على عقول الشرقيين بل على النقيض من ذلك، يقرر أنه أحدث بعد موته بقليل نهضة في العقيدة السلفية التي ربما تكون قد أثرت في أدب الأجيال التالية.

يشكل المتنبي والمعرى ذروة الشعر العربي، الذي أصبح بعدهما أكثر تصنعًا وأشد ابتذالا، وأقل صدقًا. وفي ذلك الوقت ازدهر الشعر الملحمي في فارس مع

الفردوسي. وأنشأ الفردوسي عشرة آلاف بيت من الشعر مجد فيها أعمال الحرب والأبطال المشهورين، والأساطير الشهيرة في إيران الشرقية، وهذه الأبيات من الشعر تؤلف «الشاهنامة» أي كتاب الملوك.

ويحكى أن الفردوسي نجح ذات يوم في تقديم شعره إلى السلطان. ولم يكن هذا بالأمر السهل، وكان أربعمائة شاعر في خدمة محمود الغزنوي يقومون على رعايته بعين يقظة. وقد وكل إليه السلطان –وهو صاحب منفعة وفتنة بهذا الشاعر– كثيرًا من الصناديق ذات الوثائق التاريخية لكي يستطيع أن يستكمل ملحمته العظيمة ووعده بقيثار من الذهب لكل بيتين من الشعر يراجعهما ويصححهما. هذه اللفتة شجعت الشاعر على النظم حتى نجح حول سنة ١٠١٠ في إرسال ستمائة ألف من ثنائية لمخطوط جديد. وهنا تكمن أساليب حيلة رخيصة، إذ تآمرت الحاشية ضده بمهارة دنيئة حرمت الفردوسي المسكين أن يتسلم غير دراهم من الفضة بدلا من الدنانير الذهبية التي كان قد وعد بها. وبعد عشر سنوات، عندما راجع السلطان نفسه، أرسل إليه قافلة محملة بستين ألف دينار ذهبًا تشبه في لونها طيف الشمس مشفوعة بخطاب اعتذار. لكن ذلك جاء متأخرًا. فقد قابلت القافلة وهي في طريقها جنازة الشاعر.

كان الفردوسي قد كرس خمسة وثلاثين عامًا من حياته، ليحكي تاريخ بلده في مائة وعشرين ألف بيت من الشعر أي ما يزيد على أبيات شعر الالياذة والأوديسية مجتمعتين، والشاهنامة إحدى المؤلفات العظيمة في الأدب، وهي قصة حية يدهش المرء لما تحويه من صور ساحرة للنساء، ومن مآس للحب الأبوي، والبنوي، ومن خيول مطهمة، وشجاعة وانتصارات على الشياطين، والأبالسة، والسحرة والأتراك. ويستخلص هذا الكتاب الذي لا يجاري وحدته وحقيقته من بلده المحبوب الماثل دائمًا أمام عينيه غائبًا أو حاضرًا، والذي يبقى حتى اليوم أيضًا ماثلا في جميع الأذهان. وقد أطلق الفرس اسم رستم، بطل الملحمة، على أكثر من ثلثمائة قرية، وظل اسم الشاعر ذائعًا ذيوعًا حمل العالم كله في عام ١٩٣٤، أن يحتفل بذكرى

عيد ميلاده الألفي. وأجاب الأتراك خصومهم الفرس على كتاب «الشاهنامة» في القرن الحادي عشر بكتاب قوتاد[1] غوبيليك للشاعر أرسلان خاص حاجب الذي أشاد بمجد قبائل الهون والأتراك فيما قبل الإسلام في أثناء قتالهم القديم مع أمراء إيران المنتمين إلى شعب الإسكيذيين. وهذا الشعر شعر ملحمي مطول جدًا. يستعيد برحابته أشعار الهند، واليونان، وأوربا الحديثة.

الكتاب والكتب:

كان الأدب في الإسلام يؤلف بخاصة ليشبع ذوق الطبقة الارستقراطية إنه أدب الثروة، وأدب المنبت، ولم تكن تعرف حينئذ حقوق التأليف، وكان الكتاب والشعراء يعيشون تحت رعاية حماة الآداب والفنون من الأمراء. وكان سوادهم يكسبون بشق النفس قوت يومهم، وكانو ينسخون المخطوطات لحساب دور الكتب. وكان البعض الآخر يباشر مهنة نظم الشعر. وينتمون إلى مدرسة معينة. ولما كان الكتاب أو الشعراء ينتجون من علم العروض ومن القافية آثارًا وفيرة صالحة للنشر، ولما كانوا يوجهون بحذر المديح أو النقد، كانوا على أي حال أدباء عصرهم، وكانت تأليفهم تنتشر بسرعة جدًا وفي أقطار بعيدة، مثلها في ذلك مثل

---

(1) «قوتاد غوبيليك» هو أقدم مؤلف أدبي تركي كتب تحت تأثير الأدب الفارسي، وهو من تأليف: يوسف البالاساغوني ألفه سنة ٤٦٢هـ [١٠٦٩/ ١٠٧٠]، وهو مكتوب باسم السلطان طففاج بوغراقاراخان أبو علي حسن بن سليمان آرسلان قاراخان «وهو من الملوك القره خانيه الذين كان مركز سلطتهم في «كاشفر» في باد التركستان. وقد منح السلطان المؤلف رتبة «خاص حاجب» في قصره فصار يعرف باسم يوسف خاص حاجب، ومعنى اسم الكتاب هو «العلم الذي يهب السعادة أو العلم الجدير بالسلاطين». وهذا المؤلف من ثلاثة فصول ويحتوي على أكثر من ٦٥٠٠ بيت مكتوبة على وزن «فعولن فعولن فعلون فعول» ويبث الشاعر نصائحه وحكمه على لسان بعض الشخصيات الرمزية، وهو من المؤلفات التي تعرف باسم «سياستنامة»، ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة خطية من النسخ الفريدة في العالم تحت رقم «تصوف تركي ١٦٨»، انظر فهرس المخطوطات التركية –دار الكتب المصرية. ص١٩٤– ٢٠٤، وانظر كوبرلي زاده محمد فؤاد: تورك أدبياتي تاريخي، إستانبول ١٩٢٦.

(المترجم)

تأليف الكتاب المعاصرين. وكان أكثر رجال الأدب مهارة يجدون مجالا لدى الأمراء الذين كانوا يرتبون معاشًا لعدد كبير منهم. وكان هؤلاء مهرة في فن الهجاء أو المديح، أو التهكم، وفي الاعتذار عن الفشل، أو تمجيد الانتصار، وكانوا حقًا مرهوبي الجانب بوصفهم هجائين مهولين، لكن المهنة على الرغم من ذلك لم تكن تخلو من المتاعب إذ كانت تقتضيهم أن يكونوا بصراء بالنفوس وأكياسًا حتى لا يعرضوا أنفسهم للأخطار ومع ذلك جمع بعضهم ثروة كبيرة وظفر بعضهم الآخر بشهرة عريضة. وكان القرنان العاشر والحادي عشر عصرهم الذهبي، أما في ظل السلاطين التركمان الذين كانوا يزورون الرأي العام فقد خبت جذوة الشعر.

التاريخ:

كان العلماء مولعين منذ القرن الثامن بالدراسات التاريخية مع اهتمام معين بتحري الحقيقة، وكان محمد بن إسحاق سنة ٧٦٣ يكتب سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) في صورة تشكل أقدم مؤلف في النشر (باستثناء القرآن) وصل إلينا. وألف بعض المؤرخين معاجم لتواريخ حياة بعض الشخصيات الهامة.

وحاول ابن قتيبة (٨٢٨– ٨٩٠) أن يكتب في بداية القرن التاسع تاريخ العالم، وبعده بقليل، كان محمد بن النديم ينشر «فهرست العلوم» الذي يتناول إحصاء للعلوم مع ترجمة وجيزة ونقد واف لكل مؤلف.

والطبري الذي ولد (٨٢٩– ٢٩٤) في طبرستان ومات في بغداد كان أحد كبار المؤرخين في الإسلام. ولما كان الطبري فارسي الأصل فقد انقطع أربعين عامًا لعمل تاريخ جامع عن حوليات الرسل والملوك منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩١٣. وما وجد من هذا الكتاب يشغل خمسة عشر جزءًا. ويقال إن الكتاب الأصلي أكبر من ذلك عشر مرات. وفي هذا الكتاب الذي ألف بنزاهة، يفتتح الطبري طريقة تناول علم التاريخ. ولكي يثبت الحقائق التاريخية المنقولة نجده يعتمد في هذا على تواتر الروايات أو كتابات الشهود المعاصرين للحادث. غير أن الطبري مثل بعض

مؤرخي الزمن المعاصر، لم يكلف نفسه تنسيق الحقائق، بل يقتصر على سردها، ويشكل هذا الكتاب على الرغم من ذلك وعلى الرغم أيضًا من جفافه، مصدرًا عظيمًا كوثيقة تاريخية.

كان المسعودي عربيًا من بغداد، وهو أعظم مؤرخ بعد الطبري، وهو رحالة كبير نشر موجزًا في ثلاثين مجلدا تقريبًا، ثم اختصره بعد ذلك في مجلد واحد وصل إلينا تحت عنوان «مروج الذهب ومعان الجوهر» وقد درس المسعودي الجغرافيا وعلم الحياة، والتاريخ، والعادات، والدين والعلوم في جميع البلاد من الصين إلى فرنسا. وعند ما أراد أن يجمع بعض الأفكار الفلسفية، نشر «كتاب التنبيه والأشراف» قبل نهاية حياته بقليل. لكن هذا الموجز لأفكاره عن المعرفة والتاريخ والفلسفة، لم يقابل بالرضا من المحافظين من أهل العلم. وقد مات في القاهرة سنة ٩٥٦ بعد عشر سنوات من النفي.

كان هؤلاء المؤرخون دون شك أسمي مقامًا من معاصريهم المسيحيين ولا يضير مؤلفاتهم ما قد يبدو فيها من نقص في التركيب أو اختلال في الترتيب. وربما بدا هذا للقارئ الذي لا يستطيع أن يستخلص الفلسفة من التاريخ ولا الدروس التي يتوقعها من تأليفهم.

دور الكتب ومحالّ الورّاقة:

كانت مدينتا بلخ وسمرقند تعدَّان قبل الفتح العربي بقرون عدَّة مركزين مشهورين للثقافة الفكرية في إيران الشرقية. وكان الرهبان البوذيون في هذه المدن المقدسة يترجمون في لغة إيرانية حكمة الصين والهند. وترجمت في جامعة جنديسابور المؤسسة في القرن السادس كتب لبعض الفلاسفة الصينيين من القرن الثامن قبل الميلاد إلى لغة إيرانية وغربية. وكانت سمرقند عندما احتلها العرب سنة ٧١٢ تملك مصانع للورق إلى دار للكتب الفاخرة.

لقد اختار الخليفة العباسي الأول أحد البرامكة، وزيرًا له، وهذا البرمكي سليل

أسرة قديمة كان من أسلافها منذ قرون الدلاي لاما، أي كبير رهبان الدين البوذي. وقد عرف هؤلاء البرامكة كيف يرغبون الخلفاء وحاشيتهم في تذوق الدراسات والكتب، وجعلوا من بغداد مركزًا علميًا قدر له أن يطغى على سمرقند يجمع الروائع الأدبية الصينية والسنسكريتية والإيرانية من الشرق، والمؤلفات السورية والبيزنطية من الغرب في وقت واحد. وقد أحرزت أول دار للكتب في الإسلام والتي أنشئت أمام «دار الحكمة» نجاحًا عظيمًا يصوره أن اليعقوبي كان يحصى في سنة ٨٩١ أكثر من مائة من محال الوراقة في بغداد وقد أصبحت محال الوراقة هذه مراكز أدبية ومؤسسات للنسخ والخط وفقًا لذوق العصر.

ولم يقتصر إنشاء دور الكتب على اتخاذ معظم المساجد مقرًا لها فحسب، بل أخذت بعض المدن تشيد لهذه الدور أبنية رائعة. وكانت الموصل حوالي سنة ٩٥٠ تملك من قبل دار كتب لبلدتها حيث كان الطلبة يستطيعون فيها أن يتزودوا بالورق والكتب. ثم كانت النظامية المنشأة في سنة ١٠٦٤ في بغداد تتصرف في ميزانية تساوي المليون ونصف المليون من الفرنكات الذهبية مخصصة لشراء الكتب والمخطوطات. وفي هذا العصر، لم يكن هناك شخص ما يأخذ طريقه إلى الثراء دون أن يفكر في مساندة الآداب والفنون. وفي نطاق المنظمات الرسمية كانت دور الكتب الخاصة شبيهة إلى حد ما بالنوادي الانجليزية اليوم، وفي هذا الاتجاه كانت تتحدد –على غرار محال الوراقة– أمكنة تجمع وتسلية. وابتداء من القرن العاشر. أصبحت هذه الدور غنية إلى حد لا مثيل له: فكانت دار الكتب في النجف وهي مدينة صغيرة في العراق تملك أربعين ألف مجلد، ودار الكتب لأبى الفداء وهو أمير كردي من حماه، بها سبعون ألف مجلد، ودار الكتب للسلطان المؤيد الرسولي في جنوبي الجزيرة العربية مائة ألف، ودار الكتب في المراغة وبها أربعمائة ألف. وكانت عشر قوائم ضرورية لتسجيل كتب دار الري. لكن أكمل الدور كانت دار العزيز بالله الفاطمي في القاهرة القديمة. وفي هذه الدار. كان هناك مليون –وستمائة مجلد موزعة بعناية مفهرسة ومنظمة، منها ستة آلاف وخمسمائة

في الرياضيات، وعشرة آلاف في الفلسفة.. الخ، أما من جهة دار كتب بخاري. فإن ابن سينا يعلن أنه رأى فيها كتبًا لا توجد في أي مكان آخر.

وقد يكون من الممل أن تعدد المكتبات الخاصة. وبخاصة أن تعداد رجال الفكر يبلغ حوالي ثلث مجموع السكان. وكان من أسلوب العصر عند الأغنياء امتلاك مجموعة طيبة من الكتب النادرة. نذكر مثلا لهذا، الطبيب الذي كان لزامًا عليه أن يرفض دعوة سلطان بخاري بالمقام في بلاطه، ذلك بأنه كان في حاجة إلى أربعمائة جمل لنقل مكتبته التي تمثل تقريبًا مائة ألف كيلو جرام من الكتب والمخطوطات. وقد ترك الواقدي عند موته ستمائة صندوق من المؤلفات الثقيلة جدًا من كل نوع يحتاج إلى رجلين قويين لحمل كل صندوق منها، وثمة غنى آخر صاحب مكتبة ضخمة هو الصاحب بن عباد الذي كان يملك أثناء القرن العاشر كتبًا أكثر مما كان يوجد منها في جميع دور الكتب الأوروبية مجتمعة.

وخلاصة القول إن ما يشاهده المرء من القون التاسع إلى القرن الثاني عشر لم يكن له مثيل قبل ذلك. ففي كل مكان كلف لاحد له بالكتب. وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء، ومائة بلاط رائع تدوي بمباريات شعرية أو فلسفية، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافيا، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة. وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي.

مكتبة الإسكندرية:

قبل أن نترك هذه الدراسة المتعلقة بدور الكتب. نرى من الحق علينا أن نقف موقف العدل من أسطورة يصعب نقضها فقد أخذ على عمرو أنه هدم مكتبة الإسكندرية بناء على أمر الخليفة عمر. وقد كانت هذه المكتبة التي أنشأها بطليموس سوتير، تحتوي مؤلفات ايخيلوس(١) وسوفوكليس(١)، وتيتوس(٢) ليفيوس،

(١) شاعر درامي ولد في اليوسيس وعاش من عام ٥٢٥ إلى ٤٥٦ ق م يعد المؤلف الحقيقي للدراما اليونانية. (المترجم)

وتاسيتوس[٣]، ومؤلفات أخرى أيضًا وصلت إلى حال يرثى لها كل الرثاء، وكانت هذه المكتبة تحتوي كذلك نصوصًا وميزات لبعض الفلاسفة، لم يبق منها إلا مقتطفات كما كانت تحتوي آلافا من المجلدات، في التاريخ والعلوم، والأدب، والفلسفة الإغريقية، والمصرية والرومانية. ويعد اختفاء مثل هذه الثروة مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية.

ويحكي عالم مسلم هو عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢– ١٢٣١) أول بيان عن هذا التدمير الذي لا يمكن إصلاحه. وقد أثبت هذا البيان أبو الفرج، وهو يهودي متنصر من سوريا يطلق عليه ابن العبري (١٢٢٦– ١٢٨٦). تقول الرواية إن عالماً نحويًا من الإسكندرية طلب مخطوطات المكتبة من عمرو بن العاص الذي رجع إلى عمر بن الخطاب في ذلك الشأن فأجابه: «إن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلسنا في حاجة إليها» وعندما تخلص عمرو من تبعاته؛ وزع هذه المجموعة الثمينة من المؤلفات بين حامات المدينة لتشعل مواقدها لمدة ستة شهور.

وحيال هذا الاتهام الخطير، يجدر بنا أن نلاحظ أن أول دار للكتب كان قد أحرقها يوليوس قيصر في سنة ٤٨ قبل الميلاد، وأن المسيحيين دمروا أخرى في عهد البطريق تيوفيل سنة ٣٩٢، وأنه وقعت عدة معارك فيما بين سنتي ٣٩٢، ٦٤٢، وهو تاريخ التدمير المزعوم. ويجب أن نضيف أنه في مائتين وخمسين سنة،

---

(١) شاعر درامي ولد في كولون، توفى في عام ٤٩٥ ق. م، يتصف أسلوبه في الدراما بالبساطة وعدم التصنع. (المترجم)

(٢) مؤرخ لاتيني ولد في بادوا عام ٥٩ق. م، كتب التاريخ الروماني من بدايته حتى عام ٩ق . م. (المترجم)

(٣) مؤرخ لاتيني ولد في روما نحو (٥٥– ١٢٠)، مؤلف الحوليات وأخلاق الجرمانيين، ومحاورة الخطباء، وهو صاحب شخصية إنسانية وفنانة.

(المترجم)

أمكن عددًا معينًا من المؤلفات أن يختفي نتيجة الاهمال، وعدم العناية، وأن خمسة قرون ونصف قرن أخيرًا مضت بين الحادث المفترض والبيان الأول الذي صور هذا الحادث، على حين أنه لم ينوه بهذا الحادث أي معاصر، حتى ولا اطوخيوس رئيس أسافقة الإسكندرية هذا إلى أن مثل هذا المسلك لم يكن مألوفًا عن عمر الذي كان يمنع من تلقاء نفسه نهب كثير من المدن، كما قضى أيضًا على عادة مزمنة بإعلان في جرأة حرية العبادات.

العمارة:

عندما مضى العرب في الفتح، كانوا لا يعرفون إلا فنًا واحدًا: هو الشعر. وكانت التقاليد السامية قد صرفتهم عن فن التصوير وعن فن النحت إذ نظر إلى تصوير الأشكال الإنسانية أو الحيوانية على أنها ظاهرة لعبادة الأوثان، والموسيقى على أنها علامة للفساد. وقد فترت هذه المحرمات في بعض جوانبها مع الزمن. لكن الفن الإسلامي للعصور الأولى من الإسلام كان يقتصر على فن العمارة والزخرفة.

والتحقيق يقرر أنه لم يبق على وجه التدقيق من بغداد شيء، فقد أتت الحروب وصروف الزمن على كل شيء. ففي الشرق الأدنى لم يبق من عهد الإسلام الأولى إلا مبنيان فقط. جامع الأمويين[1] في دمشق، وقبة الصخرة[2] في أورشيلم أيضًا من طراز بيزنطي وسوري حتى في زخرفتهما.

---

(1) ... وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد، فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم: «لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادي أن سلطان العرب سيزول عما قريب، أما الآن وأنا أرى كيف يشيدون عمائرهم. فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقابًا طوالا. [عن قصة الحضارة – عصر الإيمان– تأليف وو ديورانت– ترجمة محمد بدران ث١٥٩]. (المترجم)

(2) يقول المقدسي: «فإن بزغت عليها الشمس أشرقت القبة، وتلألأت المنطقة، ورأيت شيئًا عجيبًا. وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة».

(المترجم)

ومع هذا، يصور جامع الأمويين تصويرًا كافيًا الطراز الذي انتشر به الفن المعماري الإسلامي. وقد أقيم في سنة ٧٠٥ على القواعد القديمة لكنيسة مسيحيه مهداة إلى القديس يوحنا، والتي كانت قد حلت محل معبد جوبيتر. ولا نستطيع اليوم أن نتبين العناصر الفنية القديمة التي يحتويها هذان المبنيان القديمان. فقد بنيت المئذنتان الجنوبيتان على أساس الكنيسة. والمئذنة الشمالية يظهر فيها بوضوح ذلك النمط الإسلامي وقد استخدمت كنموذج لآثار أخرى أقيمت في أفريقية وفي الأندلس على هذا الطراز نفسه. وفي شرق الإمبراطورية، اختار العرب الزخرفة القديمة الأشورية والبابلية. وبعد أن حلل المهندسون المعماريون العرب الفن المعماري الفارسي واستخلصوا عنصر القبة، والسطح الداخلي للقبة من الفن القوطي، ومن الزخرفة الخاصة بالأزهار ومن الزخرفة الهندسية، أنشئوا بفضل جميع هذه العناصر المنقحة والمتطورة تأليفه مبتكرة ومتنوعة ذات ثروة كبيرة في النقش ودقة لا نهاية لها.

ولا شك أن هذا –على أية حال– يعد تعويضًا عن رسوم الأشكال الإنسانية والحيوانية، مما دفع المتفنن المسلم إلى التنويع المعني في هذه الزخرفة. فقد يحث عنها أولا في جميع الرسوم الهندسية المتكررة والمركبة في «تموجات» وفي نقوش بمنحنيات متداخلة، وفي تشابكات، وزخارف متداخلة، وفي نجوم، ولما مضى بعد ذلك إلى الرسوم الخاصة بالأزهار. صور أكاليل الأزهار والخمائل، أو أزهار نبات الجبال، أو أزهار أوراق اللوتس، وأوراق شوكة اليهود أو أزهار أشجار النخيل، ومزج الجميع في نقش عربي. وأضاف أخيرًا إلى كل ذلك الكتابة العربية الممتدة أو العريضة، والمزينة بتوقيعات الشكل وعلاماته. وامتد هذا الميل للنقش إلى جميع الأشكال الفنية الخاصة بصناعة الأواني الفخارية وكذلك إلى الأقمشة والسجاجيد. وعلى هذا النحو بالنسبة إلى المئذنة المقامة «كأصبع يشير إلى الله» تشهد بالوحدانية الإلهية. فقد تلمس المرء في النقش العربي دلالة روحانية، وفي نفس الوقت ظاهرة تصوفية للمتفنن أو للصانع المسلم، وفي الحقيقة لم يعثر

المسلمون الذين لم يكن يعوزهم الخيال –حق ذلك الحين– على رمز ديني. ويكفي أن صنعتهم المتزايدة في الرسوخ عرفت تركيب الحجر والمرمر، والخشب والمعدن، والفسيفساء، والخزف، والفخار والزجاج لإعطاء منشآتهم وأثاثهم ومخطوطاتهم جمالا ذا شكل مجرد لم يسبق أبدا لأي فن أن عبر عنه.

وتكاد العمارة الإسلامية أن تكون دينية صرفًا. وإنك لتجد روائع هذه العمارة في قصر الحمراء في أسبانيا، إلى تاج محل في الهند، بل لقد امتدت إلى جنوب فرنسا، وفي صقلية. وقد يكون من الصعب أن نذكرها جميعًا، ويجدر بنا مع ذلك أن ننوه بهذه الروائع بحسب ترتيبها التاريخي: قبة الصخرة في أورشليم، والمسجد الأموي في دمشق، ومسجد القيروان في القرنين السابع والثامن، والمساجد العظيمة في قرطبة، والزهراء في اشبيلية في القرن الثاني عشر، وقصر الحمراء في غرناطة والمدارس العليا الإسلامية في فاس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ومساجد السلطان أحمد والسلطان سليمان في القسطنطينية والمسجد الكبير في أصبهان وتاج محل في أجرا وهما من القرنين السادس عشر، ومن السابع عشر. وعلى الرغم من بعض الاختلافات الناتجة عن مفاهيم إقليمية أو عامة، فإن لجميع هذه الآثار مظهرًا متجانسًا تدين به إلى تقاليد الإسلام.

النحت:

لما كان تصوير جسم الإنسان والحيوان، محرمًا. فقد قصر فن النحت على الزخرفة. ومهما كانت المادة المستخدمة، حجرًا أم خشبًا أم معدنًا، فإن المتفننين المسلمين بلغوا دقة في التنفيذ تستحق أن نتحدث في إعجاب عنها كما نتحدث عن رسوم حقيقية تتجلى في أفاريزهم وألواحهم المزخرفة وتحفهم النادرة، وكان الحجر يشذب، وينقش ويمثل الملاط من الكلس والرخام الذي ينحت في مجموعات ثروة متنوعة من الزخرفة. وكانت المنابر والمحاريب في المساجد وحتى النوافذ والأبواب لبعض المساكن مزينة بنقوش رقيقة محفورة في الخشب. وكانت

المصاحف والأثاثات والحلى توشى بنقوش من العاج ومن العم. واختص بعض الصناع بصياغة الحديد والمعادن فصنعوا منها مصابيح، وأباريق، وزهريات، وأقداح، ومواقد، وأبواب من البرونز والفلز، والنحاس. وكان فن توشية الحديد والفولاذ يشتمل على تحليته بالذهب والفضة وحفر الرسوم المنقوشة في المعدن، وقد عاشت هذه الصنعة في الحلى ومواد صناعة المجوهرات. وكانت أسلحة دمشق المصنوعة من الصلب لنسنون المشحوذ محلاة بالأصداف التي كانت تشكل رسومًا أو آيات.

التصوير:

كان القرآن قد حرم النحت، ووفقًا لتقليد قديم، كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد أنكر كذلك الرسوم والتصوير. وربما كان متأثرًا في ذلك بالتقليد القديم وبالمبدأ الحرفي للقرآن. أو كان يظن أن المتفنن كان يحاول ادعاء الربوبية بإعطاء صورة الأشياء حية. ولم تتوان الشريعة الإسلامية شيعة كانت أم سنية في الحفاظ على هذا التحريم المزدوج أن يدركه الفناء، وقد ساند الشعب الشريعة إلى حد تشويه بعض بعض أعمال فنية أو تدميرها أحيانًا. ولكن رأينا إلى جانب هذا أن بعض الفقهاء أتاحوا لفن التصوير أن يصور بعض الكائنات غير الحية، ولم يعترض بعض الفقهاء الآخرين على وجود رسوم حية فوق أشياء ذات استعمال دنيوي. بل إن بعض الخلفاء الورعين أذن بتصوير نقوش على حوائط قصورهم تمثل كنيسة ورهبانها. وذهب أيضًا المستعصم وهو آخر خليفة معزول على يد الأتراك السلجوقيين إلى ما هو أبعد، ولم يتردد في زخرفة مساكنه بمساعدة رسوم مأخوذة من كتيبات فارسية ذات فن غزلي. بيد أن التصوير الإسلامي الذي تباطأ في انتشاره، والذي انكمش في تعبيره والذي اكتفى بالاعتماد على كرم حماة الآداب أو الفنون لم ينتشر إلا بعد فترة طويلة، وبعد أن آن أوان انطلاق الفن العظيم.

الزخرفة:

لقد عوضت لحسن الحظ التحف الإسلامية التي تعد من أجمل الآثار الفنية التقصير السالف. كما كان الإنتاج في ذلك الفن وفيرًا.

وقبل الإسلام، كانت الكتب السماوية، وهي كتب مقدسة، تكتب بحروف وضيئة لكي تذكرنا بالسماء بطريقة مثلى. وكانت هذه الحروف من ذهب أو فضة منسوجة على رقوق ملونة قبل كل شيء باللازوردي والأرجواني والزعفران، وكانت أغلفة الكتب مزينة بالدرر واليواقيت، والمزودة برسوم ذهبية وفضية تمثل الجنة والنار، والبعث، واليوم الآخر، الخ.. ولقد عرف المتفننون في الزخرفة وهم أساتذة في تنوع الألوان والأصباغ في أنفس المعادن كيف يعبرون عن لازوردية السماء المتلائمة بنجوم من الماس، وعن الياقوت الأحمر الذي يمثله غروب الشمس، وعن الياقوت البنفسجي للشفق، أي أنهم عرفوا كيف يعبرون عن سر الشرق الخفي وسحره.

وفي عصر الإسلام الوسيط، تابعت أيدي الفنانين المتحمسين هذه الجهود. فقد قلدوا منهم القدماء وطرائقهم في الكتابة. وحل الشكل النسخي لحروف الهجاء العربية محل أشكال متنوعة لحروف الهجاء، وخطوط قديمة، وكانت حروف الكتابة في حد ذاتها زخرفة. ولم توجد كتابة تجاريها في رشاقتها وكما حمدنا لهذا الاتجاه فنه الأصيل وجماله العميق، فإننا نأسى لما آلت إليه الكتابة على يد مطبعة جوتنبرج.

وفي المصاحف ذات الكتابة النسخية التي وصلت إلينا من العصر الإسلامي الوسيط تعبر الزخرفة وجناس السطور الدقيقة وتناسق الألوان عن «الاتقان الهادئ للجمال المجرد، وعن كثير من السمات التي تتعلق بفكر عاش في سلام». وكان مجرد نسخ الكتاب يعد عملا من أعمال التقوى.

كانت التعبيرات الزخرفية، ورسوم الخطوط يتم نضجها في مصنع فخار ثم

ترفع حول المداخل الفخمة للمساجد ومحاريبها. وكانت الرسوم تنسج كذلك على أقمشة زخرفية. لهذا استطاع بعض الصناع المتواضعين، بل أي عامل نسيج مبتدئ، رأى صانع فخار أن يبلغوا بالدأب والمهارة إلى ميدان المنافسة في الأعمال الفنية. ولكن، أكان حقًا هدف كل صناعة أن تصبح فنًا؟ ولما كان المتفننون يجدون في إثر خيالهم، وفي البحث عن الجمال فقد كانوا ينالون حظوة كبيرة، وكان الصناع يجدون أنفسهم مبجلين وتلك خاصية مميزة لهذه الحضارة التي كانت لا تفرق بين هؤلاء وأولئك والتي كان كل شيء فيها يسهم في تجميل الحياة.

الموسيقى:

كانت الموسيقى أيضًا في بادئ الأمر إثمًا، لكن شعوب آسيا كانت في هذا الميدان فيما قبل الإسلام، قد تذوقت النظريات الصينية والطرائق الفنية الهندوكية عندما غزاها العرب. وكانت الموسيقى القديمة جدًا للاسكيذيين المتوحشين تنتقل من الحالة الفولكلورية إلى الحالة العلمية، وفي بلاط الساسانيين كان أساتذة مشهورون في الموسيقى يتألقون في الشرق كله أثناء العصر الوسيط.

سار العصر الكلاسيكي للموسيقى في أول الأمر بدون أثر للعرب وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخشى الفجور الذي يمكن أن ينتج عن رقصات النساء، وكان يجهر بأن الموسيقى كانت دعوة من «مؤذن» الشيطان، وكانت المذاهب الأربع التشريعية في الإسلام تزعم أنها تثير الشهوات، لكن بعض الفقهاء أفتى أنها لم تكن جريمة في حد ذاتها، وكان بعض الظرفاء يدعون أنه إذا كان النبيذ بمثابة الجسد، فإن الموسيقى بمثابة الروح.

وصل إذن العرب إلى هذا المعنى، لدرجة أن مؤرخًا مسئولا استطاع أن يقول مؤكدًا على وجه تام: «لقد حولت الثقافة الموسيقية في كل نواحيها على يد العرب التعرف على الفن في تاريخ البلدان الأخرى إلى شيء غير ذي موضوع».

قد لا يجدر بنا أن نناقش هذا الحكم. فمن الصعوبة بمكان على أذن غربية

أن تتذوق خصائص الموسيقى العربية. وتظل عبارتها الموسيقية ذات بساطة ريفية، وذات رتابة حزينة موجعة، وبالنسبة للرجل الشرقي، فإن الموسيقى الغربية تفتقر إلى الحساسية، وتنقاد إلى ضجيج معقد ومنفر للأصوات.

بدأ العرب من السلم الصيني -الإيراني الموسيقى، وأقاموا السلم الطبيعي، وأنجزوا تقدمات عظيمة في فن العزف والآلات الموسيقية المتعددة: مثل الرباب، والقيثارة ذات الأوتار الست، والعود، والقانون، والبينذور، والسنطور، والمزمار، والطبول التي تشد عند الحاجة بوساطة نقرات، والدفوف، والطبول التي منها الأطول والأضيق والطبول العادية، والصنوج، وهذه الآلات هي التي شكلت أخيرًا القانون، وهي أصل للمعزف: البيانو: والنماذج الأصلية للأرغن الحديث، لكن إيثارهم كان ملحوظًا بالنسبة للعود الذي كان من الواضح أن العازفين عليه لا يجارون. وقد أدخل المسلمون كل هذه الآلات في شبه جزيرة إيبرية وفي أوروبا الغربية. وكانت آلات أخرى مثل الدف، ومزمار القرية، والصفارة، والبوق والفلاوت التي يجدها المرء منذ وقت طويل في إسبانيا من أصل عربي أيضًا.

ونحن مدينون إلى الفارابي (في القرن العاشر) بكتابه الشهير «الموسيقى الكبير» الذي أسقط نهائيًا المفاهيم الخاطئة للمدرسة الفيثاغورية تجاه موسيقى الكواكب وتناسق الأجرام المساوية. وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادي لظاهرة النغمة التي تأتي من اهتزات الهواء والتي تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة. وأتاح له هذا التحقيق الاستقرائي أن يحدد القواعد الضرورية لتركيب الآلات الموسيقية. والعرب أيضًا هم الذين أدخلوا فكرة الوزن في الموسيقى وهيأت نتيجة كل هذه الخطوات الفنية ارتقاء الموسيقى الشعبية في إسبانيا وفي البرتغال. وثبت هذا التقدم أخيرًا بوساطة خلق تعليم الأغنية الذي أقامه لأول مرة في قرطبة المغنى العربي الشهير زرياب الذي ندين له بالوتر الخامس للعود.

ولم تكن منزلة الموسيقيين في جملتها رفيعة، ولم يقبل بعض الفقهاء شهادتهم

أمام القضاء. حقا لقد كانت الموسيقى على غرار الرقص حرفة الأرقاء المدربين والمأجورين، وكانت هذه الحرفة مثيرة للعاطفة بقدر ما هي فنية وظلت حرفة دنيوية، ولم يقرها الدين الإسلامي. وقد أصلح مع ذلك الخلفاء العباسيون حال الموسيقيين من أتباعهم وأغدقوا على كبار المغنين في عصرهم كثيرًا من الهبات، وأصبح بلاط هارون ملتقى المتفننين الموسيقيين.

شجع الخليفة هارون، على الرغم مما كانت تقضى به مبادئ جلسة ومنزلته مواهب أخيه غير الشقيق إبراهيم بن المهدي الذي وهب له صوت ذو قوة خارقة للعادة كان يمتد على مدى ثلاث طبقات. وارتأى مغن آخر شهير اسمه مخارق، وهو عبد قديم، أن يخصص مقعدًا لهذا الفن بجانب كرسي العرش. ولكن إسحاق الموصلي كان أعظم موسيقى في الإسلام وكان الخليفة المأمون يقول عنه: كان لا يغنى أبدًا إلا وتذهب عني وساوسي المتزايدة من الشيطان».

إلا وتذهب عني وساوسي المتزايدة من الشيطان».

الحق أن الروح الإسلامية وحدها هي التي تتأثر بتلك الرقة السارية في الموسيقى العربية. ويتحدث سعدي الشيرازي عن صبي فيقول: «كان يغنى مبكيًا حتى إنه كان يقف أي عصفور عن طيرانه».

(١١) الزراعة - الصناعة - التجارة

الزراعة:

لم يلتفت إلى حال الزراعة وحاجتها إلى الإصلاح إلا قرابة القرن التاسع، عندما وطد الخلفاء العباسيون النظام في الإمبراطورية.

وقد كانت الأقاليم المترامية الأطراف وبخاصة تلك التي توجد على حافة بحر قزوين وأفغانستان الحاضرة، قد مسها الفتح العربي مسا خفيفًا، واحتفظت بكيانها الاقطاعي دون تغيير محسوس وكان يسكن بلاد الشاطئ الغربي لنهر دجلة ومصر –فلاحون فقراء.

وعلى الرغم من أن حظ معظم الفلاحين المسلمين لم يكن مما يحسدون عليه، فقد كان مع ذلك أسمى جدا من حظ أرقاء الأرض في العالم المسيحي في العصر الوسيط، بل في العصور التالية، ألم يكتب لابروييرLa Bruyére في القرن السابع عشر: «يرى عبر القرى حيوانات اردوازية اللون لفحتها الشمس، هذه الحيوانات، إنما هي بشر!!» وكان الخلفاء قبل ذلك بمثانمائة عام يؤمنون حماية معقولة لحياة الفلاح وعمله.

وقد تحسن الموقف في مجموعه أيضا في القرن العاشر، وفي جميع أنحاء الإمبراطورية عدا مصر، استطاع الفلاح أن يرتع أيضا في بحبوحة حقيقية، وتحرر من وصاية الأقوياء وأصبح الملك الوحيد لأمواله ومنازله، بل ربما وصل إلى الثراء أحيانًا، على حين كانت العبودية محتوما عليها أن تبقى في روسيا المتاخمة ولم تلغ منها إلا بعد ذلك بألف سنة أي في القرن التاسع عشر.

ولا تخلو أية دراسة لحالة الزراعة في عصر أوج الإسلام من الفائدة، ومن المحقق أن الجو وأسلوب الحياة تنوعا بعض الشيء من طرف إلى طرف في هذه

الإمبراطورية الشاسعة التي امتدت من تركستان إلى المغرب. وقد أوضح علم (المناخ) أن أجناس الدواب كانت تتأقلم في أقطار معينة أكثر منها في أقطار أخرى، ومن ثم استخدمت الخيل بمنطقة ما وراء النهر وشمالي إيران فر حراثة الأرض والنقل بالعربات والجمل بالنسبة للقطر العربي، والجاموس، بالنسبة للعراق وخوزستان المجاورة والعجول والبقر في آسيا الصغرى. وانتشرت الآلات الزراعية انتشارا واسعا، فوجد في كل مكان تقريبا المحراث الموروث عن السلف المصنوع من سلاح حديدي وقلاب كان الفلاح يجره أحيانًا بنفسه جنبا إلى جنب مع حماره عندما كان لا يملك خيرا منه، وكان جميع الفلاحين يعرفون فن إعداد الأرض وحرثها كما كانوا يجيدون إتقان استخدام الأسمدة التي كانوا على علم بخصائصها، ومقاومة الحشائش الطفيلية، والحشرات الضارة بالمحصولات، وكان المزارع العربي يستخدم في هذه المقاومة وسائل مجدية ومدروسة. كما كان يستخدم أحيانًا طرائق وتعاويذ ليست سوى بقايا خرافات قديمة. ويروى المازري أنه لكي نخلص أرضا موبوءة بالدنقة[1]، كان يكفي مثلا أن تطوف حول هذه الأرض في جميع الاتجاهات شابة عذراء عارية القدمين والجسم مسترسلة الشعر، تحتضن بين ذراعيها ديكا أبيض تطوف حول هذه الأرض في كل اتجاه، ولم يذكركم مرة تفعل هذا، لكنه كان يزعم أن النبات الضار سرعان ما يذبل ويموت في نفس اليوم، وببذر بذور البطيخ في جمجمة بشرية مدفونة في الأرض، كان يحصل المرء على منتجات تقوى من ذكاء الذين يأكلونها. وعلى العكس من ذلك إذا استخدم رأس حمار فإن الظلمات تنتشر في «قلوبهم» ومن العادات المحمودة أنهم كانوا يحرمون إطعام دود القز على أوراق شجر التوت الذي في بيت الجار، حتى لا يصاب باللعنة. وإنها لنصيحة حكيمة وأمينة.

([1]) الدنقة = آفة تصيب الحنطة. (المترجم)

البداوة:

يوجد البدو، أعداء الزراعة بالفطرة، في كل مكان من البلاد العربية فقد تميزت دائما المناطق الصحراوية نظرًا لجفافها بالبداوة التي يكون أصحابها في حاجه مستمرة إلى الانتجاع، وفي البحث الدائب عن مراع تستطيع قطعان الماشية أن تتغذى فيها على كلا ندر وجوده. وبدفع البدو، والبربر في إفريقية، وأعراب إسبانيا والبرتغال محاربين ورعاة، يدفعون أمامهم وبطريقة لا تعرف الكلل، قطعانا من الخراف قصيرة القامة وقطعانا من الأبل المهرية[1] وهي أكثر مقاومة للحرارة من إبل التخوم الآسيوية.

وفي الشرفين الأدنى والأوسط تكون السهب غنية بمستنقعات من الملح في الهضبة الوسطى في إيران تسمى «قافير» وبصحراء رملية في كراكوم، وبناحية نهر أمودازيا أي نهر الاوكسوس القديم. ومن ثم، تترك القطعان الأراضي الحارة في الصيف لتقيم في مراعى الجبال التي ترتفع غالبا إلى ثلاثة آلاف من الأمتار فوق سطح البحر. وتتنوع الحيوانات وفقا للمناطق. ففي إيران توجد الأن قطعان من الماعز والخراف، وفي الوادي المنخفض من نهر أموداريا وبحر قزوين قطعان من العجول، وفي تركستان الخيول. ويقيم جميع للرعاة المنتجعين تحت خيام سود من صوف الماعز ويعيشون على الألبان واللحوم من قطعانهم، والملاك الأكثر يسارا هم ملاك الخراف السود ذات الصوف المجعد في إقليم بلمير وبحر قزوين التي تعطي الجلود الثمنية لاستراخان، والتي تقدر بثمن غال منذ قرون.

الـري:

كان الري ولا يزال أمرًا جوهريا في الشرق كله، ولا تزال آثار من شبكة طرق الري ماثلة منذ آلاف السنين. وفي أحواض الأنهار الكبيرة، حفرت قنوات لصرف

---

(1) الإبل المهرية المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن، قيل إنها لا يعدل بها شيء في سرعة جريها. (المترجم)

المياه إلى مكان بعيد، وكانت بلاد ما بين النهرين، وكلديا وسجستان تخطط بهذه القنوات. وكانت تستغل أحيانا مجار تحت الأرض كيما تجلب المياه من الجبال إلى مئات كثيرة من الكيلو مترات، كما لوحظ أيضًا وجود آبار للتهوية وللتنظيف كانت مياهها تغرق دائما سهبا معزولة اليوم في يزيد وفي كرمان. ولكن، لا يكفي أن يكون ثمة ماء يجري دون أن يروي الأرض عندما يكون الانحدار قويا جدًا، وليس في الإمكان دائمًا تهيئة مدرجات أرضية، ولهذا، فقد حفر الفلاحون قنوات لا حصر لها ذات انحدار قائم على دراسة جيدة وزودوها بسدود صغيرة. ولم يبق إلا استخدام الماء الغزير في الوقت الملائم للزراعة عن روية وبعد بذل كثير من الجهود. ولم تضع الفائدة الأصلية الري من العرب الذين أقاموا في كل إقليم أو مقاطعة مديرًا للري. ولما تابعوا نفس الهدف في توزيع المياه. فقد حتم عليهم في بعض المناطق أن يتخلصوا من الماء الراكد، ورواسب الفيضانات المخيفة أحيانًا. ولهذا جففوا المستنقعات وعملوا على إزالتها. وشجع الخلفاء في صدر الدولة العباسية الجهود المبذولة لتصريف المياه، ونجحوا في إعادة بناء القرى المدمرة والمزارع المخربة.

السنة الزراعية:

في الطرفين المتقابلين من الشرق، كانت فيضانات نهر النيل ونهر السند تجدد السنوات المصرية والهندية، وكانت هذه الفيضانات تطابق المنقلب الصيفي الذي كان كذلك بداية السنة في فارس –وكانت هذه البداية مناسبة لعيد مميز بنيران كبيرة توقد عند ما يأتي المساء.

وفي سبتمبر كانت تبدأ سنة الفلاحين المسلمين، عند ما يبدأ الزيتون في النضج، وعند ما ينضج الرمان والسفر جل وأشجار الفيبراء. وكان الفلاحون يحصدون وقتئذ الأرز واللوبيا، وكانوا يشرعون بعد ذلك في اقتلاع أشجار الحناء، وفي تطعيم الكرم. وفي أكتوبر، كانوا يبدأون حرث الأرض. وفي الوقت نفسه كانوا

يغطون أشجار النارنج، وأشجار الموز، وأشجار البرتقال لحمايتها من البرودة الوافدة. وكان نوفمبر الشهر الذي يبذرون فيه الشعير، والحنطة، والكتان. وكان الخشخاش الأبيض يبذر أثناء الشتاء، في أمكنة مصونة بعناية من الرياح ومن البرد، حتى إذا خفت حدة البرودة، كانوا يشرعون في إعداد الأراضي المخصصة لزراعة القطن والكتان. ثم يشتغلون بتقليم أشجار اللوز والخروب، وبعد ذلك يقطعون قصب السكر. وفي الربيع. كانوا يبذرون الحناء، والباذنجان، والكتان وفي الوقت نفسه كانوا يعدون بذور الخضر، ثم ينقطعون إلى أعمال تقطير الروائح وماء الورد. وفي غضون أيام الصيف الطويلة وفي نهاية شهر يونيو كانوا يجمعون البرقوق، والتين، والبطيخ. وكان موسم الحصاد، وجمع الحبوب والبقول، يأتي بعد موسم حصاد الدريس. وفي الخريف في أثناء اكتمال نضج البلح والعناب كانوا يحصدون الأرز والنبلة، على حين كانت تبشر غضون الكروم المذهبة بقطفها.

زراعة الخضر في البرك:

أنتجت دائمًا حدائق الشرق –باستثناء البطاطس والطماطم اللذين لم يكن العرب على علم بهما بعد– جميع أنواع الخضر بوفرة: كالكراث، والكرفس، والبصل بمختلف الألوان، من أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، والخيار الذي كان يغمس بذره في ماء الورد، أو يغرق بالخل، والخيار المخلل، والقرع والباذنجان، ولم يهمل أي شيء فيه مرضاة لفن الطهو، وإذا ما تصورنا التنوع إلى غير نهاية في النباتات العطرية، فإنما ذلك لكي نذكر أن الشعر، والبردقوش، والمرد، والأنسون، والنعناع، والحبق الريحاني، والكمون كانت تتزاوج مع العنبر وشطة السودان كيما ترضى أكثر الأذواق رقة، وأكثر الرغبات إثارة للغريزة الجنسية.

ولم تكن زراعة البساتين سرًا خافيًا عن الشرقيين. وكانت أشجار النخيل المختلفة الأنواع، وأشجار البلح، وأشجار التوت، وأشجار التين في حقول معتنى بها، إلا في مصر وفي إفريقية. وكان المزارعون الأكثر تطورًا يحاولون أن يؤقلموا

فصائل جديدة مستوردة من البلاد النائية. وكانت الحديقة النباتية في تبريز بإيران مشهورة بجمعها لأكثر الفواكه ندرة في آسيا، والصين، والهند. وكانت زراعة الكروم قد غزت العالم الإسلامي من الغرب والبرتقال حتى القوقاز. وكانت بعض محصولات النبيذ بخاصة ذائعة الشهرة وبخاصة نبيذ حمدان بيد أنه بقدر تنوع العنب، كانت تتنوع الأنبذة من أنبذة خفيفة أو كثيفة، حلوة أو حامضة صافية أو مسكرة، تلائم جميع الأذواق. وقد كان زراع الكروم الشرقيون في الحقيقة منذ عصور الحضارة الفارسية الموغلة في القدم على دراية بزراعة الكروم وفن تشذيبه وتطعيمه، وتسميده كما هي العادة في الكروم المشهورة في العصر الحديث.

زرعت أشجار البرتقال والليمون في بلاد ما بين النهرين، وفي فارس، وفي كردستان، وفي مزارع البصرة، وفي خوزستان وفي القاهرة، وفي بغداد وكانت زراعتها سهلة. وقد أتاح التطعيم الحصول على أنواع مختلفة منها، وأصناف ذات خواص لذيذة. وابتدأ إعداد عصير الليمون منذ ذلك الحين. وكانت شجرة الزيتون على العكس منتشرة على شواطئ البحر المتوسط، وفي الأندلس –وفي صقلية، وفي سوريا، وكان الليمون الهندي، وقصب السكر، منتشرًا في مصر وعلى شواطئ بحر قزوين. وأشجار نخيل البلح كانت تزرع بطريقة غريبة. كانوا يزرعونها ببذور يروونها بالماء كل يوم. وكانوا يعنون قبل بذر البذور بإضافة بعض الملح إلى الأسمدة وإلى الأرض. وكان تلقيحها بمارس صناعيًا بهز بعض الأزهار من أسفل الشجرة المذكرة على أسفل الشجرة المؤنثة اللهم إلا إذا كان المرء يلقى هذه الأزهار إلى الطبيعة الأم التي:[1]

«... لكي تلقح الهواء على غرار شجرة تخيل من آسيا ما عليها إلا أن تقذف في الريح ببذرتها المعطرة..».

كانت زراعة أشجار الموز تتطلب كثيرًا من الحرارة والرطوبة. ولكي نجعل هذه

---

(1) هنا كلام ناقص.

الفاكهة أحلى مذاقًا، كانت فسائلها تطلى بالعسل. وفي الحقيقة كان الشرقيون أغنياء بالتجارب والمعرفة والملاحظة وعلى دراية ببعض المشابهات، والاختلافات التي تربط بين شجرة وأخرى، كما أنهم كانوا يعرفون إخصاب بعض الثمار بمختلف الألوان من شجرة واحدة.

ويتناول بالتفصيل بحث نشر في اشبيلية في القرن الثاني عشر زراعة أكثر من خمسين شجرة فاكهة وبيان أمراضها المتنوعة مع وسائل علاجها.

الحبوب:

يذكر هيرودوت أن بلاد ما بين النهرين، كانت موطن القمح، بل إن هذا القطر كان كذلك غنيًا بزراعة حبوب أخرى مثل الشعير بخاصة. وقد مورست زراعة الأرز. في المناطق المجاورة لبحر قزوين، وفي بلاد ما بين النهرين، وفي العراق، وفي عيلام وعلى الشاطئ الغربي من نهر دجلة. وكان الأرز، فوق فائدته الغذائية؛ يستفاد من قشه الذي كان يصنع منه حصر، وقلسنوات، وسلال، وحقائب ومكانس.

الزراعة وتربية دود القز:

لم تكن توجد في الشرق أعمال مشرفة غير أعمال الفلاحة ولم تعد تربية الماشية، ودراسة النمل، وعاداته، وتربية دودة القز بخافية على المزارعين الشرقيين وكان العسل منتشرًا جدًا في فارس حتى إنه كان يتم التقابض به، وكانت الدولة تقبله وفاء للضريبة. أما تربية دودة القز، فقد بلغ من إتقانها أن أصبحت علما حقيقيًا. وكان يعرف من قبل انتقاء الشرانق وأشجار التوت نفسها، والرجوع إلى تنظيم محال تربية دود القز. وأصبح إنتاج الحرير وفيرًا جدًا في فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك أوربا في العصر الوسيط.

النباتات المتعلقة بالصناعة:

القطن نبات هندي الأصل أدخل إلى إيران والعراق في بداية عصر الميلاد؛

ثم زرعه المسلمون في سوريا، ومصر، وإسبانيا. وكان الكتان يزرع في دلتا النيل منذ العصور القديمة. لكن الإسلام نشر زراعته في القرن العاشر في خوزستان وفي جنوب فارس ووصل استغلاله بعد ذلك إلى الشمال وبحر قزوين. وكان هذا النبات يتطلب أرضًا رطبة وتربة جيدة، ولا يكاد يصفر حتى يأخذوا في حصاده، وبعد أن ينقع في الماء، ويجف يستبعد القش بالدراس.

كان نبات النيلة يزرع في أبريل بعيدًا عن الرياح الباردة، وينقل إلى مكان آخر عندما ينبت من الأرض. وكلما أخذ في النمو، كان يلتف حول غابة مغروسة أسفل كل شجرة. وكانت الفوة[1] تذر في الهواء مثل القمح على أرض محروثة ومسمدة. وكانت تروى كل ثمانية أيام. ثم كانت تعطى بعد ذلك جذرًا مشربًا بالحمرة يقتلع بمجرد أن يصل إلى نمو معين. والحناء شجيرة تغمر بالماء مدة خمسة عشر عامًا تقريبًا في مصر العليا وفي الحبشة. وقد نجح المسلمون في إدخالها بصعوبة إلى سوريا، وجنوب فارس. لكنه تحول هناك إلى نبات ينزع كل عام، وما يستخدم منه هو أوراقه المجففة في الظل. ويزرع الزعفران بطريقة زراعة البصل نفسها. وكان البصل يزرع في مايو وكانت هناك زهرة زرقاء ذات غصون سمراء مائلة إلى الصفرة تجمع في الخريف. وكان الخشخاش ذو الأزهار الحمراء التي كان يستخرج منها الأفيون، يبذر أثناء شهور الشتاء ويروى مرتين كل أسبوع حتى الصيف. وعندما كانت تجف رؤوسه: تقطف من الساق لكي يستخرج منها الأفيون. وكانت هذه المادة العضوية تصنع في أسيوط وفي مصر العليا وتستخدم في الطب كمخدر.

العطور والأزهار:

كان للبخور والصبر في الجزيرة العربية شهرة معروفة ولم يتوقف أبدًا السلف عن الاستفادة بهذا البخور، الذي كان يذكر المرء بأكثر التقاليد قدما في الشرق.

---

(1) الفوة على وزن القوة = عروق يصبغ بها.

(المترجم)

وعلى مذبح العطور، كان العبرانيون يقدمون البخور إلى الإله يهوه. وفي حظيرة بيت لحم، قدم الملوك المحبوس البخور والمر مع الذهب إلى يسوع الطفل واليوم يحرق البخور أيضًا في أعياد المذهب الكاثوليكي.

كانت فارس ذائعة الصيت من أجل بخورها المستخلص من الورد، والبنفسج؛ والياسمين، وبسبب التنسيق المتقن الذي بلغته في زراعة الأزهار المطعمة. وكان أحد الملوك المعاصرين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) يتساءل: ماذا كان يمكن أن يكون عليه عطر السماء؟ فأجابه أحد جلسائه بأنه مزيج من الورود الملكية، ومن الورود الفارسية ومن حبق سمرقند، ومن أزهار شجرة النارنج في طبرستان، ومن نيلوفر البانيا، ومن العطر الثلاثي للصبور الهندي، ومن مسك التبت، ومن عنبر سيكهبر[1]».

لقد كانت الأزهار في الشرق مرغوبا فيها حتى بين الطبقات الدنيا القائمة بالقليل والمهتمة بالحصول على الضروريات، أما الطبقات الغنية فكانت تقوم على رعاية حدائق ناضرة حتى في المدن الآهلة بالسكان مثل بغداد. وتحت الشمس المحرقة في الريف، كانت البيوت الفاخرة خارج المدن تنتشر متراخية وسط أحواض شاسعة من الأزهار. ففي فارس مثلا كان المرء فيها يمزج شجرة الورد بشجرة اللوز للحصول على أنواع نادرة. لهذا لم تكن الورود فيها بارعة الجمال. وجملة القول إن رجال الشرق في العصور القديمة كانوا يحبون الأزهار كإكسير للحياة.

الصناعة:

لم يتح اختفاء طبقات في جوف الأرض، أي تقدم ملموس للصناعة المعدنية في الشرق الأدنى. وقد وجد منه بشق النفس بعض العروق الخفيفة في منطقة يزد وسط هضبة إيران، وفي لورستان، وهي أقطار عسير مزارها، فكان استغلال الخشب

---

(1) ميناء قديم من مواني بحر البلطيق.

(المترجم)

ضروريًا إذن. وأدت هذه الضرورة إلى إزالة الغابات من بعض ولايات أفغانستان الحالية ومن جبال أرمينية، وهي مركز تموين لبلاد ما بين النهرين.

المعادن:

أما الذهب والفضة والزئبق فكانت توجد في منطقة جنزاك –وهي مدينة مشهورة بعلمائها الكيميائيين –وبين نهو دجلة الأعلى وبحر قزوين، وفي مناجم جبال زاجروس. وكان البواركس والأنتيمون يأتيان من أرمينية. وكانت منطقة بنجهير في أفغانستان غنية بمناجم الفضة والنحاس، كما كانت توجد طبقة صغيرة من القصدير في منطقة كابول. لكن أهم مناجم الذهب هي التي كانت تقع بين بلاد النوبة والبحر الأحمر في مصر.

كانت المعادن تجلب إلى المدينة، حيث كان النحاس يصهر ويطرق ومعه البرونز والقلز، والفضة، والذهب. وكانت الأبارق، والأواني، والأقداح، والأكواب، والأحواض، والسفافيد، والمفاتيح، والمقصات، والصينيات، والمرايا، والمصابيح، والشمعدانات، والمواقد، والمباخر، والآلات الفلكية، وأغلفة مصاحف القرآن.. كانت هذه الأشياء كلها تصنع وقتئذ بحسب رسوم ونماذج فنية.

كما أنه نشأ في بلاد ما بين النهرين من النحاس الذي كان أقل ندرة من بقية المعادن، صناعة قطع مطعمة بالفضة لها تأثير عجيب في نفوس الناظرين. واختصت دمشق والموصل بصناعة الأسلحة والدروع من المعدن العادي، وكانت هذه الأسلحة المزخرفة إلى درجة الإتقان بفضل العرب محلاة بخيوط من الذهب أو الفضة. وفي دمشق كان يثبت الخيط الذهبي أو الفضي في الفراض الخشبية أو بعض المساكن المجهزة مقدمًا، وفي الموصل، كانت تسوى هذه الأسلحة بضربات من المطرقة في مجموعها بحسب رسم موضوع: وكان يطلق عليها اسم «الدمشقيات». وكان الصلب والحديد يجهزان في سمرقند وأذربيجان والبرونز في بخاري، ونيسابور، والنحاس في الموصل وديار بكر. وكان القصدير نادرًا في

الشرق. وكان منه القليل في بلاد صنديان في امودارِيا العليا، وكان يمزج بالبرونز. وكان الرصاص لا يحتاج إلى المزج. ويستخدم هذا الرصاص لبناء سقوف المساجد، وأنابيب المياه، وتثبيت الأحجار.

ومع ذلك، لم يعرف الشرق الصناعات الكبيرة، ولا الخطوات الفنية الجادة في ميدان التعدين، وظلت الصناعة في مستوى الصانع اليدوي، وبقيت الأشياء تصنع في (الورش) والمحال الصغيرة كما كانت عليه في الماضي.

وكان العامل[1] يبدي، في هذه (الورش) وفي هذه المحال، مهارة وحذقًا وصبرًا وكانت كل هذه تعوق الإنتاج بدون شك، لكنها كانت تمنحه صفة الإتقان، وطابع الطلاوة. وقد بلغ صانع المعادن ما بلغه الخطاط، وصانع الفخار، وصانع الخزف. ولا شك أن في كل عمل متقن فضيلة مهما يكن هذا العمل الفني الشخصي متواضعًا، ومهما تكن قدرته على التعبير عن ذات نفسه.

ولم تكن الآثار الفنية المترفة التي يصنعها المتفنن لعلية القوم الشاغل الوحيد لصناع المعادن، بل كانوا يصنعون أيضًا السلاسل الضخمة التي كانت توصد مداخل الأبواب، والتي كانت الحلقة الصغيرة منها في طول الذراع وضخامتها. فقد منعت السلاسل الأسطول العربي من دخول البوسفور مرتين. ولم يذهب سدى هذا الدرس القاسي. ففي الميناء الذي أنشأه المهدي على مقربة من تونس، كانت أبواب، يزن مصراع الواحد منها خمسة أطنان. وكانت معظم المدن المحصنة توصد بوساطة أبواب قوية من الحديد المطروق. وكان صانع الأواني النحاسية يصنع في سمرقند

---

(1) ... لقد كان الشيد في العادة يحسن معاملة العامل إلى حد لم يكن مركزه أسوأ من مركز العامل في المصانع الأوربية في القرن التاسع عشر، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع، لأنه كان آمنا على حياته منه ... ولم يبلغ استغلال العمال في بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية [عن قصة الحضارة –عصر الإيمان– تأليف ول ديورانت– ترجمة محمد بدران ص١١٢ و١١٣].

(المترجم)

قدورا تسع أكثر من ألف لتر. وأتقن العرب صناعة سنبك (حدوة) الخيل، وتعلم الصليبيون –عن طريقهم– مدى ما تتمتع به سيوف دمشق من صلابة قوية. ويشير بيان موجز عن ثروة الفاطميين إلى المدى الذي وصلت إليه المنتوجات الصناعية الشرقية: فيذكر البيان هذه الحقائق، «أربعمائة قفص من الذهب، وستة آلاف آنية من الذهب، وخزانات من الفضة تزن مائة وخمسين كيلو، وديكة، وطواويس، وغزلان ذات حجم طبيعي من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة وأشجار نخيل من الذهب في أقفاص من الذهب، وأسلحة، ودروع، وأكثر من مائة ألف تحفة بمينة في مجموعها منها ثلاثون ألفًا من معادن مختلفة»[1].

الخشب:

كانت صناعة الخشب مزدهرة على الدوام عند العرب. ومما يثير الدهشة لدى الرجال الأوروبي حين يزور الشرق، المشربيات المصنوعة من الخشب المنقوش حول الشرفات والأروقة. وفي المساجد والمحاريب، والمنابر، ودكة القراء، كلها مصنوعة من خشب جميل قوي محفور بشكل يثير العجب. وتزين معلقات متقنة الصنع المساكن الخاصة، والسلالم والحواجز، والنوافذ، والأبواب. وتصنع كذلك المقاعد، والأرائك، والمكاتب، والموائد، والنضد المستديرة والعلب المزينة بصفائح رقيقة متنوعة من الصدف أو المرمر أو الخشب الثمين أو بنقوش من الودع على شكل سكين مقفل، من خشب مزخرف. والخشب هام جدًا من أجل الصناعة والبناء والتدفئة.

ولكن –كما يقول جويتيه (**jautier**) وربما كان هذا القول مبالغًا، فيه، «قد لا يوجد في الجزيرة العربية خشب يكفي لصناعة عود ثقاب» فالشرق الأدنى كله مشترك تقريبًا في ندرة الخشب اشتراكا على أجمل وجه، باستثناء لبنان الذي كانت أخشاب أرزه تستخدم من قبل في بناء الأسطول الفينيقي، ثم الأسطول العربي، وباستثناء أرمينية التي كانت تمد بلاد ما بين النهرين بخشب الوقود. وكانت بقية

---

(1) على مظاهيري: الحياة اليومية للمسلمين في العصور الوسطى.

أخشاب غابات أرميلية تقطع من أجل احتياجات الصناعة. إذن، فقد كانت الأخشاب المستخدمة في الصناعات مستوردة. وكانت جميع مساكن الخليج الفارسي، ومساكن بلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية تستخدم في هياكلها الخشبية، وفي أثاثها خشب الهند، والملايو، وإفريقية. وتجلب هذه المواد بالسفن أو بوساطة ناقلات بحرية مصنوعة من جذوع الأشجار مرتبط بعضها ببعض بسلاسل حديدية.

هذا هو السبب الذي من أجله كان فن صناعة الخشب منتشرًا دائمًا في البلاد العربية. وكان الصناع من المهارة على الغاية وكانت التحف الخشبية المقطوعة قطعًا فنيًا أحيانًا في نقش حقيقي أو المنسقة بإحكام تشهد ببراعتهم. وكانت الزخرفة تتركب من نقوش ومن قطع من الخشب الثمين تطعم بها الأخشاب العادية: مثل خشب الأبنوس، والخشب البنفسجي اللون، والخشب الوردي أو قطع من اللؤلؤ، ومن العاج، ومن المعدن. وكانت قطع الشطرنج تحتوي على ألوان فنية رائعة.

الورق:

عند ما احتل العرب سمرقند في سنة ٧١٢، أذاعوا فيها طريقة تعطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهي إلى أوراق رقيقة جدًا وهذه العجينة تستطيع أن تحل محل الورق الأبيض الأملس والرق اللذين كانا نادري الوجود وأثمانهما غالية. وكان هذا الورق «البابيروس» يذكرنا بالورق البردي، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنه أقل تكلفة ومنتشر جدًا في الشرق. وقد خلق الوزير الفضل البرمكي الصناعة الأولى للورق في بغداد في سنة ٧٩٤. وهذه الصناعة التي كانت من أصل صيني انتشرت بسرعة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جدًا بسبب المترجمات، كما أن الشغف العام بالكتب كان يستلزم الإكثار على نطاق واسع من صناعة الورق. وقد انتشر الورق بسرعة في جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ إسبانيا، وقد اقتضى مع ذلك أكثر من ثلاثة قرون لكي ينتقل إلى أوروبا. وظلت سمرقند وقتًا طويلا المدينة الهامة للورق الجيد. وكانت القوافل تحمل من الصين إلى

سمرقند الورق الذي يقال عنه ورق الحرير. ومن الصين تأتي جلود الكراسات، وكانت أحجام أوراق الكتب كتلك التي تستخدم اليوم. مثل القطع على النصف والقطع على الربع أو البغدادي، والقطع على الثمن أو الثلث، ولم يكن معروفًا لدى العصور القديمة غير دروج الرق.

وتحتفظ المكتبة القومية في باريس بنصوص مطبوعة بوساطة المانويين[1] في تركستان قبل مطبعة جيتنبرج بستمائة علم. وعن طريق تركستان أدخل المغول في فارس في القرن الثالث عشر أوراقا خاصة خليقة بأن تطبع بمساعدة حروف متحركة من البرنز. وهذه كانت أول أوراق نقدية. وقد أدى سوء استخدام هذه الأوراق النقدية إلى اختفائها واختفاء طريقة الطبع في وقت واحد. لكن أهالي جنوا كانوا قد اطلعوا على طريقتها الخفية المزدوجة وحملوها إلى أوروبا.

الزجاج:

كانت صناعة الزجاج من أصل فينيقي، ثم تقدمت في مصر وسوريا حتى بلغ من تقدمها أن كانت تباع وتوزع بضائع لا حصر لها في قوارير زهيدة الثمن. وعثر على بقايا تحمل شواهد عن هذه الصناعة مؤرخة من القرن العاشر. وصنع الزجاج أولًا في فينيقية، وظلت مصنوعاتها الزجاجية مرتفعة القيمة مدة طويلة. وصدرت من وقت مبكر مصر وسوريا إلى حوض البحر المتوسط كله مصنوعاتها الزجاجية. وسرعان ما ورث المسلمون عن الفينقيين والمصريين والسوريين مهارتهم في صنع الزجاج، ومنذ القرن التاسع، كانت مخترعات حلب في هذه الصناعة مرغوبًا فيها جدًا، وكانت هذه المدينة تصنع أكوابًا وقوارير، وزجاجات متداولة الاستعمال وأواني أو آلات من الزجاج من أجل الكيمياء، مثل أنابيب التقطير، وما إليها الخ.

---

(1) أبتاع ماني وهو رجل من أهل إكباتاتا (همذان) (٢١٥- ٢٧٠)، وكان يقول إن كل شيء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة، أو الخير والشر.

(المترجم)

وكانت دمشق تصنع الزجاج المذهب، والقاهرة القديمة أقداحًا شفيفة تشبه الزمرد. وأما في العراق وفارس فقد صنع البلور المصفى لأول مرة. ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطاني بتحف فاخرة من سامراء والفسطاط: من أقداح، وآنية، وأباريق، وقناديل موشاة بألوان براقه ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو ببلاتين معدني ذي ألوان متغيرة كقوس قزح. وكانت صيدا وصور تحصلان من صناعة الزجاج على صفاء ونعومة لا مثيل لهما. ومن بداية القرن الحادي عشر، بدئ في صناعة صحائف الزجاج التي استخدمت في زجاج النوافذ، وفيما بعد بقليل، بدئ في صناعة قناديل المساجد من عجينة زجاجية مزخرفة ذات ألوان متنوعة. وصنعت المصابيح «الاباجورات» الزجاجية المزينة بنقوش وخطوط ورسوم زهرية. وقد زينت المساجد والقصور بحواجز زجاجية دقيقة الصنع جدًا، حمراء أو خضراء أو صفراء. وأدخلت هذه الصناعة في صقلية في القرن الثاني عشر. وفي ذلك العصر، كانت حلب ودمشق تصنعان عجائب من الزجاج بمساعدة رسوم بألوان الطيف. وأما البندقية فقد حصلت أخيرًا من سوريا ومن مصر على المواد الأولية والعمال العرب الأخصائيين وعلى طرائق هذه الصناعة الخفية التي احتفظت بها عن جدارة وحرص من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر.

صناعة الفخار:

ترجع صناعة الأواني الفخارية والخزف المطلي إلى أصل صيني، وإيراني، وساساني. وكان الحجر نادرًا وغالي الثمن في بلاد ما بين النهرين وفارس، أما الصلصال والحرارة فإنهما منتشران وقد حول تنوع الترتيب والتشكيل القرميد المتداول إلى أشكال أخرى بوساطة حركة الضوء والظل. فقد صنعت صفائح من الخزف، وقراميد مزخرفة، وفيسفساء مختلفة ألوانها تكسي بها الجدران كما صنعت واجهات رائعة من الأفاريز المنقوشة، ومن بعض الخزف المصقول، والمطلي بالمعدن، وكانت المساجد في جميع بلاد الإسلام قاطبة تزين بها الواجهات وكانت الطلاوة الرقيقة لهذه الزخرفة الداخلية تتوازن في انسجام مع القوة المهيبة للأشكال الخارجية.

وفي القرن التاسع، نحت بعض التأثير للصناعة الصينية –صنعت في خراسان، وفي أفغانستان وفي سامراء على نهر دجلة، وفي سوسا، وفي الري، وفي الرقة على نهر الفرات، تحف من خزف متنوع تمتاز بحسن الشكل والتناسب، ذات ألوان غنية جدًا تذكرنا بخزف الصين. ولكن فقدان الفخار الأبيض في الشرق الأدنى منع انتشار صناعة الأشياء نصف الشفيفة. وأن كانت بعض صناعات الأواني الفخارية تحاكي الأولوان المختلفة الصينية، وأخيرًا كانت تضاء بعض صناعات أخرى بانعكاسات من الأضواء الذهبية والفضية يتوصلون إليها بمزج الأوكيدات المعدنية. وقد رأينا في الري وفي الرقة أنواعًا من الصناعة الفخارية ذات المنظر الطبيعي المعتمد في رسمه على اللون، تتركز فنيتها في رسوم صغيرة ذات ألوان رائعة، وكانت تحف مزخرفة بألوان مختلفة تمثل صورًا، ومناظر وشخصيات عربية من الذهب الذي يغلب عليه اللون الأزرق. وأخيرًا، اختصت منطقة الموصل بصناعة الأواني التي تحمل نصوصًا بالنقش البارز، وتبدو صناعة الفخار الفارسية كأنها زخرفة ضرورية في هذا البلد، وهي الانعكاس المشرق لعبقريته، وهي تصور بمهارة، وبتنفيذ فيه ذوق رقيق، ولتخرج ذات ألوان باهرة، ولم يكن لها من منافس في الغرب لمدة سبعمائة سنة أو ثمانمائة سنة، ومما يروى أن وليمة أقيمت في القرن التاسع فارتجل فيها المدعوون قصائد تمجيد للأكواب التي كانت تزين مائدة طعامهم.

الصناعة الكيمائية:

كان علماء المسلمين يفترضون أن جميع المعادن، من نوع واحد وكانوا يعتقدون في إمكان تحول هذه المعادن. وعلى هذا بحث علماء الكيمياء في تحويل المعادن «الخسيسة» إلى ذهب أو فضة مثل الحديد والنحاس والرصاص والقصدير إلى ذهب أو فضة. وذلك بمعونة حجر الفلاسفة وهو مادة تعالج بطريقة خاصة. وظلوا يبحثون عن حجر الفلاسفة هذا لكنهم لم يكشفوه بعد. وكان الشعر، والدم، والبول، والغائط تعالج بمساعدة مواد كاشفة متنوعة تخضع للشمس، والنار، وللتكليس، وللتصعيد بأمل الحصول على «الإكسير» الذي يطيل الحياة.

وفي عصر الكيميائيين نفسه، كان هناك فنيون توجههم مصلحة عملية يسعون –في معامل حقيقية– إلى تجربة قياسية للأجسام الصلبة، أو المركبة. وكانت هذه البحوث تتناول كذلك المعادن، والأملاح، والأحماض، ومواد التلوين، والأجسام الدهنية، الخ.. وكانت مواد التجربة مكونة من آلات تقطير، ومن أفران، ومن مواقد للتقطير، ومن موازين، ومن جميع الأجهزة الضرورية من الأحجار الرملية ومن الزجاج أو من المعدن. وكان كيميائيو هذا العصر يعدون جداول تشير إلى الأوزان النوعية، الأمر الذي جعلهم قادرين على أن يميزوا بين الأجسام عن طريق وزنها أولا، كما استطاعوا أن يتعرفوا فيها بوساطة تحاليل مختصرة، وطريق إعادة إنشائها عن طريق تأليفها.

كانت مهارة الكيميائيين ومعارفهم أداة صالحة وجدوا بها أصباغًا لتلوين الأنسجة، والفسيفساء، وصناعة الأواني الفخارية. وكانت هذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها طوال ألف سنة.

ولم تكن العصور القديمة تعرف غير العطور الشرقية. الصبر، والمسك، والبخور. فقد أخذ العرب يعرفون العالم طريق استخدام العطور. وتعلم الكيمائيون بسرعة استخراج العطور من الأزهار. وفي شابور، كانوا يقطرون جميع الروائح وفقًا للطرق الفنية الزرادشتية: مثل النرجس، والبلك، والبنفسج، والياسمين، الخ.. وكانت جور مشهورة بمياهها المعطرة، وكانت تصنع مياهها من زهر البرتقال وماء الورد المجلوب من ورد أصبهان.

كانت سمرقند مشهورة بعطرها من الحبق[1] الريحاني وسيكهير بعنبرها. وقد احتفظ مسك التبت، ونيلوفر البانيا، فارس بجاذبية عطورها الأسطورية. وقد صنع العرب الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام أو الزيت، وأنشأوا صناعة من أفخر

([1]) الحبق = نبات طيب الرائحة.

(المترجم)

الصناعات في بغداد إذ قدر لها أن تنتشر بسرعة في مصر، وسوريا، وبلاد تونس، وإسبانيا الإسلامية.

كان الإسلام قد استقر بحيث إن الميل إلى الرفاهية تملك جميع طبقات المجتمع، حتى إن الإنتاج لم يستطع مواجهة الاستهلاك فاحتاج الأمر إلى اختراع صناعة مواد بديلة أو منتجات غذائية بديلة.

صناعة المنسوجات:

عندما فتح الإسلام الشرق الأدنى كله، كانت به منسوجات مصرية، ومنسوجات قطنيه من سوريا ومن بلاد ما بين النهرين، ومن إيران ومن صناعة حرير بلاد ما وراء النهر. وكانت الأقمشة البيزنطية والقبطية والساسانية مشهورة من قبل، وعرف المسلمون الاحتفاظ بشهرة تلك الأقمشة. أما الحرير، فإن مناسج الشرق الأدنى الصغيرة أصبحت المتعهدة بتصديره لعالم العصر الوسيط، على الرغم من أن النبي ﷺ رأى كراهة لبسه. وقد كان يصنع في مصر، وفي سوريا بمساعدة أنوال يدوية لأنسجة حريرية مزخرفة، شهد الأوربيون في أوربا بجمالها. وكان الصليبيون يستخدمون أنسجة حريرية ليلفوا بهارفات موتاهم (الذين كانوا يعظمونهم).

وكانت أفخم الأقمشة الكتانية تصنع في مصر، في إقليم دمياط. كما ينسج في دمياط ستر شديدة الرقة، وستائر، وملابس داخلية رقيقة. هذا ولأن البلاط المصري احتجز لنفسه كل صناعة الكتاب، فقد زرع الكتان في إيران في القرن العاشر، واستقرت آلاف كثيرة من النساجين على شاطئ الخليج الفارسي وفي أذريجان. ونظرا الخصائص منتجاتهم، ودقة مواعيدهم وانتظامها فقد اشتهروا سريعا بأمانتهم، حتى إن البضائع كانت تمضي من يد إلى يد دون أن يشعر المتسلم بحاجته إلى التحقيق منها.

كانت الصناعة القطنية نشيطة وبخاصة في إيران، وكانت الأقمشة القطنية تصنع في معظم مدن خراسان، وسينيز وكرمان في وسط فارس، أما الأنسجة القطنية

المطبوعة فكانت في وسط فارس وبخاري، وأما في جهرم فتصنع الأصواف المنسوجة وكانت سينيز تصنع الملابس الداخلية، وكانت مرو تصنع النسيج الصوفي الخفيف واختصت نيسابور وبلخ بالقطع الكبيرة من النسيج، وهذه القطع كانت ترسل، إلى بغداد، ومصر، وكان يصدر بعض منها حتى يصل إلى الصين مما جعل زراعة القطن في القرن العاشر تنتشر في سوريا وفي إفريقية الشمالية، وفي إسبانيا. وصنعت الموصل أقمشة قطنية رفيعة «موصلية».. ودمشق أقمشة «مشجرة» تسمى الدمشقيات.

وقد قامت صناعة الحرير قبل الفتح العربي على مواد أولية مجلوبة من الصين وانتشرت على شواطئ بحر قزوين، وفي طبرستان، وبعد الفتح انتشرت تربية دودة القز. وانتشرت معها في الوقت نفسه هذه الصناعة –إلى حد ما– في كل مكان من الأراضي الإيرانية فنسجت أقعنة للنساء، وخمر، وأشرطة منقوشة بالذهب، وأنسجة حريرية ملساء، وأنسجة حريرية رقيقة، وستائر لمظلات الأسرة، أو للهوادج أو لقبة المحراب. وكانت أرادات مشهورة بأقمشتها المطرزة بالذهب. وكانت هذه الأنسجة تصبغ بطريقة متقنة جدًا تصدر بسببها إلى الشرق الأقصى. وقد حفظت بعض النماذج في متحف اللوفر، وفي المتحف الإمبراطوري الياباني. وكانت أكثر الأقمشة المنسوجة تصنع من الذهب في صقلية. وكانت هناك مطرزات من الذهب ذات أرض من الحرير، وعندما استقرت هذه الصناعة في بالرمو على يد الفاطميين، استمرت في الازدهار تحت حكم النورمنديين. أما في صقلية في القرن الثاني عشر فقد صنع معطف تتويج أباطرة ألمانيا المحفوظ في «خزانة فينا». وفي إسبانيا، كان النساجون السوريون قد جلبوا ابتداء من القرن العاشر الطرائق الفنية لصناعة المنسوجات الحريرية المحلاة بالذهب.

لكن الشرق كان ولا يزال متفوقا في صناعة السجاد، سواء أكان من وبر الماعز أو الجمل، أو من الصوف، أو من القطن أو من الحرير. وكانت بعض المصانع الصغيرة المقامة في القرى تستخدم نساء وأطفالا يعملون، وهم جلوس

أمام النول على لحن أغنية خاصة تومئ إلى الغرز والأصباغ. وكانت الرسوم مستوحاة من مناظر حية، وبخاصة من أمكنة للصيد، ومن معارك للحيوانات، أو من كتابة حسنة العبارة والأسلوب، ومن رسوم ذات نقوش عربية متأثرة بالإسلام. ولم يظهر السجاد المخمل في فارس إلا في القرن الحادي عشر. ومن هنا كانت الرسوم ميدية أو من أذربيجان، ومن غادر جستان، أو من طبرستان، وكانت كل السجاجيد الشرقية مطلوبة، ولكن التي حظيت بالشهرة هي سجاجيد أصبهان واختصت بخاري بصناعة سجادات الصلاة.

الصناعة الميكانيكية:

عندما دخل العرب القصر الملكي في المدائن، لاحظوا على الفور «قطعة أثاث ضخمة من الأبنوس، والعاج، والذهب، تعلوها قبة مذهبة ولازوردية، تمثل السماء قد رصعت بنجوم ثابتة تدور حول نفسها ..... على غرار القمر والشمس في دورانهما الشهري والسنوي»[1] ولم يفهم العرب على وجه الدقة شيئا عن هذه الآلة التي لم تكن سوى ساعة دقاقة وقبل ذلك ببضع عشرة سنة، لاحظ هرقل الذي استولى توا على مدينة ملكية أخرى هي جنزاك وتسلل إلى البهو الكبير لمعبد الملوك، فرأى حسب قول تيفان **Théphane** الصنم المخيف (ارمزد) **Onmuzd** متربعا على العرش في سقف القصر الذي كان على هيئة كرة (قبة) تحيط به الشمس والقمر والنجوم التي كان عبدة الأصنام يعبدونها على أنها آلهة، كما يحيط به من جميع الجهات رسله حاملين صولجانات الملك وهناك كان قد أمر عدو الله هذا بإقامة آلات ميكانيكية لإسقاط قطرات من المياه شبيهة بالمطر، ولإحداث أصوات شبيهة بالرعد».

ولم يفهم الملك البيزنطي من هذا شيئا، وإنما كانت هذه ساعة جبارة تمثل السماء. وكان في الشرق نماذج أخرى لساعات دقاقة أقل تعقيدا ولكنها ليست

---

(1) وفقا لرواية على مظاهيري في كتابة «الحياة اليومية للمسلمين في العصور الوسطى».

خالية من أجهزة معقدة. وفي المسجد الأموي في دمشق، كان يرى «قصر» فيه اثنتا عشرة نافذة توصد أحداها كلما كان مدفع صغير يعلن الساعة. وفي نهاية النهار تكون جميعها موصدة. وكان دوران هذا الجهاز يبدأ في الليل، لكن النوافذ كانت تضاء بنور أحمر، الواحدة بعد الأخرى.

كان هارون الرشيد قد أهدى إلى شارلمان ساعة تعمل بالماء مصنوعة من جلد ومن نحاس موشى بأسلاك من اللجين أو الذهب، وفي كل ساعة كان فرسان من المعدن يفتحون الباب، ويتركون مجموعة (البلى) التي كانت تناسب التوقيت تسقط على دف، ثم تتراجع. وقدم سلطان من مصر بدوره إلى فردريك الثاني[1] هوبنشتاوفن «قصرا للساعات» وهي تحفة ميكانيكية حقيقة، وقد حافظ ملوك المسلمون على هذا التقليد، ولا يزالون في أيامنا هذه يقدمون ساعات كهدايا إلى ضيوفهم. ومنذ القرن العاشر كانت تصنع نماذج لساعات أقل تعقيدا، لكن ثمنها لم يكن بعد في متناول المقادير المتواضعة.

واثمن من ذلك بالنسبة لجماعة «المؤمنين» كانت هناك أجهزة أخرى تدار بالماء وهي الطواحين الموزعة على حافة الأنهار. وكان يوجد منها طواحين ثابتة أمام مجموعة من المدن الهامة. وكانت هناك طواحين أخرى هوائية مهمتها طحن حبوب سكان الشواطئ والقرى المجاورة.

وفي الموصل، كانت طاحونة واحدة مقامة على قاعدة من الخشب وسط نهر دجلة، تدار أرضها الحبرجرية باندفاع تيار النهر، وكانت تستطيع أن تطحن خمسين طنًا من الحبوب كل يوم. وكانت طاحونة أخرى في بغداد بها مائة رحى. وفي ملتقى النهرين عند البصرة، كان هناك جهاز يستعمل لإدارة عدد كثير منها قد انتشر بنظام

([1]) إمبراطور من عائلة هوبنشتاوفن الألمانية التي اعتلى أفرادها عرش ألمانيا من عام ١١٣٨ إلى عام ١٢٥٠، ومن أشهر من اعتلى العرش من هذه الأسرة فردريك الأول، وهنري السادس، وفردريك الثاني. (المترجم)

مستغلا المد والجزر.

واليوم، في بلاد ما بين النهرين، وفي سوريا تأخذ طواحين ذات قواديس مثبتة على حافة مجاري الأنهار المياه من حوض النهر، وترفعه، وتصبه في قنوات الري التي تنطلق من ضفافه. وتعمل هذه الآلات التي يطلق عليها «سواقي» على نهر العاصي. وأخيرًا، وفي وسط الهضبة الإيرانية، كانت طواحين هوائية أقامها الفرس من قبل الفتح العربي تستخدم الرياح التي تهب بانتظام. ويعمل على الدوام عدد معين من هذه الطواحين. وكانت لدى المسلمين فكرة إقامة شبيه لها في صقلية وفي إفريقية الشمالية التي يستعمل فيها بعض الطواحين أيضًا لعصر الزيتون، واستخراج السكر من القصب[1].

التجارة:

إن الطرقات الكبيرة البرية والبحرية التي كانت ملتقى الأجزاء المعروفة من عالم العصر الوسيط، كانت تمر بالعالم الإسلامي: وكانت أوروبا وآسيا وإفريقية تتلاقى في هذا العالم عند مفترق طرقها.

هذا الوضع الجغرافي الممتاز كان يقتضي أن يعطى تجارة المسلمين مكانة ممتازة. وكانت قوافل التجارة تسلك طريقين هامين: طريق البر الذي يطلق عليه طريق الجرير، وطريق البحر الذي يطلق عليه طريق الهند، وكان طريق الخرير يربط الصين بالغرب، وكان يمر بسمرقند وبخاري في تركستان، والري وهمذان في فارس، ثم بغداد التي كان يزدوج فيها الطريق ليصل من جهة إلى القسطنطينية والغرب بوساطة نهر الفرات والبحر المتوسط، ومن جهة أخرى بالجزيرة العربية وإفريقية مارًا بالكوفة ومكة والمدينة.

كانت القوافل تحمل منتجات الصين والتبت وأواسط الهند. وكانت هذه

---

(1) علي مظاهيري.

القوافل تجلب من الصين بخاصة الأقمشة الحريرية وبعض الأواني الصينية مقابل المنتوجات المصنوعة في بيزنطة، وفي العالم الإسلامي، ومن التبت كانت تجلب الفراء المستوردة من سيبيريا والجلود التي تسمى جلود استراخان التي تؤثرها الطبقة الموسرة من فارس ومن بيزنطة، ومن الهند، كانت تجلب أنسجة، وأقمشة قطنيه، وجواهر وأحجارًا كريمة، وروائح وأعشابًا طبية، ولكن عن طريق آخر هو طريق نهر الفولجا وبحر قزوين. وكان الأرقاء البيض يأتون من روسيا ومن اسكنديناڤيا، والعنبر يأتي من بحر البلطيق، والعسل من الشمال الذي أوثر استخدامه على السكر، والشموع الطويلة التي كان العالم الإسلامي يستهلك منها كميات كبيرة في مساجده. وكان طريق الهند –وهو طريق السندباد البحري– الطريق البحري، الذي يربط بين فارس وموزبيق ومدغشقر بالشواطئ الشرقية والغربية للهند، ومع الملايو وسومطرة، وبلاد كمبوديا في ذلك الوقت والميناء الكبير للصين الجنوبية: كانتون التي كانت فيها الجالية العربية تقيم بأعداد لا حصر لها.

كان الشرق يستورد من هذه البلاد المختلفة المنتجات الأكثر تنوعًا. فمن إفريقية كان يستورد الأرقاء السود، والعاج، ومسحوق الذهب، والعنبر الداكن. وفي جزرها، كان يكشف أعشابًا طبية، وتوابل وعقاقير، ومن الهند كان يأخذ الحديد، والصلب، والقصدير، ومن الملايو خشب البناء، والأصباغ، والمواد المعدنية، وكانت بلاد كمبوديا القديمة تصدر الأخشاب الثمينة.

وكان المسلمون يصدرون إلى الصين العاج والحلى الصدفية من إفريقية والهند، والنحاس والكافور الذي كان الصينيون يدفعون ثمنه غاليًا. وكان التجار يعرضون كميات صغيرة في كل مكان من بضائع مصنوعة من زجاج، وجواهر، وكبريت، ومنسوجات قطنية وعطور، وفواكه، وخضر. وكانت تجارة الخيل بخاصة مزدهرة. وفي كل سنة، كانت هناك عشرات الآلاف من الخيول ترحل من سيراف إلى شاطئ كورماندل حيث كانت تباع على شاطئه إلى الهنود. وفي الحق، كان البحر، المتوسط حتى زمن الحروب الصليبية تسوده جميعه تجارة المسلمين، التي

كانت تجري بين سوريا ومصر من جهة، وإفريقية الشمالية، وإسبانيا وصقلية من جهة أخرى. وكانت هذه التجارة فوق ذلك تصل إلة اليونان وإيطاليا وفرنسا.

ولم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه يحتقر فوائد التجارة النزيهة الأمينة. ويروى أنه عندما كان يحكم المدينة، كان يشترى جملة، ويبيع مجزأ، ويكتفي بأقل ربح، وكانت لغته غنية باستعاراتها التجارية، وكان يتوعد بالنار التجار المخادعين، وكان يندد بالذين كانوا يحتكرون ويضاربون على الحبوب لكي يبيعوها مرة ثانية بأغلى سعر، وذهب حتى إلى تحريم السلفة بالربا[١]. ولم يملك العرب، نتيجة ترسم مثله السامية، تجاه التجارة، امتيازات الطبقة الأرستقراطية الأوروبية في العصر الوسيط. ولما نظموا الدول، وحطموا حواجز الحدود، كانوا يعرفون أن أمثل الطرق لتيسير الاتفاقيات تنحصر في تعميم لغة موحدة تصبح اللغة التجارية بلا منازع. ومنذ ذلك الوقت، شوهد تطور تلقائي وسريع للمدن والقرى تحت تأثير البيع والشراء والحركة التجارية، وانتعشت المعارض، وجماهير الباعة والمشترين، والأسواق ودوت بحياة جديدة وسط ضجيج المفاوضات التجارية ومساوماتها[٢]. وهكذا انتظمت صلات قوية وإنسانية أصبحت تقليدية في مجتمع مزدهر، ولم يشك أحد في ازدهار ثمرة هذه الصلات التي لم يقدر للغرب أن يعرفها إلا بعد ذلك بستمائة سنة أو سبعمائة.

القوافل:

كانت هناك طرق كثيرة تربط المدن الكبيرة، وكانت قوافل الجمال تسير في السهول وفي سهوب الصحراء، وقوافل البغال القوية الصبور في البلاد الجبلية

---

(١) هذا التحريم راجع إلى نص القرآن.

(المترجم)

(٢) ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى في خلقه التجاري، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره [عن قصة الحضارة -عصر الإيمان- تأليف ول ديورانت- ترجمة محمد بدران ص١٤١]. (المترجم)

الوعرة تجوب بانتظام هذه الطرق. وهكذا نقلت البضائع من كل نوع في (طرود)، وسلال، وأقفاص، وقرب، وعلب، وأواني مختلفة الأنواع.

كان ما يقرب من خمسة آلاف جمل تجوس في جميع الجهات طرق العالم الإسلامي ومواطئه. وقد أنشأت وكالات ماهرة على طول هذه الطرق فنادق قروية، ومبرات، وأحواضًا للمياه، وفي المناطق الصحراوية خانات رحبة وكثيرة حيث تستطيع الدواب وقوادها أن ينعموا براحاتهم ويتناولوا طعامهم. وكانت هذه المنشئات تستخدم كذلك ملجأ وملاذًا في أثناء العواصف الرملية التي قد تبلغ من شدتها أن تدفن قوافل بعدتها وعديدها. ففي صحراء الفرس الوسطى، أقيمت صهاريج عدة على حافة محطات القوافل والطرق، وفي كل مكان، كانت هناك إشارات تدل المسافرين وتوضح معالم الطريق، وفي البلاد الجبلية كانت قناطر مقامة بعناية تجتاز مجاري المياه، وكانت قنطرة كروم في منطقة سوسا يبلغ طولها كيلو مترا، وكانت بها اثنتان وسبعون فتحة ولا تزال معظم هذه المنشئات باقية على الرغم من أن طريق الحرير قد فقد كثيرًا من قيمته.

الموانئ:

صرفت الشواطئ المنعزلة، والتي تقوم بأعمال عدوانية من الخليج الفارسي، أنظار الجغرافيين عن كل نشاط بحري في هذه الناطق، بيد أن ميناء توج كان مشهورًا في عصر الإسكيذيين، وحتى القرن السادس الذي قضت فيه ميناء سيراف على شهرتها وعرفي هذا الميناء الأخير نشاطًا قويًا في مدة تزيد على الخمسمائة عام وسلبتها جزيرة كيش التي في مواجهة سيراف تفوقها أثناء القرن الحادي عشر. وفي زمن الفتح العربي، كانت سيراف تملك من قبل أسطولا تجاريًا هامًا، وملاحين، وتجارًا حاذقين، وتوكيلات تجارية لجزيرة بميا في إفريقية، وكبلون على شاطئ مالا بار، وكوا في شبه جزيرة ملقا، وكانتون في الصين. وزاد بشكل ملحوظ التقدم المطبوع بطابع الإسلام، والرخاء الذي نتجت عنه حركة البيع والشراء في هذا

الميناء الكبير. وكان هذا الميناء يتبادل –وحده– أعمالا كبيرة مع جميع هذه البلاد، ومن ثم كان سكانها غاية في الثراء. وكان تقدير الثروات مرتفعًا جدًا، حتى لم تعد الثروة التي لا تتجاوز الخمسمائة مليون من الفرنكات بذات شأن، وكانت الاعتمادات المالية لتجار سيراف ضخمة جدًا وسنداتهم متداولة في كل مكان. لكن المدينة دمرت في نهاية القرن العاشر (٩٧٨) نتيجة هزات أرضية مما دفع سكانها إلى الاستقرار في جزيرة كيش على صخرة واقعة في مواجهة المدينة القديمة. وسرعان ما أصبحت كيش ميناء ذا مكانة مكينة، ونوعًا من جمهورية تجارية برؤساء جمهوريتها (ملوك) على غرار جمهوريتي البندقية وجنوا. لكن كيش كان ينافسها ميناء آخر –منظم أشد التنظيم وجاد كما أن لها مديرين أيضًا– تلك هي جمهورية عدن. وكان الأسطولان البحريان يتنافسان على الأسواق حتى في الصين، وعاشا في خلاف دائم، وما زالا كذلك حتى كان أول القرن الحادي عشر انقسمت المياه الإسلامية فيما بينهما قسمين متضادين ومتنافسين، فريق الخليج الفارسي، وفريق البحر الأحمر، كما انقسم العالم الإسلامي نفسه إلى إمبراطوريتين متنافستين: إمبراطورية بغداد وإمبراطورية القاهرة.

الملاحة البحرية:

كان الذهاب من الجزيرة العربية إلى الهند يقتضي من الملاحين العرب قرابة شهر وزهاء شهر آخر لكي يستطيعوا التوجه إلى شبه جزيرة ملقا، وشهرين للطواف حول شواطئ الصين، وكانت رحلة العودة تتطلب هذا الوقت نفسه تقريبًا، ولكن كلن عليهم أن ينتظروا الرياح الموسمية.

كانت السفن المشيدة عادة في الهند من نوعين: سفن سريعة وخفيفة مخصصة لنقل الركاب وحدهم وسفن ضخمة (جنك) مخصصة لنقل البضائع، وقد كانت هذه السفن قادرة على نقل عدد كبير من الركاب. وعندما جهزت هذه السفن (منذ القرن الثاني عشر) بأسطرولايات ومجسات، ومصابيح بحرية للإشارة،

وأطلس يوضح تيارات المياه والمد والجزر، وخيط من الرصاص يحدد أعماق المياه، أصبحت معدة بكل شيء لمواجهة أخطار أعلى البحار. وكانت أشرعتها الممتدة والمحكمة إحكامًا شديدًا تهيئ لها سرعة خاصة، وكانت تصفها في موقف يجعلها قادرة على الدفاع عن نفسها ضد القراصنة الذين كانوا ينهبون الشواطئ والذين كان مأواهم الأصلي جزيرة سوقطرة، عند منفذ خليج عدن. كان ذلك هو الأسطول التجاري الذي أضيفت له مراكب صغيرة الحجم لا تغوص كثيرًا في المياه وتستخدم بخاصة على الشاطئ الشرقي لإفريقية.

كانت الملاحة منظمة تنظيمًا دقيقًا. وكان جدول التقويم يحدد كل عام ولكل ميناء اتجاه الرياح، والرياح الموسمية. وكانت المنارات المضاءة بوساطة مصباح بالبترول يصونه زجاج ويحيط به كوخ، قد شيدت بأعداد كبيرة. وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها، كان بحارة المحيط الهندي لا يحسبون بالدرجات وبالدقائق مثل الكلدانيين، بل اعتادوا أن يقيسوا المسافات بالقصبة، وبالأصابع والعقد.

الملاحة النهرية:

لا يوجد كثير من مجاري المياه في العالم الإسلامي الشاسع وقليل جدًا من هذه المجاري صالح للملاحة ففي الشرق، ينبع نهر السند ونهر الأوكسوس من جبال بامير، لكنها يجريان في اتجاهين متعارضين، ونهر الأكسوس الذي كان يصب قديمًا في بحر قزوين، ينتهي الآن إلى بحر الأورال ويطلق عليه اموداريا. وإذا اتجه المرء نحو الغرب، على طول أربعة آلاف كيلو متر فإنه لا يجد غير نهر دجلة ونهر الفرات اللذين ينبعان من الشمال، ويصبان في الخليج الفارسي، وعلى بعد أكثر يوجد النيل الذي ينبع من الجنوب ويصب في البحر المتوسط، وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة هي أكثر الأنهار عائدة.

ونهر الفرات الذي كان موازيًا في وقت من الأوقات لشاطئ البحر المتوسط والذي يبعد عنه بمائتين من الكيلو مترات فقط يجري بالقرب من المدن الكبيرة

السورية: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق. وكان بوسع القوافل التي كانت تنطلق من هذه المدن، أن تلتقي بالنهر في مسكن التي يكون النهر عندها صالحًا للملاحة. ثم تسير هذه القوافل بعد ذلك بالطريق النهري حتى تصل بغداد على نهر دجلة باستخدام قناة عيسى التي كانت تربط النهرين. وبسبب عدم الصيانة يجري نهر الفرات الآن في مستنقعات. ولم تعد هناك مدن كان لها كيانها قديمًا مثل الرقة –التي كانت مدينة ملكية– بل كل ما هناك تجمعات في كومات من الرمال. وكانت أخشاب البناء والتدفئة تنقل من أرمينية إلى بلاد ما بين النهرين والعراق في نهر الفرات على سفن طولها عشرة أمتار.

وفي الحياة الاقتصادية للخلافة، كانت الشبكة الملاحية ذات مكانة بالغة. وكانت هناك سفن كثيرة تشق الطرق المائية، وكانت السفن الشراعية الآتية من الصين تلتقي في هذه الطرق المائية بجلود الخراف المنتفخة بالهواء التي كانت تعبر نهر دجلة محملة بالخضر والفواكه المجلوبة من أرمينية. وكانت الزوارق الطويلة السريعة التابعة لإدارة الخلافة تمرق بين الصنادل الثقيلة المحملة بالبضائع، والقوارب المحملة بالركاب. وفي بغداد كانت ثلاث قناطر من المراكب تعبر النهر الذي يبلغ عرضه مائتين وخمسين مترًا. وكانت الحركة التجارية فيه نشيطة جدًا تتلامس فيه الصنادل بعضها ببعض حتى يكاد النهر يغطى بها. بيد أن أقصى حد وصل إليه نشاط الحركة التجارية هذه كان في مقاطعة البصرة التي كانت تجري فيها أكثر من مائة ألف قناة أو طريق مائي عبر أشجار النخيل والغاب، ويقدر بما يقارب ثلاثين ألف مركب كانت تغطى الشبكة النهرية في عصر العباسيين.

الخدمة البريدية:

كان البريد في يد الحكومة في بداية الخلافة ثم أصبح تحت تصرف الشعب في الأزمنة التالية. وكانت رسائل البريد تشحن عن طريق السفن البريدية، أو بالإبل المهرية أو بالبغال تبعًا للبلاد، وكانت الرسائل (البرقية) ترسل بوساطة حمام الزاجل

أو بوساطة إشارات مضيئة. وقد أقيمت محطات على حدود الإمبراطوريتين الصينية والبيزنطية ضمنت سرعة وصول رسائل البريد أكثر مما نظن بين أوروبا والصين.

ويقال إن الرسائل البريدية بين بغداد والمدن الكبيرة، المحيطة بها، مثل الموصل، والبصرة، والكوفة، كان وصولها يتم ذهابًا وإيابًا في أربع وعشرين ساعة، على الرغم من أن هذه المدن المختلفة كانت بعيدة عن العاصمة بما يقرب من ثلثمائة كيلو متر إلى خمسمائة. وفي الأنهار الكبيرة، كانت سفن البريد تحمل كذلك مسافرين وتقطع مائة وثمانين كيلو مترًا في النهار. وكان البرق (التلغراف) ذو الإشارات الضوئية يمارس بخاصة في غرب الإمبراطورية، حتى يمكن إرسال أية رسالة (تلغرافية) من بلاد مراكش إلى مصر في ليلة واحدة، وهما على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر. وكان نقل البريد بحمام الزاجل شديد الانتظام، وكانت هذه الخدمة البريدية تنتهي عند أبراج الحمام الذي كان يقبل عليها من جميع أنحاء الإمبراطورية. وكانت نفقات النقل تدفع عند الوصول، وهي واجبة الأداء لأنها كانت تشكل في تلك الأثناء دخلا منتظمًا للدولة. وكانت إدارة البريد مثل الأفراد تستخدم أختامًا من الشمع، وكان لزامًا على الحفارين أن يسجلوا جميع الأختام التي كانوا يصنعونها. وكان الحكام يتصلون بالعاصمة عن طريق الرموز (التغلرافية).

تجارة المال:

احتكر الأجانب تجارة المال في العصور القديمة في بلاد المشرق، فهي في يد الهنود في الشرق، واليونانيين في الوسط وكان ينافسهم بعض الفرس والفينيقيين. ثم انتقلت في عصر الإسلام إلى أيدي اليهود.

وجدت منذ وقت بعيد جالية من أصحاب البنوك والتجار اليهود في أصبهان، وكان أصحاب البنوك في بغداد يقرضون أموالهم حتى للوزراء. وكان اليهود في الشمال والشرق قد أثروا كثيرًا عن طريق التجارة بالجملة فأصبحوا أصحاب رءوس

أموال أو جباة ضرائب[١]. وفي الغرب كانوا يشرفون على صيادي المرجان من البحر الأحمر، واقتسموا احتكار هذه التجارة مع المسيحيين. وفي نهاية القرن العاشر، أتاحت لهم سيطرتهم على المال أن يصلوا حتى إلى منصب الوزارة، وحدث ذلك في وقت واحد في إسبانيا وفي مصر. لكن الفرس الذين صودرت إقطاعياتهم عقب الفتح العربي، نزلوا إلى هذا الميدان بشيء من الخوف في أول الأمر. ومنذ أوائل القرن الحادي عشر، كانت البصرة وهي أكبر مركز مصر في للخلافة تضم عددًا معينًا من البارسيين الذين انتشروا بعد ذلك في سوريا ومصر.

وفي منتصف القرن الثالث عشر، لجأ أصحاب (مصارف) الشرق الأوسط في أثناء هربهم من الغزو المغولي، مع رءوس أموالهم، إلى دلهي التي استعمرها المسلمون منذ وقت طويل. وهذه المدينة أصبحت حي المال، وكأنها «وول ستريت» لذلك العصر. كانت وحدة الثروة في الشرق الأوسط هي القطعة الفضية (الدوهم)[٢] حتى القرن التاسع، ثم بعد ذلك أصبحت الثروة تقدر بقطع ذهبية (الدينار)[٣]. وفي وادي النيل، بلد الفلاحين واليد العاملة النموذجية، كان أغلب التعامل بقطع ذهبية، وكانت ثروته أكبر الثروات. وفي الشمال الشرقي من تركستان، لم تكن توجد غير (عملات) من النحاس. ومن هناك اندفع على الدوام الغزاة يحركهم الفقر نحو البلاد الغنية، وقد ساد الدينار المصري وفي قول آخر المغربي –وهو بمثابة «الدولار في هذا العصر» – على العالم الإسلامي بسبب عياره من الذهب. وكانت قيمته نظريًا تعادل ثلاثة عشر درهما، لكن العملة الفضية حين انخفضت قيمتها ارتفع سعر الدينار كل عام حتى لقد أضرب حرس الخليفة في عام

---

(١) هم رجال المال الذين كانوا ملتزمين بجباية جميع الضرائب. (المترجم)

(٢) كلمة درهم مشتقة من كلمة درخمة اليونانية، وكان الدرهم يحتوي على ثلاثة وأربعين جرامًا من الفضة. (المترجم)

(٣) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الروماني ديناريوس، وكان يحتوى على ٥٦ جرامًا من الذهب. (المترجم)

١٠٠٠ مطالبين بزيادة رواتبهم. وكانت أسعار العملة في ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام في موسم الحج. وأخيرًا، عندما كانت الحكومة تحاول التخلص من الأزمات المالية، كان بيت المال يوازن الميزانية بالتلاعب في عيار الذهب. حقًا، لا جديد تحت الشمس.

كان إقبال رءوس الأموال على دلهي يرفع الذهب الهندوستاني المسمى «تنكا» والذي كان يقرب من الدينار المغربي، وأدى هذا الارتفاع إلى زيادة انهيار الثقة التي بسببها سقطت الحكومات الإسلامية بعد الغزو المغولي. لكن عندما انتصر السلطان المملوكي الأشرف على الفرنجة والمغول في نهاية القرن الثاني عشر، استقر الدينار المصري في الشرق كله وأصبح يسمى «الأشرفى».

(١٢) بغداد وبلاط الخلفاء

المدينة المستديرة:

حكم في سنة ٧٥٠ أبو العباس أول خليفة عباسي إمبراطورية كانت تمتد من نهر السند حتى المحيط الأطلسي. ولما كان الذين ساعدوه لتولي الحكم من أصل فارسي، فقد أخذ كل ما هو فارسي من ألقاب، وشراب، ونساء، وألحان، وأفكار، وأساليب، تنفذ إلى البلاط العباسي. وأخذ تأثير هذه الأمور يخفف من جفاء العربي، ويمهد الطريق لعصر جديد من الثقافة. ومن جهة أخرى عرض الوضع الجغرافي للعاصمة الجديدة هذه الثقافة إلى تيارات آتية من الشرق. وراحت فارس تغزو بالفكر الذين كانوا قد قهروها بالقوة قبل مائة عام. غير أن العرب لم يقبلوا الردة في أمرين جوهريين: هما الدين واللغة.

ولما توفى أبو العباس سنة ١٥٤، خلفه المنصور وقد بلغ الأربعين من العمر. كان طويل القامة، نحيل البلية، صارم الخلق، شديد الحذق، قليل الشكوك، مثقفًا، محبًا للفنون والآداب أكثر من حبه للنساء أو النبيذ، وقد أعاد تنظيم الحكومة، والإدارة، والجيش، وأعاد كل ما أخذه أو حصل عليه المستغلون بطرق غير مشروعة، وأدار الشئون المالية باتزان وحكمة، وجعل على رأس الوزارة خالدا البرمكي، من أسرة البرامكة المشهورة، وأنشأ بغداد التي سيبقى اسمها في التاريخ أسطورة الزمان.

كانت بغداد مدينة قديمة بابلية على الشاطئ الغربي من نهر دجلة، تخلو من البعوض الذي كان ينتشر في البصرة والكوفة، وهي على مسافة طيبة من هاتين المدينتين حيث أخذت تتجمع الطبقة العاملة. وكان الخليفة نفسه يقول: «إنها موقع عظيم لمعسكر حربي» وكان يرى فيها بدون شك موقعًا استراتيجيًا عظيمًا، في مأمن من جهة البر، وعلى اتصال مع ذلك بدجلة والفرات، وقنواتهما، وعلى اتصال

كذلك بالمدن الكبيرة، والأقاليم الخصبة الداخلية من جهة، ومن جهة أخرى بالخليج الفارسي وسائر موانئ العالم. وكان هذا الموقع العجيب سببًا في الرخاء المباشر لبغداد. وكانت المدينة محاطة بسور دائري تحميها حصون مزدوجة، وخنادق عميقة. وهناك سور ثالث كان يحمي مدخل الأحياء المركزية. وكانت حوائط السور مفتوحة بأربعة أبواب مذهبة تفضي إلى الجهات الأربع من الإمبراطورية. وفي الوسط شيد قصر الأمراء (حكام الولايات). وحول المدينة المقسمة كأنها ميناء ساعة، اثنا عشر قصرًا كان يسكنها رؤساء الإدارات الكبرى وكانت كل هذه المجموعة تحيط بقصر الخليفة بحسب تخطيط ذي مركز واحد خططه مهندس معماري فلكي أراد أن يمثل الصورة المعروفة عندهم للسماء.

القصور:

شيد المنصور خارج الأسوار وعلى نفس الشاطئ مسكنًا صيفيًا أحبه هارون الرشيد حبًا جمًا، لأنه أمضى فيه الشطر الأعظم من حياته، ومن نوافذه كان يستطيع أن يشاهد السفن والصنادل التي تفرغ البضائع القادمة من جميع موانئ العالم المشهورة على أرصفة نهر دجلة. وبنى المنصور في مواجهة دجلة على الشاطئ الفارسي، قصرًا لولده المهدي. وحول هذا القصر قامت مدينة، لم تلبث أن فاقت المدينة المستديرة، لكن المدينتين ظلتا مرتبطتين بجسرين من السفن.

ومن العسير أن نستعيد بكلمات ذكرى روعة القصر الملكي وترف الخلفاء، بل إن أبهة القصور الفارسية والبيزنطية وبذخها أضعف من أن تعطى فكرة صحيحة عن ترف قصور الخلفاء العباسيين. وربما تحدثت الأرقام على الرغم من جفافها – عن هذا الترف على وجه أحسن. فنقلا عن المؤرخ أبى الفداء، كان قصر الخليفة مفروشًا باثنين وعشرين ألف بساط على الأرض، وبثمان وثلاثين ألف بساط على الحوائط، منها ألف وخمسمائة من الحرير المطرز بالذهب. وكانت قاعة العرش ذات تأثير في النفس وبخاصة بسترها ومساندها المنتقاة من بين أجمل صناعة

فارسية. وكانت زبيدة الجميلة زوجة هارون الرشيد تنتعل حذاء مزينًا بالأحجار الكريمة، ولا تحب– شأنها في ذلك شأن زوجات العظماء في جميع العصور –إلا الآنية المذهبة أو الفضية والأشياء الثمينة المرصعة بالماس والأحجار الكريمة. وقد بلغ هذا الميل للأبهة إلى درجة أنه كانت تغطى في الحدائق جذوع أشجار النخيل التي لا حصر لها بطبقة من خشب «التك» المذهب.

الثروات:

كان زواج المأمون من ابنة وزيره في سنة ٨٢٥ فرصة للأفراط في تبديد الثروات. «ففي الاحتفال بالزواج: أفرغ ألف لؤلؤة ذات حجم منقطع النظير من طبق ذهبي على رأس الزوجين اللذين كانا واقفين على حصيرة ذهبية مزينة كلها باللؤلؤ والياقوت. وكانت هناك شمعة من العنبر الداكن تزن قرابة مائة كيلو جرام تحول الليل نهارًا.

وأمر المقتدر فيما بعد بإنشاء «قصر الثريا» الذي يمكن أن يتصور اتساعه بتسعة آلاف من الجياد، والبغال، والإبل التي كانت ترقد في إسطبلاته. وبنى المقتفي بالقرب من هذا القصر في سنة ٩٠٢ قصر التاج الذي كان يشغل بحدائقه وأبراجه عشرين كيلو مترًا مربعًا. وفي سنة ٩١٧ أقام المقتفي، بدوره «قصر الشجرة» وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان قد أقيم في هذا المكان شجرة صناعية بها ثمانية عشر فرعًا من الذهب والفضة. وكانت تقف على الأغصان وكذلك على الأوراق المغطاة بطلاء مذهب طيور ميكانيكية مصنوعة من نفس المعادن الثمينة. وكانت الأغصان تتراقص، والأوراق تهتز، والطيور تبدأ تغرد إذا ما داعبت هذه الشجرة نسمة خفيفة، وكان سفراء بيزنطة –في أثناء استقبال المقتدي لهم بأبهة كبيرة، يأخذهم الجب من منظر قصر بغداد بأروقته المرمرية وزخرفته الفائقة كل تصور، وأثاثه الرائع وكم كان عجبهم عظيمًا عندما كانوا يشهدون سروج جياد الإمبراطورية من الذهب أو الفضة وأغطيتها من خيوط من الحرير أو الذهب

أو الفضة، وبالقوارب الملكية وهي قصور تمخر عباب دجلة- واستعراض الجيش المؤلف من ستة عشر ألف جندي مترجلين وعلى صهوة الجياد في ملابس رسمية متلألئة، ومن خلفهم سبعة آلاف حصى أبيض أو أسود، وسبعمائة من حراس القصر، ومائة أسد مع مروضيها.

هارون الرشيد:

سيظل هارون الرشيد إلى الأبد (٧٨٦- ٨٠٩) من بين جميع الملوك العظام النموذج لخليفة أسطوري في تقاليد المجتمع الإسلامي وتصفه قصص العصر على أنه ملك مرح مثقف، ومستبد وعنيف على حسب الظروف، لكنه إنساني إلى أبعد الحدود الإنسانية. ويحكي المؤرخون أنه كان دائمًا تقيًا متمسكا بالدين، يؤدي فريضة الحج في مكة مرة كل سنتين، يطيل السجود في أثناء الصلوات التي يؤديها كل يوم.

كان الرشيد جليسًا مرحًا، ذواقة للطعام، وقد بلغ عدد زوجاته سبعًا، واتخذ مائتين من الجواري، وأنجب أثني عشر ولدًا، وسبع عشرة بنتًا، كلهم من أبناء الجواري، ما عدا الأمين الذي أنجبته له زبيدة. وكان المال يتدفق من بين يديه فأغدق على الشعراء ومنحهم منحًا جزيلة تفوق كل وصف. فقد منح «مروان» (ابن أبى حفصة) في قصيدة مدح واحدة قصيرة خمسمائة ألف قطعة من الذهب، وخلعة سنية، وستة أرقاء صغار يونانيين، وجوادًا من جياده المفضلة. وكان كرمه الفائق يجذب ذوي الكفايات والمواهب تجاه العاصمة كأنه قوة جاذبية لا يمكن دفعها. ولذا كان يتجمع حوله «مجلس لا يباري» من الشعراء، والفقهاء، والأطباء، والنحاة، والأدباء، والموسيقيين، والمتفننين. وذوي العقول الراجحة، وكان على دراية بتقييم آثارهم وأعمالهم بروح الأنصاف وكان يكافئهم بسخاء. وكان هو نفسه شاعرًا، وعالماً متبحرًا، وخطيبًا بليغًا مفوهًا. ولم ينتظم أي بلاط في التاريخ كله جماعة متألقة من رجال الفكر مثل هذه الجماعة.

اختص الرشيد بندماء ذوي مواهب منقطعة النظير لا تزال شهرة بعضهم باقية حتى اليوم وقد ورثوا جميعًا البديهة الحاضرة، والذاكرة الواعية، والمواهب المتنوعة، وكانوا في الوقت نفسه مغنين ومؤلفين، وشعراء، وعلماء متبحرين، وذات مساء عندما كان مخارق يغنى في زورق على نهر دجلة، شوهدت من جميع الجهات، وفي الشوارع، وعلى المياه مشاعل مضيئة وقد أخذت في التحرك في اتجاهه، وفي سنى الليل، كان كل فرد متعطتبأ لسماعه عن قرب قريب.

كان الشاعر الماجن أبو نواس أحد أصفياء هارون الرشيد ونديمه المرح. وكان يثيره دائمًا فجوره ومباذله، لكن أبا نواس كان يتخلص ببراعة من كل ورطة يقع فيها، وربما استعطفه بأبيات من الشعر الجميل. وقد وصف أبو نواس بطريقة واضحة كل الوضوح في «ديوانه» الشعري الحياة الخرافية والجميلة لهذا البلاط الذي كان يجمع بين اللذة والمجد. وها هو ذا أبو نواس يروى قصة احتفال مشهود قاد في أمنائه الأمين نفسه طيلة ليلة كاملة –رقصًا تمثيليًا منقطع النظير شارك فيه عدد لا يحصى من القيان الجميلات. وغنين فيه حتى الفجر على لحن فرقة موسيقية، على حين كان المتفرجون يشاركونهم في فرحتهم. والأمين نفسه هو الذي أمر بتشييد قوارب فاخرة من أجل هواياته في التجديف على نهر دجلة تمثل حيوانات: على هيئة الدلافين، والأسود أو النسور وقد تكلف كل قارب من هذه القوارب بضعة ملايين من الدراهم.

وتوجد كذلك أمثلة أخرى على هذا البذخ الذي لا ينسى من حياة الحلفاء في بغداد. وروى أن إبراهيم المهدي أولم لأخيه هارون وليمة، فقد طبقًا يتكون من السنة الأسماك شديدة الرقة والصغر إلى درجة لا توازن؛ ويحدد صانع هذا الطبق عدد الأسماك التي استخدمها وقيمة هذا الطبق، ومن الخير لنا أن ننساه حتى لا تجهد ذاكرتنا بما يمكن تصوره من هذه الخدمات الفائقة في إعداد مثل هذا الطبق

الفريد في نوعه[1]. كان الخلفاء مشبعين بالرقة، والشعر، وألوان من الموسيقى، والعطور العبقة، والحلى من اللؤلؤ، والأحجار الكريمة، ولعله من المستحسن أن نترك هذه الأبهة المفرطة لنرى كيف كان الناس يعيشون خارج البلاط.

المجتمع:

لم يكن مثل هذا الترف ممكنًا لو لم يكن سكان الإمبراطورية الإسلامية قد أفاضوا بنشاط زراعي، وتجاري، وصناعي. فقد كان الرخاء يعم وديان نهر دجلة، والفرات، والنيل، ومدرجات إيران وسورية، وكذلك المصانع الصغيرة في المدن الكبيرة وأطورة (أرصفة) الموانئ.

ومن كل جهة، كان الصناع والتجار يسعون إلى خلق المنتجات النادرة وصنعها وكشفها مما كانت تتطلبه عظمة بلاط الخليفة وترفه. وابتداء من المباني الملكية على ضفاف نهر دجلة خططت شوارع ضيقة ومتعرجة للوقاية من الشمس، محفوفة على جانبيها بمحال تجارية كبيرة صاخبة، وتنتهي إلى الحي الذي كانت الطبقة الميسورة قد أقامت فيه مساكنها. وفي المدينة، وفي ضواحيها، وعلى امتداد كثير من الكيلو مترات، كانت ترتفع منازل متواضعة وبسيطة في مظهرها الخارجي، لكنها موشاة بالذهب والفضة في الداخل. وفي الريف المجاور، كان الأثرياء من بين رعايا الخلفاء يملكون منازل (فيلات) فاخرة، مشيدة وسط حدائق تشبه البساتين. ولم تكن هذه الحدائق إلا حمامات ونافورات، وجداول، وشلالات من المياه الصافية، وأزهارًا، وفواكه، وغابات صغيرة ظليلة، كانت هذه البيوت على غرار ما وصفه فيما بعد فوكيه **Fouquet** أمين شئون لويس الرابع عشر. ويحكى أن جعفر الوزير، البرمكي، كان قد نشر هذه الطريقة، وابتنى لنفسه منزلا فاخرًا جدًا استرعى الأنظار، وأثار على الفور الحسد، ولكي يخمد غضب الحاقدين، تظاهر بتقديمه إلى

---

[1] لا شك أن هذه إحدى المبالغات التي يلجأ إليها المؤلف في أكثر من موضع في هذا الكتاب. (المترجم)

الخليفة، ثم حاول أن يبقى فيه، لكن قيل إن مصيره قد انتهى إلى أفظع مأساة.

قد لا يكون من لغة الكلام أن تقدم هنا الأسباب لنكبة منطقة النظير، لأنها تبدو انعكاسًا لأخلاق بلاط الخلفاء، وكان هارون يحب جعفرًا حبًا جمًا. وقد جاء في أحد توقيعاته ما يشير إلى هذا الحب. وهذا التوقيع أصدق من أية وثيقة أخرى «أربعمائة ألف قطعة من الذهب ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير» مثل هذه المنة وغيرها من المنن الأخرى الكثيرة، مما كان يبعث على التشنيع والمكيدة، لم يقدر لها أن تستمر طويلا. وفي ذات يوم أغضب جعفر الخليفة لسماحه لمتمرد بالهرب كان هارون قد أعطى الأمر بإعدامه. وكان أن فقد المحبوب حظوته. على الرغم من أن أخت هارون العباسة كانت تشغف حبًا بجعفر، وقد أضيفت إلى التهم التي كان الخليفة قد جمعها ضده تهمة أخرى هي أنه كان فارسيًا. واعتمادًا على تلك الحجج لم يوافق الخليفة، وهو العرب، الغيور، على تزويج أخته إلا على شرط عدم رؤية الزوجين كل منهما الآخر إلا في حضوره. وأي شرط هذا، واأسفاه، إنه شرط من الصعب احترامه، وجعفر والعباسة اللذان كانا يداومان على اللقاء خفية، قد أنجبا بعد قليل طفلين، وربيا في خفية أشد. وعندما علم هارون بهذا الخبر، استولى عليه الغضب، فنفذ حكم الإعدام في أخته، وأطلح برأس جعفر، ثم عندما تيقن من تنفيذ حكم الإعدام في الاثنين، طلب أن يرى الطفلين، وتحدث إليهما طويلا، ولا طفهما، ثم أمر بخنقهما[1]. وانتهى الأمر بوالد جعفر الوزير يحيى الذي كان وزيرًا كبيرًا، وأخيه الموظف الكبير –انتهى الأمر بهما إلى السجن، وصودرت أموالهما الضخمة.

بحث المؤرخون عن أسباب أكثر عمقًا لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة. فيرى ابن خلدون في هذه النهاية أن «السبب الحقيقي» يرجع إلى: «وإنما نكب

([1]) قصة ظاهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد، ولم نجد لحادث خنق الطفلين ظلا من الحقيقة في كتب المؤرخين المعتمدة.

(المترجم)

البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه». وربما لم يحتمل الخليفة أن يشاهد إلى جانبه سلطانا كبيرا مثل سلطانه، وبلاطًا آخر غير بلاطه. والحق أن الوزراء الذين فقدوا كل اتزان، كانوا ينافسون القصر، ويسابقونه في البذخ، وقد حوطوا أنفسهم بشعراء، وبمهرجين، وبفلاسفة، فكان لا يمكن هذا الوضع أن يدوم.

لم تكن الحياة إذن في بغداد خالية دائمًا من الهموم والدسائس والمآسي، لكن المجتمع الراقي كان يتناساها بسرعة في الترف والملاذ، وفي الصيد، وفي سياق الخيل، والبولو، وقذف الرمح، ورمي القوس والمبارزة بالسيف، واللعب بالكرة، والمطارق الخشبية، كما يتناساها أيضًا في المطاعم الريفية على صفاف نهر دجلة التي كانت الطبقة الراقية فيها تتذاوق الفراخ المسمنة مع بعض الجوز الطازج، وهناك أيضًا، كانت تمد الولائم باللوز وباللبن، وبالمكسرات اللذيذة، وبالأشربة المعطرة مع مستخرجات البنفسج؛ والورد، أو توت العليق وبعرق البلح، وبالنبيذ، هذا الشراب المفيد الذي سمح بتناوله منذ أن أفتى الإمام أبو حنيفة بشربه[1]. وكان هناك احتفال يزكى بخاصة تناول هذا الشراب، هذا الاحتفال هو الاحتفال الأول بيوم الثلاثاء السابق للصوم الكبير عند المسيحيين. وبمناسبة هذا الاحتفال، كان الرجال المتنكرون في ملابس سيدات.

والنساء المتنكرات في ملابس رجال، تحت وجه مستعار يستطيعون أن يرقصوا ويضحكوا دون حذر، ولكن أصل الرقص التنكري لا يرجع تاريخه إلى هذا الرقص المقام في الاحتفال بليلة الثلاثاء السابق للصوم الكبير، بل الحقيقة، أنه هذا الرقص المتنكر كان جزءًا من منهاج معظم الاجتماعات العلة التي كانت تنطوي كذلك على روايات تمثيلية بالحركة فقط، وأشباح غريبة تعرض بوساطة الفانوس

---

(1) يغلب على الظن أن المؤلف لم يتعمق رأى «أبى حنيفة» بصدد تحريم الخمر، وقد جاءت السنة متواترة أن النبي عليه السلام حرم الخمر وعليه انعقد الإجماع، ولأن قليله يدعو إلى كثيره ويوجب الحد. (المترجم)

السحري. ولكي يذهب الرجال والنساء إلى هذه الحفلات المسائية كانوا «يتحلون بالجواهر، ويرتدون ملابس فاخرة وملونة من نسيج مطرز بالحرير والذهب» وكانوا يتعطرون بالعنبر الداكن وبالبخور. وكان نساء المجتمع لا يشتركن في مجتمعات الرجال، وكانت تحل محلهن جوار أنيقات تفوق موهبتهن الفنية ق الرقص وجمالهن الفتان كل تقدير.

وبخلاف الأعياد والحفلات المسائية الراقصة كانت النخبة من الرجال ينظمون مجتمعات شعرية، ومجالس فلسفية كان المرء فيها يجادل عن علم وبصدر رحب. وكانوا يجتمعون أيضًا على الملأ لتلاوة القرآن وتفسيره. ولقد كان هذه العصر المرح حقًا لا يخلو من متع أكثر سموًا فكان يفاخر بالمذهب الصقلي: وكانت المدارس الفكرية لا حصر لها وكانت الفنون والعلوم تشجع عن حكمة، وكان الجو كله يموج بالشعر، وبالمتعة الكاملة في الفهم، وكانت حياة بغداد تنطوي على شيء من التسامي. وفي زمن الرشيد، لم تكن المدينة قد بلغت بعد من العمر خمسين عامًا، لكنها اعتبرت مركزًا عالميًا في الدرجة الأولى من القدر، وكأنها مكان مقدس للفكر. وإذا كانت عظمتها قد نمت في عصر الإمبراطورية، فإنها أصبحت بسرعة المنافسة لبيزنطة، وتبعًا لبعض التقديرات، كان يبلغ تعدادها في القرن الحادي عشر مليونًا ونصف المليون من السكان الذكور، على فرض أن التقدير الإحصائي لا تذكر فيه المساء، ويتيح هذا الرقم تقدير عدد السكان الكلي في بغداد بثلاثة ملايين من السكان. ومن المؤكد أنه كان يوجد في ذلك الزمان في قلب المدينة ستة آلاف حمام، وثلاثون ألف زورق، وسبعة وعشرون ألف مسجد. وينبغي ألا ندهش من هذه الأرقام الأخيرة. وفي بداية الإسلام، كانت تطلق كلمة «جامع» على كل مكان لاجتماع أمين، وقد يكون هذا الجامع مدرسة أو ناديًا أو حتى سوقا، أما الحمامات، فلم تكن فقط أمكنة للطهارة، بل كانت كذلك أمكنة للهو والترف.

جميع الأديان كانت ممثلة في هذه المدينة. وكان المسيحيون يملكون تحت تصرفهم عددا لا يحصى من الأديرة. وكانت الطائفة اليهودية لها محكمتها الخاصة

وسجنها. وكان بعض الوزراء مسيحيين، أو فرسًا أو يهودًا، وفي قصيدة هجائية تجاه أخلاق «آخر الزمان» يؤكد ابن المعتز أنه في سنة ٨٩٠ أخذ «الذميون» في الطواف على صهوة الجياد، وكنا نسمع التحدث منذ وقت طويل عن مجلس من عشرة أعضاء كانت اجتماعاته تتسم بالتسامح المتبادل وكان هؤلاء العشرة يتكونون من سني، وشيعي وخارجي، ومانوي وشاعر غزلي، ودهري، ومسيحي، ويهودي، ومجوسي، وزراد شتى. وفي الحقيقة، ظلت هذه المدينة الجامعة لكل طوائف البشر نموذجًا للتسامح، وللإدارة الحكيمة، وللأناقة.

العشب:

ما الذي كان يصنعه عامة الناس، وسواد السكان أثناء هذا العصر؟ إن الشعب كان يحمل بكل سهولة على أكتافه –عبر كل العصور– كل ثقل هذا الصرح من العظمة. وكان العمال والأجراء والصناع –غير المبالين بجولات المتعطلين المتأنقين– يؤدون عملهم المرهق بجهد تخففه البشاشة على ظهور السفن، وعلى الأطورة (الأرصفة)، وفي المشاغل، وفي الأسواق، وكانت على طائفة تملك مشاغلها أو حوانيتها، ومحالها أو مصانعها المتجمعة في نفس الحي.

كان سوق الحدادين يضاء بمجموعة من الأضواء في شكل حزمة. وكان سوق النحاسين يدوي بضربات المطارق. وكان صناع السكاكين والآلات الحادة وصناع الأقفال، وصناع الأسلحة يطرقون، ويبردون ويصقلون الحديد؛ وكان سوق صناع الجواهر يشع بالأحجار الكريمة المركبة على فن عربي من الذهب أو من الفضة، وفي دكاكين الخياطين، كانت تباع وتوزن الأنسجة؛ وكان صناع الأحذية يصنعون نعالا أنيقة، وقباقيب ضخمة؛ وكان صناع الفخار ينحنون على (طولاتهم) ويحركون مخاريطهم بالقدم فيشكلون آنية من كل نوع. وينتظر صناع الأمشاط والسلاسل وهم جالسون على الطريقة التركية بيع ثمرة ما صنعوا. وفي وسط الشارع، كانت صفوف من الإبل والحمير والبغال تملأ الجو بقرع أجراس جلاجلها التي يصاحبها

بغير ملل زنين الأجراس الصغيرة وصياح الباعة المتجولين. وكان عابر الطريق وهو ضال بين هذا الجمع من الناس المزدحم يستطيع أن يتناول كعكًا، وزلابية، وأشربة مسكرة، وحلاوة، وكذلك سمكًا مقليًا، وباذنجانًا، وقرعًا كان يبيعه أصحاب المطاعم المتواضعة. ثم بعد أن يحصل على نبيذ في الأديرة المسيحية، كان يذهب ليتعاطاه في مقاه صغيرة يملكها اليهود، وفي طريقه، كان يعبر سوق الخشب، والأعشاب، والفواكه، والأزهار، والتوابل التي كانت تعبق الجو بأريج معطر عطرًا شذيًا، وكان مثل هذا المنظر يتكرر كل يوم في بغداد.

كان البناء يجري بهمة ونشاط في بغداد: فكان النجارون والبناؤون، والحفارون، والرسامون يشكلون في حي (الأسواق المالية) مؤتمرات حقيقية صغيرة للعمل الذي لم تكن تعريفته تقررت، وأجر اليد العاملة في اليوم، بل كان يرى جميع كذلك في هذه الأحياء استخدام العمال أثناء الفترة التي تتوقف فيها الأعمال. ومن بين هذه الطوائف، توجد طائفة كانت تتحرك بسرعة على طول أطورة (أرصفة) النهر وهذه الطائفة هي طائفة الحمالين، وعمال السفن، وملاحي السفن النهرية. وكانوا يتوقفون عن العمل لأسباب سياسية، وكذلك بسبب مشكلات الأجور. وكان يحدث أحيانًا كأية مدينة معاصرة، أن تفتقر بغداد إلى الدقيق أو البلح أو الزيت فيتدخل رجال الشرطة في الحال ويهدئون من ثورة المضربين عن العمل ويعيدون النظام من جديد.

وعلى الجملة، كان هذا العالم الصغير من جمهور العامة الخالي من الاهتمامات الفلسفية، يعمل دائمًا بذكاء وبشاشة. وبين الوقت والوقت، كان دولاب العمل اليومي يقاطع في الشارع بموكب عرس أو ختان، لكن الضوضاء كانت تتوقف مع أي إجراء للشرطة، وتعود الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعي، وكان رجل الشعب المسلم وهو القنوع حتى بالنسبة للضروريات فخورًا بمسجده، وبمدينته، وبخليفته وكان يشعر شعورًا مبهمًا بأن بعض ذلك المجد يرجع إليه.

(١٣) الإسلام في الغرب

الأمير عبد الرحمن:

في سنة ٧٢٥، كانت شخصية روائية تلقى عصا التسيار في إسبانيا.. هذه الشخصية ذات مظهر غريب، صاحبها طويل القامة، نحيل الجسم، ذات سمات واضحة، وأنف أقنى، وشعر أحمر، وهي الشخصية الوحدة التي بقيت على قيد الحياة من سائر الأمراء الأمويين: إنه عبد الرحمن.

في سن العشرين، كان عبد الرحمن قد قذف بنفسه في نهر الفرات فارا من فرسان العباسيين المجدة في طلبه، فعبر النهر سباحة وتنقل من قبيلة إلى قبيلة، وطورد دون توقف في كل مكان. وقد عبر سوريا وفلسطين، ومصر، وصحراء ليبيا، وطرابلس، وإفريقية، وبلاد المغرب بغير مال ولا صديق، ولا دابة، متخفيا بإحكام من الجواسيس الذين كانوا يتتبعونه حتى في آخر العالم. وأعاد ثانية –وهو متخف– الطواف بالبحر الشاسع الذي كان أسلافه قد اجتازوه فاتحين قبل ذلك الوقت بأقل من نصف قرن، وعندما وصل الفارس الضال إلى إسبانيا نصب نفسه أمير قرطبة بمساعدة فرق سورية، وفدت من دمشق، وظلت على ولائها للأمويين، وبمعاونة هذه الفرق، قهر جيشًا كان مكلفًا عزله ثم أرسل هدية إلى الخليفة في بغداد، لم تكن سوى رأس الحاكم الذي كانت عليه مهمة ذبحه.. وقد لف هذا الرأس في علم العباسيين الأسود، وحفظ في الكافور والملح. وشهق الخليفة المنصور –الذي تعرف على هذا الرأس بقوله: «حمدًا لله الذي جعل بيني وبينك بحرًا بأكمله».

لم تتوقف هذه القصة الشرقية الخالصة والحقيقية أيضًا عند هذا الحد. وراح هذا الهارب الخالي الوفاض، والمزود فقط بدمه الملكي وصاحب الشجاعة النادرة يؤسس أسرة قدر لها من الحظ والشهرة أن تعدل أسرة خصومه الأقوياء. وتواصل القصة الحديث. كان هذا البطل الخيالي رجلا رقيق القلب، وفي أوج سلطانه، كان

يتلهف على مواطن طفولته إلى حد المحافظة في شغف على شجرة النخيل الوحدة في الأندلس والتي كان يهدى إليها أبيات شعره. لكن هذا الرجل الرقيق، وصاحب قصائد الرثاء الصغيرة لم يكن رجلا ضعيفًا، فقد كون بسرعة لنفسه جيشًا من أربعين ألف بربري منظمين ومدربين. ومنذ ذلك الوقت تحقق أمن مملكته، وتكشف كذلك عبد الرحمن عن أنه أمير عظيم في السلم والحرب معًا.

كان مولعا بالبناء، شغله الشاغل إسعاد رعاياه، فأمر أولًا بتشييد مجرى ماء يحمل المياه العذبة إلى قرطبة ويقوم بتوزيعها في المنازل والحدائق والنافورات والحمامات، ثم أقام حصونًا حول المدينة، وشيد خارج الأسوار القصر الملكي في الرصافة لكي يعيد به ذكرى قصر طفولته في سوريا البعيدة، وأخيرًا، أسس المسجد الكبير في قرطبة الذي أصبح قبلة الإسلام في الغرب، وأقام جسرًا على نهر الوادي الكبير، وأخيرًا، بعد أن وسع مدن إمبراطوريته، وجملها، شرع في جمع شمل العناصر المختلفة للشعوب في الغرب: من عرب وبربر ونوميديين وإسبان.. الخ، ثم يبقى على كاهل هذه الحركة التي ستمتد عبر القرون التالية أن ترفع من شأن إسبانيا الإسلامية إلى المكانة الأولى من الحضارة. وعندما مات عبد الرحمن في سنة ٧٨٨ كانت الثقافة، والشعر، والفن، والطريقة الفنية الإسبانية المغربية قد أخذت في توجيه أتباعها ناحية العالم الغربي.

تابع عبد الرحمن الثاني هذا العمل السلمي المزدهر على الرغم من أعمال الكفاح التي كان عليه أن يقوم بها ضد النورمنديين الغزاة، وضد المسيحيين على الحدود، وقد قيل إنه كان –على غير علم منه– المصدر الأول للاضطرابات التي ظهرت في أثناء حكم خلفائه على الرغم من تساهله المتزايد تجاه بعض الثوار. وفي الأقطار الإسلامية سواء في الشرق أم في الغرب، كانت السلطة التي لا تفرض نفسها، تمهد الطريق لسقوطها. فقد دمرت في الحال ثورت من القبائل واضطرابات أهلية، ومعارك دينية أو عنصرية، وأعمال قطع الطرق دمرت هذه الأعمال تماسك الإمبراطورية واتحادها اللذين أقامهما بجهد جهيد، عبد الرحمن الأول. وكانت

الدولة الجديدة تهتز من أسسها وكانت طليطلة وأشبيابة تسعيان لاسترداد استقلالهما.

خلافة قرطبة:

عندما تولة عبد الرحمن الثالث الحكم في سنة ٩١٢، كانت البلاد مفككة، لكن هذا الفتى البالغ من العمرو واحدًا وعشرين عامًا، راح يصعد على قمة الظروف، فقد قهر بذكائه وعزمه مثل سلفه الشهير المدن الثائرة، وأعاد فتح الإمارات الواحدة بعد الأخرى، وأخضع الطبقة الأرستقراطية العربية التي كانت تستعد لإعادة تأسيس نظام إقطاعي.

كان سياسيًا محنكًا، وخبيرًا يعرف كيف يجمع حوله رجالا مختلفي الولاء بدقة متناهية، فنجح عن طريق محالفات بارعة في المحافظة على التوزان بين الدول المتنافسة، وحكم بيقظة وبعناية وبمتابعة جديرة بأعظم الملوك في التاريخ، فلما استتب له الأمر قضى أخيرًا على أعدائه. لقد رد هجمات دون سانكو ملك نيرا واستولى على عاصمته ودمرها فكف المسيحيون منذ ذلك الحين عن إقلاقه. والحق أنه، لم يحصل على هذه الانتصارات الباهرة بدون مشقة بالغة. فبخلاف حرصه الخاص القوي –الذي يربو على أكثر من ثلاثة آلاف جندي والذي كان نواة عسكرية منتخبة لجيش دائم– كان قد شكل جيشًا من أكثر من مائة ألف رجل مجندين من بين الأسرى الصقالبة الذين أسرهم الجرمان وباعوهم. وكان جنود جرسه يؤخذون في سن المراهقة ويدربون ويثقفون بسهولة وفقًا للنظم العربية. وقد اتبع فيما بعد هذا النظام نفسه في مصر مع المماليك، وفي تركيا مع الإنكشارية. وبفضل هذه الفرقة من المرتزقة ولكنها الأمينة المخلصة استطاع الخليفة أن يقلل من الانقسامات وأعمال النهب. وأن يقمع النزعات الاستقلالية للطبقة الأرستقراطية العربية وقد ظفر عبد الرحمن الثالث بعد أن استعاد سلطانه بشهرة عظيمة كرجل مهذب، وكريم وملاطف. ولما عمل حسابًا دقيقًا لقوته الخاصة وفي الوقت نفسه

لأقول سلطان بغداد، فقد نصب نفسه في سنة ٩٢٩ خليفة وأميرًا للمؤمنين وحامي حمى الدين.

وسيبقى عبد الرحمن الثالث أعظم شخصية للأمويين في إسبانيا: ونمثل فترة حكمه -وهي فترة غريبة كل الغرابة إذا إذا قيدت بالفترة التالية لها في ظل الخليفتين اللذين سيخلفانه تباعًا -ذروة التسلط الإسلامي في الغرب. وهذا الرجل الذي كان عظيمًا ترك -عندما ما مات في سنة ٩٦١- شهادة للتاريخ تستحق التأمل بالنسبة لحظه التواضع من الحياة الإنسانية:

«أيام السرور التي صفت لي دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يومًا، فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها».

هذا الخليفة الناصر حليف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصمود، ملكها خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، لم تصف له إلا أربعة عشر يومًا، فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو»..

استمد ولده، الحكم، من الخمسين سنة الرخية الخالية من السعادة، نظامًا حكيمًا، فقد انتفع بحكم سلمي، واستطاع أن يكرس نفسه في تجميل المدن، وأمر بتشييد ملاجئ للفقراء، ومستشفيات وحمامات وأسواق، ومدارس، ومساجد، وأصبحت جامعة قرطبة في ظل قوته الدافعة أشهر جامعة بين سائر الجامعات. واستفاد على الدوام الشعراء، والمتفننون والعلماء من مساعدته الكريمة، ولكن في الوقت الذي كان ييسر فيه نشر كتبهم كان يجمع كذلك لنفسه أكبر عدد من المؤلفات الأصلية. كما أن مكتبته الخاصة التي نسقها كانت تحتوي على أكثر من أربعمائة ألف كتاب. وكانت العناوين الفريدة تشكل فهارس من أربعة وأربعين مجلدًا. في كل فهرس منها عشرون صفحة كانت مخصصة للمؤلفات الشعرية.

ولم يكن خليفته هشام قادرًا على الحكم فتولى المنصور (بن أبى عامر) وهو

قائد مشهور الاسم. الحكم من بعده، وأنشأ جيشًا يدين بالولاء له. كان سياسيًا داهية فعمل على كسب تأييد المفكرين والفقهاء. وفي الوقت نفسه كان يجيد ملاطفة الشعب. وانطلق في حملاته كل ربيع كما ينطلق الشعراء إلى الحقول حيث دمر الدول المسيحية المجاورة على التوالي. وقلب رأسًا على عقب كاتدرائية سان جاك دي –كومبوستل. وأمر بعض الأسرى بحمل أجراسها البرنزية من برجها الشهير على أكتافهم، وعادت فيما بعد هذه الأجراس إلى الكاتدرائية بالطريقة نفسها لكنها في هذه المرة كانت محملة على أكتاف المسلمين. ومات المنصور في سنة ١٠٠٢ عند عودته من حملة مدمرة في قشيتالة.

لم يعد تاريخ إسبانيا العربية من بعده إلا مغامرة تتميز – بالاضطراب والحيرة. وقد اتحدت مختلف الطبقات الاجتماعية ضد خلفاء المنصور وعزلوهم سنة ١٠٠٢ فاستولى البربر سنة ١٠١٢ على قرطبة ونهبوها. وشقت المدن عصا الطاعة بعد أن كانت موالية لحكم الأمويين. وفي سنة ١٠٢٣ طرد أهل قرطبة البربر، وقامت دكتاتوية البروليتاريا (الطبقة العاملة)، لكن لم تلبث أن قبضت الطبقات العليا بيديها على السلطة في سنة ١٠٢٧ وتفككت إسبانيا الإسلامية التي حازت قصب السبق على قرطبة. وحكمها المعتضد بقسوة طيلة سبعة وعشرين عامًا. بالسخرية القدر، فقد كان لزامًا على ولده المعتمد أن يصبح أعظم شاعر في إسبانيا الإسبانية وأن يبقى طيلة جيل على رأس حضارة مشرقة كحضارة بغداد، وقرطبة في عصر أوجهما.

ونافسه في الحال بلاط سرقسطة وبلنسيه وطليطلة في الأبهة، ويقصر الحديث عن الأبهة عندما نتحدث عن مثل هذه المدن التي كانت مواطن ثقافة قوية قدر لها أن تؤثر في العالم المسيحي تأثيرًا عميقًا[1].

([1]) وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين الذين يقدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أوروبا المسيحية إلى قرطبة أو طليطلة أو أشبيليه طلابًا للعلم أو زائرين أو مسافرين وقد شكا أحد

الإدارة:

كانت إدارة الأعمال العامة في الأندلس –وهكذا كانت تسمى إسبانيا الإسلامية– أكثر الأعمال تطورًا بلا جدال في ذلك العصر وكانت قوانينها المبنية على العقل والمتقنة الوضع في ظل نظام شرطي (بوليسي) منظم تنظيمًا كاملًا، مطبقة بطريقة إنسانية على أيدي قضاة غاية في النزاهة وكانت الضرائب معقولة وميسرة التحصيل، وأقل نسبيًا من ضرائب البلاد الأوربية بفضل تطبيق اقتصاد موجه توجهًا حسنًا. وكان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من دخول جميع العالم المسيحي اللاتيني. وكان يستخدم ثلث الدخل لدفع نفقات الجيش. والثلث الثاني للنفقات العامة والثلث الأخير للاحتياطي.

وعلى الجملة، أحدث النظام الإسلامي تقدمًا ثابتًا بموازنته بالنظم القوطية الغربية السابقة. حتى قيل إن «بلاد الأندلس لم تعرف أبدًا من هذا اللون في الهدوء، والعدل، والحكمة مثلما عرفته في ظل الفاتحين العرب[1]». نعم ظهر بعض الأمراء أحيانًا بمظهر البرابرة بلا طائل، مثل المعتضد في أشبيلية، ولكن في مقابل هذا –كم من سمات الكرم والفروسية أظهرها الملوك الأمويون في قرطبة.

المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول: «إن إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين، وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة. واحسرتاه إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علمًا ولا أدبًا ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم، فهم يقبلون في تهم على دراسة كتب العرب ويملؤون بها مكتباتهم، وينفقون في سبيل جمعها أموالا كثيرة، وهم أينما كانوا يتفننون بمدح علوم العرب [عن قصة الحضارة –عصر الإيمان– تأليف ول ديورانت. ترجمة محمد بدران ص٢٩٧].

(المترجم)

([1]) «لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم، عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب»، ذلك حكم يصوره مستشرق مسيحي عظيم هو استانلي لين بول في كتابه «حكم المسلمين في إسبانيا».

(المترجم)

الاقتصاد:

تفتت عند الفتح الإسلامي أملاك أمراء القوط الغربيين الشاسعة وكان هذا خيرا بالنسبة للفلاحين، لكن النظام الإقطاعي الذي كان يمهد لنفسه من قبل في أوروبا، اتجه نحو الرجوع إلى الملكية الكبيرة لحساب الحكام العرب. ومع ذلك، ففي الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الذي يمتاز بمناخه وأرضه كان عدد من السكان المستأجرين يعملون أيضًا بالحصة مع الملاك.

وتحت القوة الدافعة الإسلامية، تفوقت الزراعة في إسبانيا بشكل واضح عن بقية الغرب. فقد جلب العرب الزراع ذوي الخبرة من آسيا وحفروا قنوات الري، وأدخلوا زراعة الكروم، والحنطة السوداء[1]، وأشجار الزيتون في الجنوب، وأشجار بلح النخيل في ميورقة، وزراعة شجرة التوت لتربية دود القز، وقصب السكر، والأرز، والهليون، والسبانخ، وكميات من الفواكه لم تكن معروفة بعد في هذه البلاد: من رمان، وبرتقال، وسفرجل، وليمون هندي، ومشمش، وتين، وليمون، وخوخ.

بلغت وقتئذ ضواحي قرطبة وغرناطة «والسهول الخصبة في بلنسيه ومرسيه» شهرة عالمية زمانًا ومكانًا. واليوم، تملك أيضًا حدائق هذه المناطق الممتازة شيئًا غريبًا بدون شك. لكن هذا الانتشار العظيم للزراعة هو أحد المكاسب الأكثر بقاء والتي تدين بها إسبانيا للحضارة العربية. وفي ميدان تربية الحيوان كان لزامًا على تهجين أجناس الخيول العربية والمغربية أن تقدم الجياد المطهمة لفرسان إسبانيا، وكانت الصناعة المعدنية منتشرة، كما كانت دروع قرطبة، وسيوف طليطلة ذات شهرة عظيمة. وكانت مرسيه تتقن صناعة النحاس والحديد. وكانت مدينتا جيان والجرب علكان مناجم من الذهب ومن الفضة، كما وجد القصدير، والنحاس،

(1) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتستخدم حبوبه طعامًا للخيل والدجاج والماشية، ويستخدم دقيقة لصناعة الكعك. (المترجم)

والحديد، والرصاص، والزئبق. وانتفع بالكبريت وبحجر الشب. وكانت ياجه وملقه مشهورتين بياقوتهما الأحمر. وتشتق كلمة «صانع أحذية» **Cordonnier**، من **Cordouo**، (قرطبة) التي كانت فيها صناعة الجلد مزدهرة. وكانت هذه المدينة تزهى بمن تضمهم من عمال النسيج البالغ عددهم ثلاثة عشر ألفًا. وكانت سجاجيدها، وستائرها الحريرية مرغوبًا فيها في العالم جميعه مثل الأنسجة الصوفية والحريرية لمالقة والمرية.

كانت حكومة الخلفاء تشرف على خدمة بريدية منظمة. وكانت هناك ألف من المراكب القادمة من برشلونة، وبلنسية، وقرطاجنة، والمرية، ومالقة. وقادس، والميناء النهري لأشبيلية، مهمتها تأمين حركة التجارة مع أفريقية وآسيا. وكان التعامل يجري بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية، وهي ثابتة نسبيًا، في الممالك المسيحية الشمالية التي كانت لا تعرف طيلة أربعة قرون غير هذه العملة، وعملة ملك فرنسا.

كان ملاك الأراضي الشاسعة والتجار يستغلون –كما هو حادث اليوم أيضًا– المنتج والمستهلك في إسبانيا الإسلامية لكن الأمراء كانوا يحافظون على التوازن بتخصيص ربع الدخل العقاري لمساعدة الفقراء.

الدين:

كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها.. وكان اليهود المطاردون حتى هذه البلاد لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ووصلوا أحيانًا إلى مراكز سامية. واختلط المسيحيون مع المسلمين. واتجهت العادات نحو التشابه بعضها مع البعض. وحدث أن مسيحيين ومسلمين احتفلوا بأعيادهم معًا في المسجد وفي الكنيسة. ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد، شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة. بيد أنه عندما بهرت هذه الحضارة المشرفة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا

المسيحية كلها، أخذوا يزحفون –حبًا في هذه الحرية– إلى قرطبة وطليطلة، وأشبيلة لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها.

ثم حدث ما كان مقدرًا له أن يحدث. فأمام هذا الكلف الزائد بهذه الحضارة، بدأ بعض المسيحيين في مقاومته أحيانًا بكل قوة بالشكوى من هذا الميل الذي كان يشعر به الكثيرون منهم تجاه أفكار الإسلام ومؤلفاته.

وبعد أن ورث بعض الأمراء عن الملوك القوطيين الغربيين حق تعيين الأساقفة وعزلهم، وأساءوا استخدام هذا الحق، وانهمك كثير من فقهاء المسلمين في الوقت نفسه في أحكام نقدية تجاه الدين المسيحي. ولم يتردد المسيحيون –مدفوعين بغضبهم من هذه الأحكام النقدية في تعريض أنفسهم لأخطار كبيرة في أثناء ردهم على هذه الانتقادات. وتأزمت بعد قليل الأمور. وفي ظل السخط الذي أثاره رد الفعل من جانب المسلمين، تكونت مجموعة من «الغيورين» المسيحيين الذين ذهبوا إلى حد إثارة الاضطهاد على الرغم من التسامح الديني. وسعى بعض الرهبان، والقساوسة، والنساء إلى الاستشهاد، وارتضوا به عن غبطة. وقد تم تنفيذ خمسة عشر حكمًا بالإعدام فيما بين عامي ٨٥٠ و٨٥١، لكن الحركة انتهت بالهدوء ولم يستشهد إلا اثنان طيلة القرن التالي، ثم لم يستشهد أحد بعد سنة ١٠٠٠.

ذلك أن حمية المسلمين وإيمانهم كانتا تفتران مع الثروة والرخاء. وهبت بعد قليل رياح من الشك على العالم العربي. وتكونت مذاهب إلحادية استنكرت جميع المعتقدات وجميع الممارسات الدينية؛ ومن ثم، عندما أخذت النوازل تهبط على العالم الإسلامي، عزا رجال الدين سبب هذه النوازل إلى الإلحاد والمعصية. وحاول الملوك بكل سلطانهم أن يساندوا رجال الدين، وقد ساندت العقيدة «القرآن» والسلطان والإيمان بعضها بعضًا بطريقة متبادلة. ذلك أن المناقشات الفلسفية لم تعد تقتصر على تسليات البلاط؛ فعلى الرغم من آراء الخلفاء المتحررة رأوا أنفسهم أحيانًا ملزمين بالترابط مع السواد من رعاياهم ضد المفكرين الذين كانوا

يرغبون في تحرير أنفسهم أحيانًا ملزمين بالترابط مع السواد من رعاياهم ضد المفكرين الذين كانوا يرغبون في تحرير أنفسهم من تأثيرات المعتقدات الإسلامية، وكانوا يتظاهرون بالنظر بشيء من الاحتقار إلى صرامة العقيدة.

المعمار:

كانت إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر بلا شك أكثر بلاد أوروبا ثروة، وكان بها عدد كبير من المدن، ومن الأمصار العامرة بالسكان، ويقال إن تعداد قرطبة في عهد المنصور بلغ نصف مليون من السكان، ومائتي ألف منزل، وستين ألف قصر، وستمائة مسجد، وسبعمائة حمام شعبي، وسبعين مكتبة. وقد رأينا من قبل كيف كان في قرطبة عدد وافر من الشوارع المرصوفة بأطورة (أرصفة) مرتفعة، وكان المرء يستطيع أن يسير عشرة كيلو مترات على ضوء المصابيح في الوقت الذي لم يوجد فيه بعد ذلك بسبعمائة عام في شوارع لندن إلا مصباح واحد. وفي القصر الملكي الذي شيده عبد الرحمن الأول، أضاف الخلفاء أيضًا بما كان لهم من همة ونشاط مساكن أخرى فاخرة قصر الزهور، قصر المحبين، قصر الرضا، قصر التاج.

وقد بنى عبد الرحمن الثالث بعد ذلك في النصف الأول من القرن العاشر، وعلى بعد بضعة كيلو مترات من جنوب المدينة، قصر الزهراء[1] الذي عمل فيه طيلة خمسة وعشرين عامًا أكثر من عشرة آلاف رجل وخمسمائة ألف دابة. وكان القصر مسكنًا ضخمًا يستطيع أن يتسع لسكنى ستة آلاف امرأة. وكانت لقاعة الاستقبال سقوف وحوائط من المرمر ومن الذهب، وبها ثمانية أبواب محلاة بالأبنوس، والعاج والأحجار الكريمة، وحوض من الزئبق، الذي كان سطحه المتموج يراقص أشعة الشمس. وكان بالقصر مائتا ألف عمود من المرمر. وكان هذا القصر طيلة نصف قرن الموطن الأول في الأناقة، والرشاقة، والرقة، ومهد الفكر والمذهب

([1]) أطلق على هذا القصر هذا الاسم تيمنًا باسم جارية أثيرة لديه وفي قول آخر زوجته.

(المترجم)

العقلي. وفي الطرف المضاد للمدينة، شيد المنصور بعد ذلك بثلاثة عقود أو أربعة، قصر الزاهرة الذي كان يستقبل فيه رجال البلاط والشعراء، المتجولين، وفي سنة ١٠١٠ في غضون الحركات السياسية الموجهة ضد الخلفاء، نهب هذان القصران، وأصبحا رمادًا بسبب الأحزاب الثائرة[1]. أما في قرطبة، فقد أسس المسجد الأزرق المشهور. ولقد أقام الرومان قبله وفي نفس الموضع معبدًا ليانوس وأقام المسيحيون من بعدهم كاتدرائية. وبعد أن اشترى عبد الرحمن الأرض من المسيحيين، هدم الكاتدرائية، وبني بدوره المسجد الأزرق. لكن في سنة ١٢٣٨ كان لزامًا على «الاسترداد» أن تحول المسجد مرة أخرى إلى كاتدرائية. وهكذا يتغير الحق مع أحوال الحرب. وثمة شيء مما لم يتناوله التغيير في غصون ذلك– ويسلم به المؤرخون في الجملة: ألا وهو منظر المكان وموقعه وهو فريد في بابه. وهو المنظر الوحيد الذي كان يأتي برجال من مواطن بعيدة جدًا من الأرض الإسبانية. وكانت العبادات المتعاقبة تختار هذا الموقع كإطار لمظهرها. وكانت أعمالها الخاصة تقترن بهذا المكان، وهي شبيهة بزخرفة تكاد تكون عابرة، لكن فكرتها كانت تبقى مرتبطة بنفس المكان الذي نظر إليه على أنه معبد روحي جامع. وكان الإنسان لا يملك إلا أن تتحد روحه في هذا المكان مع كل ما هو إلهي: وهذا ما كان ينبغي أن يكون عليه أكثر من الاحتفالات الدينية والطقوس الخاصة. وفي هذا، يجب البحث عن المفهوم الفردي –غير المبالي بأحوال الحرب– في أن كل كائن إنساني يملك بعض الحقيقة وبعض الجمال وبعض الخير ثابتة ودائمة.

ومن بين أعمال البشر، يظل المسجد الأزرق لا نظير له بأبعاده ونقوشه وأسهم كل خليفة طيلة قرنين في تجميله لكي يجعل منه أيضًا تعبيرًا أكثر كمالا وأكثر صفاء. وفوق أبراجه، وحائطه المسنن الذي يحيط به، تبرز مئذنة مربعة ذات نمط

---

(1) ولقد كان المنصور بن أبى عامر يحس يسوء المصير لمدينته فهو يعلم قطعًا أنه إنما أنشأها مغالبة واستبدادا وابتزازا لأموال الناس وحرمانًا لكثير من المستحقين [عن تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي – تأليف الدكتور على محمد حمودة ص٣٨٢. (المترجم)

سوري تعلو جميع مباني المدينة. وهناك تسعة عشر مدخلا فخمًا مركبة عليها أقواس مبرقشة تتيح الوصول إلى ساحة الوضوء، التي تنفجر فيها أربعة صنابير ثبت كل منها في عمود من المرمر يصعب على سبعين ثورًا نقله. وبالداخل ألف ومائتان وثلاثة وتسعون عمودًا من حجر اليصب، ومن الرخام السماقي، ومن الرخام الأبيض، ومن المرمر تبرز جميعها سعة لا نهائية مزعجة.

وقديمًا، في السقف الخشبي المبرقش، علق مائتا (شمعدان) كبير مصبوبة في برنز أجراس الكنائس، كما كان هناك سبعة آلاف قنديل من زيت معطر معلقة في فروعها تشتعل ليل نهار، وتتلألأ الحوائط أيضًا من الفسيفساء المزين بمختلف الألوان اليوم «ويظل هذا المحراب نموذجًا لأجمل تحفة قوطية» وأمام المنبر المصنوع من سبعة وثلاثين ألف صيحة صغيرة من العاج، ومن الخشب الثمين، يقف الزائر مذهولا من الدهشة بسبب ضخامة وسمو العمل المتقن.

العلوم:

لقد كان نصيب هذا العصر من الفكر أكثر من حظه من الثروة أو القوة، وكانت قرطبة في الذروة من ذلك المجد مع أن إشبيلية وغرناطة وطليطلة كان لكل منها نصيبها المشترك في هذا المجد. فقد زاد الخليفة الحكم الذي كان عالماً متبحرًا عن المعرفة في جميع صورها.

وفي ظل حكمه، وصلت جامعة قرطبة إلى مرتبة الصدارة وتبوأت مكانها قبل جامعتي القاهرة وبغداد، وكان أساتذة من الشرق يدعون إلى إلقاء الدروس فيها. وأضاف الحكم سبعًا وعشرين مدرسة مجانية إلى مدارس كثيرة كان من المعتاد أن يدفع لها نفقات التعليم. ووصل مستوى الثقافة إلى حد أن المستشرق الهولندي دوزى[1] استطاع أن يقرر أن كل شخص تقريبًا كان يعرف القراءة والكتابة في

([1]) مستشرق هولندي (١٨٢٠ – ١٨٨٣)، له مؤلفات شهيرة عن الجزيرة العربية وإسبانيا الإسلامية. (المترجم)

الأندلس، في عصر كانت أوروبا لا تملك فيه غير مبادئ في المعرفة، هذا إلى أن هذه المبادئ نفسها كانت محتكرة لأقلية من رجال الكنيسة. وقد أسست أيضًا مدارس أخرى ومدارس ثانوية في غرناطة وطليطلة وأشبيلية ومرسية، والمرية، وقادس، وكانت المدن المغربية قد أصبحت خلايا حقيقة تزخر بالعلماء، والمشرعين، والأطباء، والأدباء. والشعراء. وكان الفقهاء النحاة يعدون بالمئات كما كان عدد المؤرخين، وكتاب السير كبيرًا. ويقول المقرى: «وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا في أيام هشام الثاني والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر». وكانت موضوعات شعرهم كما هي دائمًا «الحب والحرب»، وهم الذين مهدوا لظهور الطريقة المبتكرة لشعراء العصر الوسيط في أوروبا الغربية المعروفين باسم المنشدين والشعراء المتجولين.

وكان ينظر إلى العلم والفلسفة –في هذا العصر المتسامح دينيًا والمتشدد عقائديًا– على أنهما مشكلتان في الدين، بيد أنهما تألقا تألقًا وضاء. ففي مدرسة قرطبة، كان هناك حماسة شديدة تتمثل في مسلمة المجريطي الذي كان تلاميذه يدرسون الرياضيات والفلك، والطب، والكيمياء، ويدرسون في الوقت نفسه الفلسفة. وشرح جراح كبير –هو أبو القاسم الزهراوي، طبيب عبد الرحمن الثالث– علم الجراحة، واخترع طرائق جديدة في الجراحة التي امتد نجاحها فيما وراء حدود إسبانيا الإسلامية بكثير. وكان الناس من جميع العالم المسيحي يذهبون لإجراء عمليات جراحية في قرطبة، فقدم الطب في هذه البلاد. وفي أشبيلية أنجبت أسرة ابن زهر سلالة مهيبة من الأطباء اشتهرت طيلة أكثر من ثلاثة قرون. وكان الأكثر شهرة من بين أعضاء هذه الأسرة والذي نظر إليه على أنه رائد وتلميذ نابه هو ابن رشد الذي كان طبيبًا ذائع الصيت وفي الوقت نفسه أحد الشخصيات الكبيرة في الفلسفة. وفي ميدان الطبيعة برهن صانع للآلات البصرية ليس بأقل شهرة عن سابقه، هو إبراهيم الزرقالي للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالنسبة للنجوم.

أفريقية الإسلامية:

كانت أفريقية الإسلامية، إبان الفتح العربي مقسمة ثلاث ولايات: مصر وإفريقية، والمغرب تعترف كلها بسيادة خليفة الشرق، ولكن نظام الخلافة المترامي الأطراف، وغير الواضح، وبعده المتزايد أيضًا بسبب نقل العاصمة في بغداد، وصعوبات المواصلات والنقل أدى بهذه الولايات إن لم يكن إلى قطع علاقاتها جملة مع الحكومة المركزية فلا أقل من أنها لم يتعد تتبعها إلا من وجهة نظرية. ونتج عن ذلك أن ثلاث أسرات مستقلة ظهرت تقريبًا في وقت واحد في بداية القرن التاسع: الادريسيون في فاس، والأغالبة في القيروان، والطولونيون في مصر. وهذه الأسرات التي لم يكن لديها قاعدة شعبية، أسست نفسها على القوة وتفككت عندما أضعف الرخاء العظيم قدراتها العسكرية.

بيد أنه في سنة ٩٠٩ ظهر في بلاد تونس أسرة قدر لها أن تستمر قرنين من الزمان هي: أسرة الفاطميين، من سلالة فاطمة بنت النبي عليه السلام. إذ بفضلهم وبفضل الأغالبة عرف شمال أفريقية رخاء يشبه ما كان سائدًا في قرطاجنة وروما. فشقت طرق تجاه الصحراء الكبرى، وأنشئت موانئ بونه، ووهران، وسيته، وطنجة. وفي سنة ٩٦٩، استولى الخليفة المعز على مصر، وأقام عاصمته في القاهرة، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية وسوريا. وأعاد الوزير يعقوب بن كلس –وهو يهودي اعتنق الإسلام– تنظيم الإدارة في مصر، وجعل من ملوكها أكثر الملوك ثروة في عصرهم. واضطهد ويا للأسف الخليفة الحاكم (٩٩٦– ١٠٢١) اليهود والمسيحيين، وأمر بتدمير كنيسة قبر المسيح في أورشليم، ولعل هذا التصرف كان سببًا من أسباب الحروب الصليبية[١].

ازدهرت مصر طيلة فترة حكم الفاطميين. ووصف فارسي عاش في مصر من

---

(١) لم يكن هذا هو السبب، بل إنها دعوة زائفة وافتراء كاذب من بعض المؤرخين الغربيين المتعصبين، راجع تعليقنا بهذه المناسبة ص٣٢٢ من هذا الكتاب. (المترجم)

سنة ١٠٤٦ إلى ١٠٤٩ العاصمة بمنازلها التي يبلغ عددها عشرين ألفًا وحوانيتها التي لا حصر لها. وشوارعها العريضة والمضاءة ليلا، وبالرقابة المفروضة على التجار للبيع بثمن محدد، وبالأمن الشديد إلى درجة أن الصيارفة والصاغة كانوا لا يستخدمون أقفالا لأبواب منازلهم، وبقصر الخليفة الذي كان يسع ثلاثين ألف شخص منهم اثنا عشر ألفًا من الخدم. ويختم الرحالة قوله –وهو مذهول بالإعجاب على هذا النحو– قد لا أستطيع أن أضع حدًا لثروتها، لأنني لم أر شيئًا في أي مكان آخر يقترب من هذا الرخاء». وبلغ هذا الرخاء أوجه في منتصف القرن الحادي عشر، ثم خبا شيئًا فشيئًا بسبب الثروة، والترف، ونتائجهما المفسدة للآداب والأخلاق وانهارت مصر الفاطمية. وتفكك الجيش إلى أجزاء متنافسة بربرية. وسودانية وتركية. ثم استردت أفريقية والمغرب استقلالهما، وفقدت فلسطين وسوريا. وفي سنة ١١٧١ مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. ولم يكن له من يخلفه واعترف صلاح الدين الذي كان حاكمًا على مصر، بسيادة الخليفة العباسي في بغداد.

الحضارة الأفريقية:

شجعت الأسر الحاكمة في العواصم الثلاث من أفريقية الشمالية: القاهرة، والقيروان، وفاس، الآداب والعلوم والفنون. وقد اختفت اليوم الآثار الفنية ومخطوطات ذلك العصر، أو أنها لم تستخرج بعد من تحت الأنقاض. ولكن المساجد لا تزال على الدوام باقية، وهي الوحدة التي صورت على غرار قلاع حقيقية. وفي القيروان، لم يكن مسجد «سيدي عقبة» الذي شيد سنة ٦٧٠، إلا عددًا كبيرًا من أروقة معظمها جلب من أنقاض قرطاجنة. وفي القاهرة أول ما يلاحظ جامع عمرو (٦٤٢) بأعمدته الجميلة المشيدة على الطراز الكورنثي والروماني والبيزنطي: وجامع ابن طولون (٨٧٨) وجامع الأزهر (٩٧٠) الذي اتسمت أصالته بعقوده الفاخرة القوطية. وجامع الحاكم (٩٩٠) الشهير بأناقة زخارفه العربية، وكانت هذه المساجد في قديم الزمان مزخرفة بنقوش وفسيفساء رائعة، وفخار يكاد

شفيفًا وقد لا يثيرنا اليوم مدى ما بلغته دقة صناعة النقوش والعناية الفنية الفائقة التي مورست حتى في أقل التفاصيل. واشتهر أيضًا هذا العصر المتفوق في الحضارة العربية بالفن الدقيق الذي صنعت به المنسوجات الفاطمية والتي كان لها تقدير خاص في أوروبا. وبرع هذا العصر –من بيه الصناعات الأخرى– في صناعة الخيام من القطيفة، والأطلس، والحرير الموشى بشكل أزهار، والحرير، والصوف المذهب. وتطلب مسجد الوزير اليازوري عمل مائة وخمسين صانعًا طيلة تسع سنوات، لكي ينتهي على أحسن ختام، يسترعى الأنظار. ومثلث رسومه جميع أنواع الحيوان، لكن لم يمثل فيها الإنسان.

وفي الجامع الأزهر، فتحت الجامعة الأولى في سنة ٩٨٨ التي قدر لها أن تستقبل التلاميذ من العالم الإسلامي بأسره. وقد أخذ الخلفاء ورعاة الآداب والفنون على عاتقهم صيانته، وهو باق على مر الأيام وبه اليوم عشرة آلاف طالب وثلثمائة أستاذ، وهبوا أنفسهم للمحافظة على التراث وحماية تعاليم الدين الحق. وأنشأ كذلك الحاكم في القاهرة «دار الحكمة» التي كان المرء يدرس فيها المذهب الشيعي، وعلم الفلك، وعلم الطب، وأسس في نهاية القرن العاشر مرصد على بن يونس وهو أعظم فلكي مسلم. وعاش على ابن يونس في الوقت الذي عاش فيه الحسن بن الهيثم أعظم اسم في المعرفة في هذا العصر، ومؤلف كتاب المناظر الذي استخدم كأساس لأعمال روحيه[1] باكون **Roger** وكيبلر[2] **Kepler** الأوروبية.

كانت النتيجة المثيرة للعجب العاجب للفتح الإفريقي هي الاختفاء التام

---

(1) راهب إنجليزي من الفرنسيسكان، كان يلقب بالطبيب العجيب، أحد كبار العلماء في العصر الوسيط، وكان يهاجم بعنف الطرائف الفلسفية في عصره، ونادى بالتجربة. (المترجم)

(2) فلكي ألماني (١٥٧١– ١٦٣٠)، له قوانين في الفلك أطلق عليها قوانين كيلر استخلص منها نيوتن قانون الجاذبية. (المترجم)

للمسيحية التي كانت قد أشرقت طيلة قروت كثيرة في عهد ترتوليان[١]، والقديس سيبربات[٢]، والقديس أوغسطين[٣] والقديس فولجانس[٤] من أهل روسب واندثرت الكنائس المشهورة الإسكندرية وقرطاجنة وهيبون. فحياة البربر البدو التي كانت تتشابه كثيرًا مع حياة العرب، كانت تهيئهم لاعتناق الدين الإسلامي أكثر من الدين المسيحي. وساعدت بعض الاضطهادات المحلية، مع الإعفاء من الضريبة الذي تطبق على المسلمين الجدد- على إضعاف الدين المسيحي.

الإسلام في حوض البحر المتوسط:

كان معاوية، مؤسسة الأسرة الأموية أول من أدرك الحاجة الملحة إلى أسطول في حوض البحر المتوسط، فكانت النتيجة الأولية لهذه الضرورة فتح قبرص ورودس. وقد احتلت كورسيكا في سنة ٨٢٧، وسردينيا في سنة ٨١٠، وكريت في سنة في سنة ٨٢٩، وصقلية في سنة ٧٢٧. وكما حدث في أيام قرطاجنة، يبدأ من جديد نضال في حوض البحر المتوسط ضد المدن التي أقامتها اليونان في صقلية. واضطلع حكام القيروان بهذا العبء فتتابعت غاراتهم على هذه الجزيرة، وسقطت بالرمو في سنة ٨٣١، ومسينا في سنة ٨٢٢، وسر اقوسة في سنة ٨٤٨، وطرمين في سنة ٩٠٢. وأصبحت الجزيرة كلها تحت السيطرة الإسلامية وازدهرت فيها حضارة مشرقة.

---

(١) من كبار المدافعين من الدين المسيحي، ولد في قرطاجنة (١٥٥- ٢٢٠) تقريبًا، وهو كاتب لا يشق له غبار، وصاحب حجة قوية. (المترجم)

(٢) أسقف قرطاجنة، وربما ولد في هذه المدينة في عام ٢١٠ تقريبًا، واستشهد في عام ٢٥٨. ويحتفل بذكراه في ١٦ سبتمبر من كل عام. (المترجم)

(٣) لاهوتي وفيلسوف (٣٥٤-٤٣٠)، فلسف المسيحية، وله مؤلفات كثيرة منها: مدينة الله، والاعترافات. (المترجم)

(٤) أسقف مدينة روسب في أفريقية (٤٠٨-٥٣٢)، كرس نفسه للرد على مذهب آريوس، ويحتفل بذكراه في أول يناير من كل عام. (المترجم)

وفي هذه الفترة، كانت قد تعرضت غارات سريعة لبارى في سنة ٨٤١، وأوسق في سنة ٨٤٦ متبوعة بغزوات ناجحة إلى ما تحت «أسوار روما البابوية» وقاوم هؤلاء البابوات هذه الغزوات. وفي سنة ٨٤٩، ولى أسطول عربي أفريقي الأدبار.

واسترد وقتئذ البيزنطيون قواعد النزول العربية في باري في سنة ٨٧١، وفي تورنتو في سنة ٨٨٠. ولكن بدئت من جديد غارات النهب السريعة تجاه الجملة الرومانية، ووادي الأنيس، وجبل كاسين. وأمام هذه التهديدات المتجددة، تحالفت قوى إيطاليا، وغلب العرب على أمرهم عند نهر جاريجليانو في سنة ٩١٦.

وربما وجدت أيضًا في ذلك المكان معركة من هذه المعارك الحاسمة، عندما يعرض التاريخ لذكرى عدد معين منها. فكانت روما والبندقية أهدافًا جديرة بالاختيار. وكانت هناك غارات سريعة جريئة تراجع العرب أمامها إلى ما تحت أسوارهما. ومع هذه المرانة التي كانت خاصة بهم في ركوب الخيل عبر العالم لم تكن المسافة كبيرة من البندقية إلى بيزنطة، ومع ذلك كانت هذه المدينة الأخيرة تجتذب دائمًا «المؤمنين» الذين بقوا في آسيا. ولو كان العالم الإسلامي في الغرب والعالم الإسلامي في الشرق قد تبادلا سلامهما لدى الكنيسة البيزنطية سانت صوفيا في القسطنطينية، لكان العالم المسيحي قد قضى عليه. وعندما تسلل الأتراك إلى هذه الكنيسة فيما بعد بستمائة عام، كانت المسيحية قادرة على أن تسد عليهم الطريق.

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

(١٤) الآداب والفنون

الحياة الثقافية في أسبانيا الإسلامية:

قدمنا في فصل سابق، نظرة جامعة عن الحياة الثقافية عبر جميع بلاد العالم الإسلامي. وفيما يختص بالإسهام الأدبي والفني الذي كان من واجب العالم الإسلامي أن يؤديه إلى الحضارة الغربية، كانت أسبانيا الإسلامية تستحق مكانًا مرموقًا في هذا الميدان.

كانت أسبانيا الإسلامية تكتب بحروف من الذهب على باب جامعاتها: «يستند العالم إلى أربعة أركان: علم الحكماء، عدل العظماء، دعاء الصلحاء، شجاعة الشجعان».

لم يكن بطريق المصادفة أن تحتل المعرفة في هذا البلد المرتبة الأولى. ذلك أنه بالعلم تأصلت حقًا الحضارة الإسلامية في أسبانيا واستمرت بطريقة دائمة لم تأذن لذكراها أن تمحى بعد.

كانت لبسالة العرب العسكرية نتائجها المذهلة، لكنها لم تستمر طويلاً. وسرعان ما ملك المغلوبون جأشهم، وظل الدين الإسلامي على الرغم من جاذبيته التي لا ريب فيها دون أثر على الفكر في الغرب، ولم يكن لشريعة القرآن كثير من الانعكاسات في الحياة الاجتماعية للعصر الوسيط الأوربي، وعلى العكس من ذلك

نفذ العالم الإسلامي والصناعة الإسلامية بعمق إلى الثقافة الغربية.

وعندما تتصدى لهذا الفصل المهم، يجدر بنا أن نعود إلى الأدب لكي نتبع انتشاره في أسبانيا الإسلامية.

وكان الولع بالشعر قويًا في الأندلس، فكان الملوك أنفسهم يقرضون الشعر، وكان الجميع يستمتعون بجرس الألفاظ، وكانت قرطبة قد توهج فيها لهيب الشعر، واشتد إشراقة أيضًا في أشبيلية، وطال بقاؤه في غرناطة ومن خلال القصائد، وأغاني الحب، نستشف رومانتيكية تتكشف سلفًا عن فروسية العصر الوسيط، ويتكشف الشعر الغنائي العربي عن عامل من أهم العوامل في تمثل المسيحيين الأسبانيين لدرجة أننا نجده دائمًا في الشعر الشعبي الأشبيلي وفي التراتيل المسيحية.

وإذا كان الحب الأفلاطوني والعاطفي منذ القرن الثامن موضوعًا أدبيًا محددًا في الشعر العربي، فمن المهم أن نعد هذا الموضوع قد انتشر في جنوب فرنسا في نهاية القرن الحادي عشر برحابة ووفرة لا نظير لهما. كما أن الشعراء المتجولين قلدوا بطريقة واضحة منشدي الزجل. والحق أن الاحترام الفائق للمرأة إذ كان الفرسان يحيونها بالرمح، عندما كانوا يذهبون إلى القتال، والتي من أجلها كانوا يتحملون كل أنواع المحن، لم يكن هذا الاحترام إلا تذكيرًا بالشعر الأسباني –الإسلامي.

وملحمة رولان **La Chanaon de Roland** التي ظهرت في سنة ١٠٨٠، والتي تشكل أثرًا أدبيًا بدائيًا غريبًا مدينة بوجودها إلى الاحتكاكات الحربية التي حدثت من جهة جبال الأندلس وعبره.

وبوساطة أسبانيا الإسلامية أيضًا خضع بوكاشيو[١] وشوسر[٢] وكثير من المؤلفين القصصين الألمان للتأثير العربي. وهي التي أوحت بأعظم أشعار تينيسون

---

[١] شاعر إيطالي معاصر لدانتي وصديق له (١٣١٣–١٣٧٥)، له كثير من القصائد. (المترجم)

[٢] شاعر إنجليزي (١٣٤٠–١٤٠٠)، مؤلف قصص كانتربري، وحاكى الفن الكلاسيكي والإيطالي، ويعد أحد مؤسسي الأدب الشعري في إنجلترا. (المترجم)

Tennyson وبراونج Brawing جمالاً؛ و «الكوميديا الإلهية» لدانتي مدينة كثيرًا إلى الفيلسوف المتصوف ابن العربي في القرن الثالث عشر. وهذا الشعر الخالد من جهة أخرى مليء بالأوصاف العربية في النصوص التي تحكي الرحلة عبر ملكوت السماء والجحيم.

أما من جهة القصة الإسبانية الخاصة بوصف الدساسين والسفلة من الناس، والتي أثرت تأثيرًا يمكن أن نلحظه عن طريق الصور التقليدية في مؤلف لوساج Le Sage فإنها تتشابه بكل دقة مع الوثيقة العظمى المكتوبة في نثر عربي مسجوع، والمخصصة لنشر دروس أخلاقية من خلال مغامرات بطل. وبفضل تأثير الصورة الشرقية، استطاع الخيال الأوربي أن يحرر نفسه من القيود الضيقة والصارمة التي كانت تقيده، وهذا في مجموعة تم بفضل المساهمة الهامة من جانب الشعر العربي. وصورة دون كيخوته Don Quichite الرومانسية هي من جوهر عربي. وكان قد أسر سرقنتس Crvant[1] sé مؤلف هذه القصة في مدينة الجزائر، وكان يقول أحيانًا إن كتابه قد كتب أولاً بلغة عربية، وكانت القصة الفلسفية «حي بن يقظان» لابن طفيل قد أوحت إلى دانيل دفو Dainel Defoe بكتابة قصة روبنسن كروزو.

كان الكاتب الكبير علي ابن حزم (٩٩٤-١٠٦٤)، الذي ينسب إليه أربعمائة مؤلف من مختلف العلوم مؤرخًا متبحرًا. وكتابه عن الملل والنحل إحدى المحاولات الأولى في الدين المقارن ويبين في هذا الكتاب ما في قصص التوراة من متناقضات لم تعرف في أوروبا إلا فيما يعد بخمسمائة سنة تقريبًا. وقد لا يكون من لغو الكلام أن نعيد هنا ما كان يكتبه عن المسيحيين:

«في وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين ولكنهم مع

---

[1] ولد الكاتب الإسباني ميجل دي سرفنتس سافيدرا مؤلف الرواية المشهورة «السيد العبقري دون كيخوته دي لامنشا» في قلعة هنارس –على أرجح الأقوال– من ولاية قشتالة بإسبانيا في عام ١٥٤٧. (المترجم)

هذا يقولون: إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وأن هؤلاء الثلاثة الأب والثاني الابن. وأن الإنسان إله وليس إلهًا. ،أن المسيح قديم موجود من الأزل ومع ذلك فهو مخلوق».

وينبغي أن ننوه هنا بابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦، والذي يمكن المرء أن ينظر إليه على أنه أكبر مؤرخ في الإسلام وأحد العظماء في جميع العصور، فقد عرض ابن خلدون للمرة الأولى في مقدمته لدراسة التاريخ نظرية الواقع التاريخي الذي يأخذ في اعتباره المعلومات الطبيعية في الجغرافيا وفي المناخ كما يأخذ في الاعتبار القوي الأخلاقية والروحية. وهو أول من بحث، وصاغ القوانين التي يخضع لها تطور الشعوب وعظمتها وسقوطها، وأبان المعنى الحقيقي للتاريخ، وبدون شك لم يكن لدينا من هذا المعنى الحقيقي للتاريخ مفهوم واضح كل الوضوح. وقد أوضح المستشرقون الأوربيون في القرن التاسع عشر نظرياته المبتكرة عن تطور المجتمعات.

الفن الإسلامي:

في بداية التاريخ الهجري، لم يكن العرب يمارسون بعد أي نشاط فكري أو فني. وقد أعيد هذا القول عدة مرات. ومع هذا فما زلنا بحاجة إلى تأكيد هذه الحقيقة. لقد كان من الصعب على رجال مكرهين على حياة بدائية، وشاقة، ومهلكة أيضًا أن يدركوا ماذا يمكن أن يكون الفن.

وعند وصول محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة، كان قد رسم على الأرض مربعًا من مائة ذراع، ثم سورة بسياج صغير مصنوع من لبن (طوب) من الصلصال، وبني على أحد الجوانب بعض أكواخ صغيرة غطاها بسقف من الجريد المتشابك، وفي ركن من الفناء كان يجلس –صلى الله عليه وسلم– على حصير ليستقبل أصحابه في ساعة الصلاة.

وكان هذا أول مسجد في الإسلام..

فأي تضاد بين هذه الثلاثة أو الأربعة الجذوع من شجر النخيل التي تسند

السقف المتواضع من الطين المجفف في المدينة وبين الآلاف من أعمدة الرخام المميزة بنمط الحضارات القديمة التي راحت تسند –بعد مائة عام– قباب مساجد العالم الإسلامي المرصعة باللازوردي والذهب.

يا له من طريق قدر عليهم أن يسلكوه كما يفيدوا مما كانت تملكه تلك الحضارات من خير، وكيما يبشروا بها عبر العالم في نفس الوقت الذي يبشرون فيه بكلام الله.

وعندما بدأ الخليفة عمر في السنة السادسة عشرة من الهجرة، الرحيل ليحظى بتسلم بيت المقدس، كان كل ما يملكه من متاع: قصة صغيرة من الخشب، وقرعة من المياه الصافية، وسلة من البلح، وقميصًا وعباءة متواضعة كان يرقعها بنفسه، وكان يقذف وهو غاضب الحكام القادمين لملاقاته بحفنة من الحصى في وجوههم بسبب أناقة ملبسهم وأثوابهم المضحكة.

ولكن، لكي يغزو العرب العالم، كان واجبًا عليهم أولاً أن يرتفعوا إلى عظمة عمر.

كان لزامًا على قرن واحد أن يسد حاجة الحضارة العربية لكي يسترجع الوقت الضائع. فكان هؤلاء البدائيون، وهؤلاء البدو المتعودون الحياة المتقشفة على غير معرفة بالفن أو الثقافة الفكرية بمقدار ما هم عليه من جهل بأناقة الملبس، لكنهم كانوا يملكون إلى أقصى حد ميلاً طبيعيًا خارقًا للعادة إلى المعرفة وقدرة فائقة على التمثل. ومضى كل شيء وكأن استعدادات خامدة، وأذهانًا ساكنة أخذت تنشط فيهم.

الحق أنهم كانوا ورثة جيرانهم الأغنياء بحضارات فارسية وهندية وصينية ويونانية فلم ينتظر تقدمهم الفكري سوى الظروف الملائمة لكي يتجلى.

أجل، كانت المعارف المتجمعة في غضون الفتح العربي في الميدان الفني ضخمة من قبل، ومع ذلك فلا شيء يجاري احتكاكهم باليد العاملة الأجنبية الصناع في تمام تملكها لمهارتها الهندسية أو بمعرفتهم ببعض الطرق الفنية الموروثة عن الماضي وبعبقريتها الأصيلة.

ولم يكن ممكنًا أن يكون نتيجة هذا الاتصال تقليدًا أعمى لمفاهيم فنية لشعوب مغلوبة على أمرها. وفي أقل من قرن، خلق العرب في الحجر فنًا أصيلاً ومميزًا معبرًا عن الاتجاهات الجمالية التي تنبثق عن حالتهم النفسية الجديدة. وكان هذا تأليفة مشرقة لكل ما كان قد منحوه بالملاحظة والإعجاب والحب والإيمان.

ويمكن أن نرى في القاهرة، مسجدًا شيد سنة ٨٧٨، وهو جامع ابن طولون، أقدم جامع بعد جامع عمرو الذي شيد سنة ٦٤٢، وقد حافظ هذا الجامع على أروقته القوطية من بنائه الأصلي. ولم تستند هذه الأروقة إلى أعمدة شأن أكثر الجوامع، بل إلى قوائم ضخمة. واستطاع بدون شك هذا العنصران المميزان من النمط المقوطي أن يوحيا بإقامة كاتدرائيات العصر الوسيط دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن ينهج هذا النهج المطروق لدى العرب. وربما وصلت هذه النماذج حق أوروبا عن طريق صقلية والنورمانديين. وربما نشأت كذلك فواصل النوافذ القوطية من رءوس أقواس برج لاجيرالدا **giralda** في أشبيلية. وظهرت القبة ذات العروق البارزة المزخرفة في العالم الإسلامي قبل أن تظهر في أوروبا. وزين الجامع الأزهر في القاهرة –الذي بني بعد جامع ابن طولون بمائة عام، لكنه سابق مع ذلك كاندرائياتنا القوطية– وعقود قوطية بقرنين. ويبدو أن جامع ابن طولون قد ألهم الأساتذة المعماريين الذين صوروا كاندرائية شارتر **Cbatrés** وصنعوا لها نوافذ من الزجاج الملون وأسوارا من الحجر ذات نقوش من الورد أو مرصعة بالكواكب والنجوم.

وفي طليطلة جامع قديم أصبح كنيسة «مسيح النور» تنافس في جمالها –على الرغم من أبعادها المصغرة– الجامع الكبير في قرطبة. ويمكن بالنسبة لأحد أجزاء حوائطها –ملاحظة التطورات الأولية للفن الإسباني العربي الذي ينتسب إلى نمط صور الكنيسة المنتشر في جميع أشبيلية. وبالبحث عن تأثير الفن الإسلامي تجاه الغرب، يمكن أن نلاحظ أن أبراج الأجراس والقباب تمثل في الغالب المفهوم الأولي للمئذنة الشرقية.

ويجب أيضًا أن نذكر أن القصور والجوامع في الشرق صورت على أنها قلاع، وأن الصليبيين استطاعوا أن يرثوا بعض المعارف في الفن المعماري العسكري الذي كانوا يجهلونه. ونحن مدينون بلا جدال، للعرب بذلك، وبالسور ذي الفتحات المستديرة مع حوائطه الثخينة العالية والمحصنة بأبراج صغيرة والتي كانت المدافع توضع فيها بمنجاة من مرمى السهام. وتشمل هذه الطريقة مبدأ اشتغل بطريقة منظمة في بناء حصون غير قابلة للتدمير.. هذه الحصون كشفت أيضًا –في سوريا– الطريق الذي كانت تتبعه جيوش العالم المسيحي. وقد أسس فيليب الجسور أسوار ميناء اج –مورت **Aigues Mortes** على نمط حصون دمياط.

وفوق الفن المعماري، يتسبب فن الأواني الفخارية في إيطاليا وفرنسا إلى ذهاب صناع الفخار المسلمين في القرن الثاني عشر إلى أوروبا، وإلى رحلات صناع الفخار الأوروبيين في أسبانيا الإسلامية. وتعلم صناع الزجاج في البندقية، وصناع المعادن الدقيقة. والمجلدون الإيطاليون، وصناع الأسلحة الأسبانيون فنهم بالاتصال بالصناع المسلمين. كما سعى صناع النسيج في جميع أنحاء أوروبا في المبحث عن نماذج ونقوش لأنسجتهم في العالم الإسلامي.

(١٥) العلوم الرياضية

إذا كان الفن غير موجود عند العرب، فقد كان ما يملكونه من المعارف العلمية قليلاً. وقد كانت رغبتهم في المعرفة لا تقل عن رغبتهم الجامحة في الثروة، ومن ثم احتفظ العرب بالمدارس السورية والفارسية التي كان يدرس فيها منذ عهد الإسكندر، العلم والفلسفة واليونانيان، ولما كان المسيحيون السوريون لديهم إلمام بعيد الغور باللغة اليونانية، وكان اليهود السوريون يتحدثون اللغة العربية، فإن كثيرًا من المؤلفات نقلت من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، وإلى اللغة العربية. وكان التراث أولاً يونانيًا بخاصة، لكن التأثيرات الهندية سرعان ما انتشرت عن طريق فارس التي كانت تترجم فيها مخطوطات السنسكريتية إلى اللغة الفارسية. وقد شجع الخلفاء هذه الاقتباسات، كما أن كل شيء اتجه إلى اللغة العربية الصالحة كل الصلاح للانتفاع بكل تراث من السريانية؛ ومن اليونانية، ومن الفارسية، ومن السنسكريتية.

الترجمات:

كان أحد أباطرة بيزنطة –يعجب من رؤية بدوي منتصر غير متحضر يضع ضمن الشروط المفروضة حقه في شراء المخطوطات اليونانية، وهذا البدوي غير المتحضر الذي كان يتطلع إلى المعرفة. كان حاكمًا عربيًا، وهكذا حصل الخلفاء بهذه الطريقة وبطرق أخرى، على الكتب اليونانية التي كانت تتناول المعرفة، والرياضيات، والطب. ولم يقصروا أنفسهم على المؤلفات اليونانية: ففي سنة ٧٧٣، كان المنصور يقدم للترجمة مباحثات فلكية هندية ألفت سنة ٤٢٥ قبل الميلاد.

وفي سنة ٨٣٠، وهذا التاريخ يستحق أن يحفظ، بدأ العرب يمارسون الترجمة الضخمة للكتب اليونانية. وحتى ذلك الوقت، كانت الترجمات تتم بجهود فردية

كيفما تيسر. وجمع المأمون المخطوطات للترجمة، وشكل مجموعة من المترجمين في «بيت الحكمة» ووضعها تحت قيادة حنين بن اسحق وهو طبيب مسيحي، وعالم متبحر في العلوم. وقد ترجم حنين بن اسحق هنا مائة كتاب تقريبًا لجالينوس ولمدرسته إلى اللغة السريانية وتسعة وثلاثين مخطوطًا آخر إلى اللغة العربية، منها مؤلفات لابقراط ودسقوريدوس وأفلاطون، كذلك المقولات، والطبيعة، وكتاب الأخلاق لأرسطو، وكانت هذه المخطوطات نقطة الانطلاق لكشوف فكرية.

وبفضل هذه الترجمات، أمكن مخطوطات كانت قد فقدت، أن تحفظ في ترجمتها العربية: وفي هذه الحال يعدل النقل التأليف، وعلى هذا المنوال ترجمت الكتب السبعة «للتشريح» لجالينوس وكتابًا «القطاعات المخروطية» لابولونيوس، و «الحيل» لأهرن و «علم الأهوية» لفيلون؛ وقد شاءت المصادفة أن يكون العلم اليوناني مازال مشرقًا في سوريا عند وصول العرب. ومن ثم، شرح المترجمون شرحًا وافيًا (بالنسبة للغرب) النقط الغامضة في النصوص اليونانية. ولما كان المترجمون علماء مجربين، ومزودين بوثائق غاية في القوة فقد أسهموا في إضافة معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل إلى مؤلفاتهم. وقد بلغوا من نجاحهم ما جعل المنصور يعرض الأموال العامة إلى الخطر بدفع ثمن المؤلفات الجديدة لهؤلاء العلماء بما يساوي وزنها ذهبًا. لكن العمل أخذ يجري بسرعة منذ منتصف القرن التاسع، واستطاع علماء العرب أن يقفوا بلغتهم الأصلية على بعض المؤلفات العظيمة لفلاسفة يونانيين من مدرسة الأفلاطونية الحديثة وكذلك بالنسبة للمؤلفات العلمية والهندية والفارسية والسريانية.

الكيمياء:

هل هو واقع الظروف أو واقع ذكاء العرب الفطري أن يشغفوا بما يثير الإعجاب. فقد أمر خالد بن يزيد بترجمة الكتب القديمة في الكيمياء إلى اللغة العربية. وهذه كانت الترجمات الأولى، وقد مضى عليها الآن ألف ومائتا سنة. وأنشأ

خالد مدرسة أقامها في مصر على الأرض التي اختيرت لدراسة الكيمياء، لكن هذا العلم على الرغم من غموضه، انتشر بسرعة في الشرق كله. وكان الكيمائيون يتكاثرون بسرعة عليه، ويقول عبد اللطيف البغدادي أن كثيرًا من بينهم كانوا يعرفون «ثلثمائة حال للتمويه» وكان منهم مع ذلك علماء حقيقيون. ورأت مدرسة يزيد ثمرة نجاحها في جابر بن حيان الذي ولد في القرن الثامن والذي ظل حتى أيامنا هذه أسمى دلالة على الكيمياء.

وقدم برتلو **Berthelot** في تاريخه للكيمياء في العصر الوسيط ترجمة فرنسية لإحدى رسائل جابر، ويشير إلى أنه إذا كان حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة الهدف الرئيسي لبحوثهم. فإن الكيمائيين حققوا كشوفًا صادقة وعملية. (ومن المتفق عليه أنه يجب علينا هنا ألا نخلط علم الكيمياء بالسيمياء) وتقوم طريقتهم المثلى في العلم من جميع طرق ذلك العصر على ملاحظات دقيقة، محققة، لكن الذي يجدر بنا أن نلاحظه هو أن الكيميائيين راحوا يمارسون عمليًا ما لم يختبر قطعًا من قبلهم، وأوجدوا بطريقة صناعية ظاهرة الملاحظة: أعني التجربة، فقد اخترعوا آلة التقطير، وباشروا تحليل عدد كبير من المواد، وانتهوا إلى تمييز وتعريف القلويات والأحماض وكذلك علاقاتها، وأعدوا بضع مئات من العقاقير. ويلاحظ في كتاب عربي قديم لم يترجم طريقة صنع الزجاج بطريقة صناعية؛ وقد كشف من جديد أوروبا لحسابها هذا السر أثناء القرن السادس عشر.

ويعد اسم جابر الساحر بالنسبة لعلم الكيمياء شبيهًا باسم ابقراط وبالنسبة لعلم الطب ونذكر من بين مؤلفاته الكثيرة الأكثر تواترًا «كتاب الرحمة» و «كتاب الوصية» و «كتاب تحصيل الكمال» الذي ترجم إلى الفرنسية. ووصف الحامض الأزوقي، والماء الذي يحلل به الذهب والبطاطس، وملح النشادر، ونترات الفضة،

---

[1] كيميائي فرنسي ورجل سياسة (١٨٢٨-١٩٠٧)، مؤلف كتاب عن تاريخ تركيب الأجسام العضوية والكيمياء الحرارية، كان عضوًا في مجمع العلوم الفرنسية. (المترجم)

والسليماني، وأخيرًا العمليات الكيميائية الأساسية كالتقطير، والتصعيد والتبلور. وكان يحصل على الحامض الكبريتي بتقطير سلفات الحديد، والكحول بتقطير مواد نشوية أو سكرية مخمرة، وعلى الجملة حول جابر نظريات أرسطو في تركيب المعادن، إلى مفهوم بقي دون تجديدات هامة حتى بداية الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر، وحققت بقوة كثير من المؤلفات المنسوبة إلى جابر التي لا تحمل توقيعه، والمترجمة إلى اللاتينية تقدم الكيمياء في أوروبا، لكن بعد أن كان قد استخلصها المسلمون من كل مادة.

الرياضيات:

لقد أمكن الأعداد التي يقال عنها إنها «عربية» أن تنقل من الهند إلى العالم الإسلامي عن طريق المباحث الفلكية التي ترجمت تبعًا لأمر المنصور. وكان الخوارزمي وهو أحد كبار الرياضيين في العصر الوسيط يستخدم أعداد الهند في التقويمات الفلكية. ونشر الخوارزمي في سنة ٨٢٥ رسالة تعرف في اللاتينية باسم **Algorimi de numeoro indroum** «أي الخوارزمي عن أرقام الهنود». ومن أجل هذا استخدمت كلمة الخوارزمية لتعني كل طريقة مؤسسة على العلامة العشرية.

وفي سنة ٩٧٦، كان محمد بن أحمد (الخوارزمي) في كتابه «مفاتيح العلوم» يفترض استخدامك دائرة صغيرة لكي «تحافظ على مرتبة الأعداد» إذ لم يظهر أي عدد في خانة العشرات. وهذه الدائرة التي نشأ منها الصفر **Zéro** لا تمثل إلا الترجمة اللاتينية للكلمة العربية «الصفر» التي تعني «فراغ». بيد أنه لا اليونانيون على الرغم من ثقافتهم، ولا الرومانيون على الرغم من طريقتهم الفنية استطاعوا أن يكشفوا أيضًا طريقة للعد. وكان الأقدمون يعدون على أصابعهم، وعلى ذلك ظلت ممارسة الحساب صعبة في الغرب حتى بعد اختراع محمد بن أحمد للصفر بمائتين وخمسين سنة.

واليوم، لا نصل إلى تعليل البطء الغريب الذي أحدثه الأوروبيون في استخدام

الأعداد العربية، إذ لم يكن بسبب جهل عام. وكان أول من انتفع بالأعداد العربية إيطالي قدم من أفريقية الشمالية في سنة ١٢٠٢ وكان الاختراع مع ذلك عبقريًا، ويستطيع المرء أن يقول دون سخرية إن الصفر كان يعد من بين أهم فتوح الجنس البشري.

وكلمة الجبر تأتي من العربية الـ –جبر (رد الشيء إلى حالته الأولى) ويعني أنه يمكن المرء أن يضيف مقدارًا ذاتيًا إلى طرفي معادلة. ويظل أعظم رياضي في ميدان الجبر أيضًا «محمد بن موسى»، وهو الخوارزمي صاحب أعداد الهند وكان هو الذي أعطى في كتابه «حساب الجبر والمفاضلة» حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية. وهذا المؤلف الذي ترجمه جيرار الكريموني في القرن الثاني عشر، انتفع به على أنه نص هام في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر. وعلم الجبر لعمر الخيام الذي ترجم إلى الفرنسية في سنة ١٨٥٧ تميز عن كتاب الخوارزمي ومؤلفات اليونانيين. ونشر الخيام وهو يتابع دراساته في مؤلف آخر في الجبر انتقاداته الخاصة المتعلقة بمصادرات إقليدس وتعريفاته. ونعد الحل الجزئي للمعادلات التكميبية التي يقترحها أنها أعلى ذروة في رياضيات العصر الوسيط. بيد أن عمر الخيام عرف في أوروبا بخاصة «برباعياته».

وكان عبد الله البيروني (٩٢٩) الذي أنشأ بحق حساب المثلثات الحديث، قد أحل محل التحليلات المربعة الزوايا لبطليموس– التحليلات المثلثة الزوايا. والجيب محل وتر أبرخس وأدخل خطوط التماسن وأسس النسب الحسابية المثلثة الهامة في الشكل الذي نستخدمها فيه اليوم. وإذا كانت الجيوب والجتا والقتا المتماسة، والقتا، وذو الحدين، وحساب المثلثات الكروي لا تتجاوب بقدر كاف مع الذهن، أمكن أن نثق في مؤرخي العلوم الذين يثبتون أن «العرب هم الذين كانوا أساتذة الرياضيات في عصر حضارتنا، لا اليونانيين».

وقد تم أهم تقدم في الرياضيات في بلاد مراكش وفي أذربيجان فقد وضع

حسن المراكشي (من مراكش) الجداول الأولى للجيوب ولأقواس الجيوب، وللأقواس المتماسة منذ عام ١٢٢٩. وبعد ذلك بقليل أثيرت دراسة حساب المثلثات إلى أبعد مدى على يد نصير الدين الطوسي الذي ظهر في كتابه «شكل القطاع» على أنه رائد علم حساب المثلثات الصيني.

الفلك:

كان علم الفلك قد ظهر على شواطئ نهري دجلة والفرات قبل قدوم العرب بأكثر من أربعة آلاف سنة. وقد كشفت مقتطفات من بحث فلكي مؤرخ بـ ٣٨٠٠ قبل الميلاد. وقد رسمت الظواهر السماوية وأقسام الشمس الكبيرة للكلدانيين على صفائح من الصلصال. وكان علماؤهم في التنجيم «يحاولون أن يتنبأوا بحالات كسوف القمر، وكان النجاح يحالفهم أحيانًا في هذه المحاولة» وكانوا يعتقدون في تأثير الكواكب على مصير الإنسان، واتجهت دراسة هذه التأثيرات الكوكبية إلى تحديد دقيق لشكل العالم السماوي. ومن ثم، استطاع علم التنجيم أن يصبح أم علم الفلك.

وقد درس الموضوع دراسة بشيء يستحق الاعتبار على يد بيجوردان[1] **Bigouidan** الذي كتب يقول: «يمكن أن نقر بوجوب دراسات ترجع إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد، بل إلى ما هو أبعد أيضًا». وكان كيدينا **Kidina** الذي نوه عنه سترابون وبليني «الشيخ» يستخدم–لكي يتنبأ بحالات كسوف القمر– طريقة حسابية لا «تختلف اختلافًا هامًا عن طريقتنا» واختتم «بيجوردان» كلامه بتأثر بعض الشيء: «في هذا التعاقب الطويل من البشر والأفكار: نلمح في الذروة المقيمين المثابرين والحساب الذي لا يكلون عن العمل في مراصد بابل، وبورسبيا **Borsippa**، وارك **Ereck** وسيبارا **Sippara** ونينوي **Ninive** ونيبور **Nippur**.

---

[1] عالم فلكي فرنسي، ولد في سيسيتل، ومات في باريس (١٨٥١–١٩٣٢)، تناولت أعماله في هذا الميدان طرائق قياس موقع الكواكب. (المترجم)

لم يكن إذن مرصد بغداد الذي أنشأه الخليفة المأمون على ارض كلديا القديمة إلا الوريث الوحيد لمرصد بابل، لكنه كان منشأة علمية وهب له مال وفير، وهيئ له مجموعة من علماء الطبيعيات ألفوا بالفطرة البحث الفلكي. وتشكل دراساتهم التي لا حصر لها سلسلة مستمرة طيلة قرنين. وقد كتب سيديو[١] في موضوعهم: «إن مما تتصف به مدرسة بغداد منذ البداية، تفكيرها العلمي: وهو الانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتحقيق الدقيق للظواهر السماوية، وعدم قبول أي حدث على أنه حدث صحيح يبرهن به ما دام أن هذا الحدث لم تؤيد حقيقته عن طريق الملاحظة».

كان لعلماء الفلك المسلمين في عصر حضارتنا نفس تأثير علماء الرياضة. وكتب الفرغاني[٢] حوالي عام ٨٦٠ نصًا فلكيًا أثر تأثيرًا كبيرًا في أوروبا طيلة سبعمائة عام.

وكشف البتاني الذي أدرجه لالاند في جملة عشرين عالمًا فلكيًا مشهورين في عام ١٩٢٠ رجوع نقطتي الاعتدال، وميل مستوى الفلك بتقريب ملحوظ بالقياس إلى التقديرات بكثير من الدقة أيضًا.

وكشف أبو الوفا الانحراف الثالث للقمر قبل تيخو براهي[٣] **Tycho Brahe** بستمائة عام.

والاسطروب الذي كان الموضوع الرئيسي في بحث إبراهيم الزرقالي، تصوره العرب وأنشئوهن ووصل إلى أوروبا في القرن العاشر واستخدمه الملاحون حتى القرن السابع عشر، وإبراهيم هذا هو نفسه إبراهيم الزرقالي الطليطلي الذي برهن

---

[١] مستشرق فرنسي (١٧٧٧-١٨١٣)، انقطع لدراسة الشرق، مؤلف كتاب «تاريخ العرب». (المترجم)

[٢] من أهل فرغانة وهي ولاية وراء نهر جيجون. (المترجم)

[٣] فلكي دنمركي (١٥٦٤-١٦٠١)، وضع نظامًا فلكيًا يختلف عن نظام بطليموس وكوبرنيق، كان أستاذ كبلر (المترجم)

في القرن الحادي عشر للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالقياس إلى النجوم. وظلت «الجداول الطليطلية» المتعلقة بحركات الكواكب السيارة لمدة طويلة قاعدة علم الفلك في أوربا. وقد فتح البطروجي الطريق أمام كوبرنيق[1]، وكان ينقض النظرية المشهورة عن دوائر الأفلاك وتماس هذه الدوائر التي فسر بها بطليموس مسار النجوم وحركاتها. وكان لزامًا على عمر الخيام الشاعر الرياضي الكبير ألا يبقى مختلفًا، وقد عهد إليه مع علماء آخرين بإصلاح التقويم الفارسي. وأدت هذه الأعمال العجيبة الدقيقة إلى توضيح خطأ يوم واحد كل ٣٧٧٠ سنة على حين أن التقويم الجريجوري يتطلب تصحيح يوم كل ٣٣٦٠ عامًا. ومع ذلك لم يعتمد هذا التقويم وفضل عليه التقويم الإسلامي.

«ويقول بيجوردان يمكن أن توضح خلاصة النتائج التي حصل عليها الفلكيون العرب بالطريقة التالية. فبالنسبة إلى المجموعة الشمسية أتاح علم الفلك العرب تحديدًا أكثر دقة لاختلاف مدار الفلك طول السنة، وكشف البعد الأقصى لمدار الفلك والانخفاض المطرد لمداره. وفيما يختص بالقمر، أدت تجربتهم، وحسابهم إلى كشف تقلب أكبر خطوط العرض، أعني انحناء المدار، وربما كان لدى العرب معرفة بنسبة التباين الثالث الذي سمى وقت ذاك تحولا.

ويمكن أن نضيف إلى هذه النتائج الأصلية التحديد الجديد لمواضع بعض النجوم وتقديرًا أدق للمعانها، بالموازنة بينها وبين التقديرات التي اتخذت على يد بطليموس وفي الوقت نفسه لمعرفة أصح لرجوع نقطتي الاعتدال. ويروى بيجوردان زيادة على ذلك الجهود العربية في وضع الجداول الفلكية، وتحديد الساعة، والاستفادة من تحديد ارتفاع الكواكب في تحديد وقت أية ظاهرة.

وجدير بنا أن نثبت الخلاصة الشاملة التي اختتم سيديو بها كلامه في الفلك

---

[1] عالم فلكي بولوني (١٤٧٣-١٥٤٣) اهتدى إلى حركة الكواكب المزدوجة- حول نفسها وحول الشمس. حاكمته الكنيسة بسبب قوله بدوران الأرض حول الشمس. (المترجم)

«في نهاية القرن العاشر، بلغت مدرسة بغداد ذروة المعارف التي كان من الممكن أن تحصل عليها دون الاستعانة بالعدسات والمناظير المكبرة».

الجغرافيا:

طبق المسلمون معارفهم الرياضية على الجغرافيا كما طبقوها في الفلك. وعندما اقتنعوا بأن الأرض مستديرة، قاسوا درجة من دائرة نصف النهار بأن رصدوا موضع الشمس في تدمر وسنجار في السهل الشمالي من نهر الفرات. ووفقًا لتقديراتهم بلغ طولها ستة وخمسين ميلاً عربيًا وثلثي ميل، أي بزيادة ثمانمائة وستة وستين مترًا على أكثر تقدير، وهي نتيجة تستحق النظر.

ويجب ألا ننسى أن العرب كانوا قد ترجموا مؤلفات بطليموس، وأصلحوا كثيرًا من أخطائه ولم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقي في جغرافية أوربا، لكنه الإدريسي الذي ولد في سنة ١١٠٠، وتخرج في قرطبة والذي كان يعيش في بالرمو في بلاط روجار الصقلي في منتصف القرن الثاني عشر. ومصورات الإدريسي التي تعترف بكروية الأرض كانت تتويجًا لعلم المصورات الجغرافية في العصر الوسيط بوفرتها وصحتها واتساعها. وفي الكتاب الذي ألفه باسم روجير، ويسمى كتاب روجار، أو الكتاب الرجاوي والمعروف بكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قسم العالم الجغرافي اعتمادًا على موازنة بين الأرض والكرة سبعين جزءًا رسم لكل جزء مصورًا وصف به جميع النواحي الخاصة.

في هذا الموجز السريع، يجدر بنا أن نقر أنه بمقاييس الفلك كشف العرب عن الأخطاء الجسيمة لبطليموس في البحر المتوسط. لأن مقاييس المسلمين لخط العرض صحيحة فيما عدا بضع دقائق، ومقاييس بطليموس تتكشف عن خطأ يبلغ عدة درجات.

لقد قام العرب، وهم محنكون في علم الجغرافية بأسفار كثيرة. ففي سنة

٨٥١ نشر مؤلف عربي غير معروف قصة رحلة في الصين قبل رحلة ماركوبولو[١] بأربعمائة وخمسة وعشرين عامًا. وفي القرن التاسع، قدم ابن خرداذبة بدوره وصفًا غزيرًا عن الهند وسيلان والولايات الشرقية الهندية والصين. وفي سنة ٨٩٥، نشر أخيرًا المقدسي كتابه في وصف الإمبراطورية الإسلامية المسمى «أحسن التقاسيم» والذي عد أعظم كتاب في الجغرافيا العربية قبل كتاب البيروني عن «الهند».

وينفرد اسم من بين هؤلاء الكاشفين العرب الكبار، هو أبو عبد الله ياقوت الحموي صاحب «معجم البلدان»[٢] (١١٧٩-١٢٢٩) وهو عبد يوناني أعتق، وتجول في العالم العربي، وشرع يعلم نفسه بنفسه، واطلع على مكتبات مرو، وطشقند القديمة وبلخ، وعرف كل ما فيها من كنوز المعرفة، وقد فرض عليه وهو ذو عقل مبتكر، وناقد نزيه أن يشتغل بالنسخ مثل كثير غيره، لكي يستطيع أن يهيئ لنفسه معاشًا يوميًا متواضعًا. وقد وجد مع ذلك وهو مشغوف بالمعرفة الوقت الذي استطاع أن يؤلف فيه موسوعة جغرافية تمثل مجموعة معارف العصر. ولم يولع أحد حبًا بالعالم الأرضي قدر هذا العالم المتجول.

علم النبات:

اشتهر علم النبات أيضًا على يد الإدريسي الذي أشار إلى فائدة ٣٦٠ نوعًا من النبات في تركيب الأدوية.

وفي سنة ١٢١٦، أخصى أبو عباس الأشبيلي الذي استحق لقب «النباتي» في دراسة حياة نباتات قاع البحر. وفي سنة ١٩١٠ اشتهر بخاصة ابن العوام

---

[١] رحالة إيطالي ولد في فينسيا (١٢٥٤-١٣٢٤) عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا، وعاد عن طريق سومطره بعد أن قضى سبعة عشر عامًا في خدمة خان كوبلاي الأكبر، جمع قصة رحلاته في كتاب «ماركو بولو» يعد هذا الكتاب وثيقة هامة وموسوعة جغرافية عن أسيا. (المترجم)

[٢] موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى، ولم يكن يترك شيئًا من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة من فلك وطبيعة وعلوم الآثار والجغرافيا البشرية والتاريخ. (المترجم)

الأشبيلي «بكتابه عن الفلاحة» الذي وصف النبات، وأشجار الفاكهة، وأنواع التربة الهامة، والأسمدة ويمكن أن يعد هذا الأخصائي في فن الزراعة أعظم أستاذ في العصر الوسيط في مادة الزراعة.

علم الطبيعة:

لقد كان علم المناظر لبطليموس، في تقدير بيجوردان الأثر الوحيد لعلم الطبيعة التجريبي والذي أمكن كشفه من بين المؤلفات اليونانية، ولم يقدم العرب على القضايا الأساسية للطبيعة النظرية إلا بعد أن ترجموا مؤلف بطليموس في هذا العلم.

ومنذ بداية القرن التاسع، بحث الكندي عن القوانين التي تخضع لها الأثقال من حيث جنبها وسرعتها.

وفي كتاب له عن علم المناظر مقتبس من كتاب لإقليدس درس الكندي الظواهر الضوئية. وكان لابد لهذا المؤلف أن يحدث تأثيرًا كبيرًا في الشرق مثل تأثيره في الغرب وبعده بقليل، أحدث أبو الحسن ابن الهيثم الذي كان يعيش في القاهرة (٩٦٥–١٠٣٩) وثبة كبيرة في تطور البصريات وفزيولوجية الأبصار. وأوحى بحثه في علم المناظر الذي ترجم إلى اللاتينية وإلى الإيطالية بأبحاث علماء الفيزيقا.

كان ابن الهيثم على وشك كشف العدسة المكبرة إلى حد أن روجيه باكون، وفيثلو وأوربيين آخرين اعتمدوا على جهوده فيما بعد بثلاثة قرون، وذلك في بحوثهم الخاصة المتعلقة بالمجهر وبالتلسكوب. ولما كان بن الهيثم قد ناقض نظرية إقليدس وبطليموس بشأن الإبصار، فقد قدم وصفًا صادقًا عن العين، وعن العدسات، وعن الإبصار بوساطة العينين. وبحاسة مطبوعة حقًا، وصف ظواهر انكسار الأشعة وهو أول من نوه باستخدام الحجرة السوداء، وهي أساس التصوير

الفوترغرافي. وفي القرن التاسع عشر، كان الرياضي شال[1] يعد بحث ابن الهيثم «أنه كان أصل معارفنا في علم الضوء» وكان الفلكي بيجوردان –الذي ذكر سلفًا– يحكم على نظرية ابن الهيثم في علم الضوء: بالتفوق على نظرية بطليموس. ويلاحظ فيها بخاصة الحل لمسألة حلت بالتحليل كانت تعتمد في حلها على معادلة من الدرجة الرابعة «وإنما اقتبس فيتلو وهو عالم بولندي من القرن الثالث عشر من هذا المؤلف اقتباسًا مثمرًا في تحرير بحثه الخاص عن علم الضوء، وهو أول مؤلف ألف على يد أوروبي، وإلى أن ظهر كيلر، وليونارد كانت البحوث الأوروبية في الضوء تعتمد على مؤلفات ابن الهيثم. فلا مغالاة إذن في القول بتأثيره في المعرفة الأوروبية.

وطوال الألف سنة الشديدة الظلمة في تاريخ العصر الوسيط، كان يشع اسم عالم عبر العالم الإسلامي: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الذي قدر له أن يبلغ شهرة جامعة. فقد ترك البيروني الفيلسوف والمؤرخ، والجغرافي، والرياضي، والفيزيقي، واللغوي والشاعر، في هذه الميادين المختلفة مؤلفات هامة جعلت منه ليونارد[2] دي فنس في العالم الإسلامي.

ولد في سنة ٩٧٣ في خوارزم بالقرب من طشقند القديمة جنوب بحر أورال بعد موسى مخترع علم الجبر بقرنين. ودفعته مواهبه إلى بلاط محمود الغزنوي، فاتح تركستان، والذي قدر له أن يكون له أول إمبراطور مسلم في الهند وارتبط هذا الطاغية المولع بالحرب الذي كان يحب العلماء والآداب بالبيروني الذي كانت لديه الفرصة لدراسة الهند على حين أن حاكمه الذي لا يحتمل كان يمضي وقته في تدميرها.

---

[1] رياضي فرنسي ولد في إيرنون (١٧٩٣–١٨٨٠).

(المترجم)

[2] رسام إيطالي ولد في فانس بالقرب من فلورانس. ومات في فرنسا (١٤٥٢–١٥١٩)، كان مثالاً ومهندسًا معماريًا، وعالمًا في الطبيعة، وفيسلوفًا، وكاتبًا وشاعرًا وموسيقيًا، برع في هذه الفنون كلها، ويعد من العباقرة الذين ظهروا في عصر النهضة. (المترجم)

وفي مقدمة كتابة الأول «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ولما يتجاوز الثلاثين من العمر، كتب بسذاجة الشباب يقول: «بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة، والتعصب والتظافر وإتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك». وكان هذا منهاجًا وفي الوقت نفسه جهرًا بعقيدته الدينية. وكان البيروني ينتمي إلى الجماعة التي انشقت تؤيد شعوبية الفرس والتي كانت تعارض أهل السنة في العالم الإسلامي، ويقال إنه كان ذا ميل خفي إلى مذهب اللاأدرية. ولم يستطع هذا العالم وهو ذو طبيعة حساسة ومثالي أن يغفر تدمير حضارة الساسانيين[1] الشامخة التي قضى عليها العرب. وكانت نزاهته أسطورية، ويحكى أنه كان يرد غالبًا إلى بيت المال الأموال التي كانت تمنح له.

وربما تفسر هذه السمات الخلفية موضوعية هذا الكاتب، وأمانته العلمية النادرتين، «ونقده في فحص الترجمات والنصوص وكتبه المفهومة والدقيقة والمدققة في العرض غالبًا ما تعترف بالقصور وتعد بمتابعة البحث إلى أن تظهر الحقيقة».

ومؤلفه الرائع هو «تحقيق ما للهند من مقولة» الذي ظهر في سنة ١٠٣٠ ولم يتبع المؤلف –مع أنه ثقة– طريقة السرد في التاريخ للهند بل بدأ بترتيب «الأساليب المختلفة للمؤرخين المخادعين» الذين كتبوا التاريخ ورجحوا قيمة شواهدهم. ولما تناول الجزء السياسي من هذا المؤلف، درس دراسة مطولة تأثير الدين والفلك الهندي، ثم وازن بين مفكري الهند وفلاسفة اليونان واختتم مؤلفه مكرمًا هؤلاء الآخرين.

---

[1] هذا التأويل يخالف الثابت من أمر البيروني وهو القائل: وللهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية ... والساسانيون هم من سلالة أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء «كاياني» الذين كونوا مجتمعًا مستقرًا في بلاد الفرس، ولم ينته بالفتح الإسلامي حكم الساسانيين فحسب، بل انقرضت الأسرة كذلك. (المترجم)

وهو مترجم ممتاز، وفي نفس الوقت لغوي، ونحن مدينون له بترجمة مؤلفات عديدة في السنسكريتية إلى اللغة العربية، كما ترجم بنفس السهولة «أصول إقليدس»، و «المجسطي» لبطليموس إلى السنسكريتية.

أطلق عليه المؤرخون الإسلاميون لقب «الشيخ» الذي يعني في هذه الحال «معلم الذين يعلمون» وشهرته جدير بها كل الجدارة. وقد اهتم هذا المفكر العجيب الذي لم يكل بكل شيء ما عدا الطب. ففي الفلك، سلم البيروني بأن الأرض كانت مستديرة، ولاحظ «جاذبية جميع الأشياء تجاه مركز الأرض، وأوضح أن الوقائع الفلكية يمكن أن تفسر كذلك بافتراض أن الأرض تدور كل يوم حول محورها وكل سنة حول الشمس، كما تفسر بالغرض المقابل لذلك، واستهدفت ملاحظاته التي لا حصر لها شروحًا تتعلق (بخريطة) العالم، وأتاحت له أخيرًا أن يحرر جداول فلكية.

وفي الطبيعة، قاس البيروني الأوزان النوعية باستخدام مقياس كثافة من اختراعه الخاص. ووضع على هذا المنول المبدأ الذي يثبت أن الوزن النوعي لشيء ما يتناسب مع حجم الماء الذي يزيحه، وهو الذي أثبت أيضًا –في ميدان أكثر اتساعًا للعمل– حركة مياه الآبار الارتوازية عن طريق مبدأ الأواني المستطرقة.

وهو عالم هاو، وصاحب مذهب توفيق عالمي. وألف في الرياضيات أجود شرح في العصر الوسيط عن الأرقام الهندية، وكذلك في الهندسة، اقترح البرهنة على نظريات جديدة، أما في التاريخ، فيحكى عهود محمود الغرنوى وملوك معاصرين له وأخيرًا وضع تقويمًا وسجل الأعياد الدينية بحسب مذاهب شعوب الشرق الدينية وشعائرهم. ولما كان البيروني قد ألف كتابه بأعظم عناية فنية، فقد عد نموذجًا للنزاهة العلمية.

وتشير مؤلفات البيروني التي كانت معاصرة لمؤلفات ابن سينا «الشيخ الرئيس» وابن الهيثم عالم البصريات والفردوسي الشاعر الملحمي الكبير في فارس،

تشير إلى أن الفترة التي تمتد من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر من الممكن أن ينظر إليها على أنها أوج العصر الوسيط.

وفي هذا العصر نفسه، وفي نهاية العام الألف، كان الغرب الذي حكم عليه بالإرهاب ينتظر نهاية العالم.

(١٦) التطبيقات العلمية

الورق:

الورق بلا نزاع إحدى الإسهامات النافعة جدًا، والتي جلبها العالم الإسلامي إلى أوروبا. ومن المعروف أن العرب تعلموا في سمرقند في تعطين الكتان لكي يصنعوا منه عجينة تحل محل جلد الماعز والرق. ثم خطرت لهم فكرة استبدال ألياف القطن الوفير جدًا في بلاد ما بين النهرين ومصر بألياف الكتان. ومنذ ذلك الوقت تقدمت صناعة الورق تقدمًا سريعًا وخارقًا للعادة. ذلك أن الورق كان يمهد السبيل بسرعة إلى صناعة الكتب، وهذه الصناعة شرط هام وضروري لاكتساب المعارف. وفي التقدم الثقافي، يمثل الورق عدته وآلاته، ويخلق شرطه المادي، فالنشاط الفكري الذي لا غنى عنه في بلوغ الحقيقة، في حاجة مع ذلك إلى سبيل يحفظ المعرفة ويبقيها على مر الزمان.

ويمكن أن نزعم مع ذلك –دون الحذر من المبالغة– أن ظهور الورق الرخيص الثمن شكل نقطة الانطلاق لعصر جديد، وكانت الكتب التي تكتب على الرق أو على ورق البردي ذات ثمن مرتفع جدًا إلى حد العزرف عن الشراء.

واقتضى الحال مع ذلك كثيرًا من الوقت لكي يصل هذا الاختراع إلى الغرب. ذلك أنه في سنة ٧١٢ كان العرب قد فتحوا سمرقند التي كان قد قدر لها أن تكون أساس انتشار الورق عبر العالم. ولم يقم المصنع الأول، مصنع بغداد إلا في سنة ٧٩٤. وتبدأ مصر بدورها صناعتها للورق في سنة ٩٠٠ وتتبعها بلاد مراكش في سنة ١١٠٠ فقط. وأقدم وثيقة أوروبية على ورق حقيقي أمر حررته زوجة روجار الصقلي باللغة اليونانية واللغة العربية في سنة ١١٠٩، وكذلك المصنع الإسباني في شاطبه التي أمدت أوروبا العربية بالورق، وكان الجزء الشرقي من أوروبا يتزود مباشرة من لبنان. وانتقلت رويدًا رويدًا صناعة الورق من أسبانيا إلى فرنسا، ومن صقلية إلى إيطاليا.

ويمكن أن ينظر إلى توقيت ظهوره في فرنسا مع عودة الصليبين على أنها غلطة تاريخية. ومن المؤكد من جهة أخرى أن الصليبيين كانوا قد تعلموا في مصر طريقة طبع الأنسجة على صفائح من الخشب، وهذه الطريقة الفنية التي كان الأقباط يعرفونها منذ وقت طويل أمكنها أن تساعد على تقدم الطباعة في أوروبا.

كانت الطريقة الفنية الإسبانية من قبل متطورة جدًا. ففي قرطبة، كان كاتب الخليفة عبد الرحمن يصدر الوثائق الرسمية في كثير من النسخ بمساعدة مطبعة بدائية ما زلنا نجهل كيف كانت تعمل، ولعل ذلك يتيح لنا أن نلاحظ أن سكان جنوا وهم أكثر بصيرة كانوا قد عرفوا أن يستوردوا من فارس في القرن الثالث عشر سر طبع أوراق النقد بطريقة الحروف المتحركة قبل أن يتلاشى بسبب إفلاس بيت المال.

صناعة الزجاج:

كانت صناعة الزجاج وأصلها من فينيقية قد بلغت الكمال في الشرق الأدنى، وقد أدخل هذا الفن في الشرق الأدنى وفقًا لشروط صحيحة متعاقد عليها بين بوهموند السادس أمير أنطاكية، وكونتاربي دوق البندقية في أول يونية عام ١٢٧٧. وكان كل شيء يستورد من سوريا: المواد الأولية، وسر الصناعة والصناع الذين كانوا يختارون في بداية الأمر من بين العرب. واحتكرت الجمهورية صاحب الفخامة بتكتم شديد صناعة الزجاج وأسرارها حتى القرن السابع عشر الذي أذيعت فيه صناعة الزجاج في فرنسا على يد كولبير.

ويلاحظ أن صناعة المرايا واستخدام الزجاج الخاص بالكنائس وفي بالرمو منذ القرن الثاني عشر إنما يرجع لنشاط العرب، وذلك أن ابن فرناس أول من صنع البلور في معمل قرطبة. وكانت خزانة الفاطميين تحتوي على ألف آنية من البلور الخام الذي لم يبلغ اليوم من الإتقان ما بلغه في ذلك الوقت.

وإلى جانب صناعة الزجاج، كان إحياء صناعة الأواني الفخارية في إيطاليا وفرنسا يرجع إلى وصول صناع الفخار من المسلمين في هذين القطرين في القرن الثاني عشر.

المنسوجات:

يقال إن الشرقيين كانوا يهتمون دائمًا بالمظاهر الخارجية، وكانت كثرة الملابس عندهم ضربًا من ضروب الفخفخة، وإذا لم يكن التجمل انعكاسًا للذكاء وللمعرفة، فإنه لا يعبر كذلك عن مزايا خاصة، مثل الرفاهة أو الذوق أحيانًا، وكان هذا حقيقيًا بخاصة بالنسبة لعصور الترف وحب الظهور. وعندما كان أي خليفة يمنح خلعة كان يقصد بها الإنعام بتكريم وبهدية ثمينة معًا. وهنا يجدر بنا أن نتذكر هذا التوقيع الذي وجد في سجلات هارون الرشيد: «٤٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية، ثمنًا لخلعة للوزير جعفر، بن يحي..» وقد وجدت هذه الكلمة «خلعة» في هذا التوقيع وكذلك ثمن «الخلعة» مما يدل على أنها هدية فاخرة. وكان إنتاج المنسوجات الحريرية والأقمشة المطرزة بالذهب أو الفضة أو الحرير، والوشي، والقطيفة المنسوجة بالذهب قد خطا خطوة كبيرة في الشرق. وبهت الصليبيون من ذلك، ولم يغتروا عن توريد هذه المصنوعات إلى أوروبا بمقادير خطيرة جدًا بالنسبة لاقتصاد بلدهم الخاص حق إن أحد الملوك الفرنسيين اتخذ احتياطات للحد منها.

وفد رؤى أن استيراد طريقة هذه الصناعة أجدى، وبدأت صقلية فكان أحد ملوكها النورمانديين وهو روجار الثاني الذي كان يطلق عليه الملك نصف الوثني — يرتدي ملابس مطرزة كانت قد نسجت في منسج أقامه الملوك المسلمون في القصر الملكي في بالرمو. وكان هذا المنسج هو الذي صنع حلل احتفالات الملوك الأوروبيين وعظماء الناس في أوروبا.

كانت الأنسجة الموسلينية (الموصل) كما يدل عليها اسمها، والدمشقية، والأطلسية (اسم ألماني من الساتان) وحرير حلب تأتي من الشرق الأدنى. وقد حافظت هذه الأنسجة على أسمائها حتى عندما نقلت صناعتها إلى فرنسا وأوربا في القرن الثالث عشر، وفي الوقت نفسه نقلت صناعة السجاجيد تبعًا للطرق الفنية الشرقية.

الجلود:

ازدهرت صناعة الجلود بخاصة في قرطبة التي انتقل منها فن طباعة الجلود ودبغها إلى بلاد مراكش. ومن هذين البلدين، أدخل في فرنسا وفي إنجلترا بأسمائه الأصلية صناعة الأحذية أو تجارة الأحذية والجلود المراكشية.

وقام الصناع الشرقيون بعد ذلك بقليل بتعليم الصناعات الجلدية وزخرفتها. وظهرت الطرق الفنية الخاصة بالتجليد العربي على الكتب المسيحية في القرن الخامس عشر، ومن مظاهر هذه الصناعة الكعوب الجلدية التي تقصر على حافة صحائف الكتاب.

المعادن:

عرف فن صناعة المعادن في الشرق منذ أزمنة مغرقة في القدم. وكان أصل هذه الصناعة صينيًا. لكن صناعة المعادن الصلبة الدقيقة بلغت جودتها في دمشق، ثم انتقلت إلى مصانع الفاطميين في مصر، وإلى البندقية التي بوشر فيها بتطعيم الأشياء بنحاس أصفر مع صفائح من الذهب ومن الفضة ومن النحاس. وكان تونية الحديد أو الفولاذ بأسلاك من اللجين أو العسجد التي مورست بخاصة في دمشق والموصل، وكذلك في فارس فنًا أصله من الهند. ثم انتقلت هذه الصناعة إلى مصر والقاهرة القديمة في القرن التاسع، وثبتت في أسبانيا التي وصلت منها إلى أوروبا.

اشتهر صناع الأسلحة الأسبانيون بهذا الفن الذي أخذوه عن الصناع المسلمين في طليطلة، والذين اشتهروا بخاصة بصنع النصول وقطع الأسلحة الدفاعية كالخوذات والدروع، وهؤلاء الأسبان هم الذين ثقفوا فيما بعد الفرنسيين بمعارفهم العامة، وفي الوقت نفسه استورد الصليبيون من الشرق الطريقة الفنية للبيطرة بالمسامير التي أقيمت على فن رفيع. ولم يستنكف الفرسان من تعلمه. وهذا يفسر لنا اتخاذ حدوة الحصان منذ ذلك الوقت في عدد من شعارات الشرف.

الآلة الميكانيكية:

انتقلت جميع أنواع الآلات الميكانيكية التي تعمل بالماء وبمخترعات صينية إلى إيران وسوريا، ثم بعد عدة قرون إلى أوروبا. ولما شاهد الصليبيون النواعير التي ترفع ماء نهر العاصي، أدخلوها بدورهم في ألمانيا. وفي الوقت نفسه تقريبًا، كان النورمنديون يقيمون في أوروبا طواحين الهواء الخاصة بصقلية التي كان مصدرها مثل طواحين أخرى كثيرة، من أصل فارسي.

الصحة العامة:

شوهد في أوروبا منذ القرن الثاني عشر إقامة مستشفيات عامة، ومستشفيات للبرص، ومستشفيات للجذام، وبلغ ما يوجد منها زهاء ٢٠,٠٠٠ في القرن الثالث عشر. وكانت قد اتخذت طريقة المعالجة النظامية للمرضى في المستشفيات وبخاصة المرضى بأمراض معدية –تجربتها في الشرق الأدنى الذي كانت تنظم فيه هذه الخدمات على وجه أفضل بكثير مما كانت عليه في العالم المسيحي.

واختفت الحمامات والحمامات ذات المياه الساخنة التي كانت وفيرة جدًا أثناء فترة حكم الغال الرومانيين وكادت أن تختفي تمامًا مع الإمبراطورية، لكنها عادت بفضل نتيجة الاتصالات مع الشرق الذي كان فيه استخدام الحمامات معممًا.

مفردات اللغة:

في نفس الوقت الذي كانت فيه أوروبا تستورد منتجات إسلامية اصطنعت في الغالب الألفاظ الدالة عليها. وعلى ذلك، ظهرت هذه الكلمات في مفردات اللغة الفرنسية: سكر (Suere)، شراب مسكر (Sirop)، وشراب مشبع بالسكر (Sorbet)، كحول (alceol)، قلوي (alcali)، مستحلب (Julep)، أكسير (elixir)، برتقال (orange)، جرة (Jarre)، مرتبة (matelas)، أريكة (sole)، جوت (Jute)، لازورد (azur)، طراز عربي (arabesque). ومفردات أخرى استعيرت أيضًا من اللغة العلمية: جبر (algebra)، صفر (zero)، رقم

(chiffre)، سمت (azimut)، أمبيق (alembic)، سمت الرأس (zéoith)، المناخ (almanach)، أو من الموسيقى: عود (Juth) رباب (rebec)، قيثارة (guitare)، طبل (tambourin)، قرع الطبول (fanbare)، صنج (cymbale)، واصطلاحات بحرية: أمير البحر (amiral)، ترسانة (arsenal)، حبل (bable)، زورق (chaloube) قارب (dargue)، سفينة (sloop)، أو مفردات تعني منسوجات موسلين (mousseline)، أطلس (satin)، نسيج من قطن وكتان (futaine)، واصطلاحات تجارية: بازار (bazaar)، تعريفه (tarif)، مخزن (magasin)، خطر (risque) شيك (chéque)، جمرك (douvane)، وأخيرًا، استحدثت كلمة سوف تثير كثيرًا من الدهشة لأنها كلمة راسخة رسوخ اللغة الفرنسية، إلا وهي كلمة السيد **Le cide** المأخوذة مباشرة عن (سيدي)[1].

الزراعة:

كانت سوريا طيلة مائتي عام في أثناء الحرب الصليبية ميدانًا لعلاقات وثيقة بين المسلمين والمسيحيين، ومع ذلك فهي لا تأتي إلا بعد صقلية وبخاصة بعد أسبانيا من وجهة نظر انتقال التأثير العربي إلى الغرب. وهذا يرجع إلى أن الثقافة الإسلامية كانت في سبيل الأفول في الشرق الأدنى. وإلى أن الصليبيين المعتصمين في حصونهم كانوا يعقدون اتصالات مع الفلاحين والصناع المسلمين أكثر مما يعقدون مع النخبة الممتازة من الناس. وكان هذا في الميادين العملية من الزراعة والتجارة التي كان يميز بها المرء بخاصة تأثير العالم الإسلامي في العالم المسيحي.

وقد بحث من وجهة أخرى ما كانت عليه أسبانيا الإسلامية في الميدان الزراعي الذي جيء به من آسيا، ثم نقل إلى أوروبا،: مثل زراعة الأرز والمشمش، والخوخ والرمان، والبرتقال، وكذلك زراعة قصب السكر، والزعفران، والقمح، والحنطة السوداء، وشجرة الزيتون، والبلح، والتين، والليمون الهندي، والسفرجل.

---

[1] وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية كذلك. (المترجم)

التجارة:

عاد الصليبيون من الشرق بكل ما كان يمكن أن يتلاءم مع المناخ المعتدل: مثل السمسم، والذرة البيضاء، والشمام، والكراث، والخروب، والفراولة، والكريز، لكن أحيانًا–حتى على غير علم منهم– وجدوا أنفسهم قد ألفوا أذواقًا وعادات، ومطالب جعلتهم مرتبطين بلبنان، وآزروا في تقدم تجارة مزدهرة عبر جميع مواني البحر المتوسط.

كانت هذه مثلاً حال البخور، والمنتجات الأخرى الذكية الرائحة من الجزيرة العربية، وعطر الورد من دمشق، وزيوت معطرة من بلاد فارس، ونتيجة لذلك سبب إنتاج هذه العطور في الشرق انتشار زراعة الأزهار. وانتشرت على غرار ذلك زراعة التوابل ذات الأريج مثل الفلفل والقرنفل، والزنجبيل، لكن أهم جميع المنتجات المستوردة من الشرق هو السكر الذي يلعب منذ ذلك الوقت دورًا أساسيًا في الاقتصاد المنزلي وفي تركيب الأدوية أيضًا.

لم تكن الحركة البحرية هي الحركة الوحدة التي جاءت نتيجة لهذه التقدمات. فقد نتج عنه هذه الحركة تداول لنقد أكثر حجمًا وأكثر سرعة، وكنتيجة لذلك نشأ نظام تأميني. وظهرت المصارف في الموانئ الأوروبية الكبيرة، وأسست لها فروع في لبنان.

متنوعات:

في التطبيقات العملية للخبرة البحرية التي رأت النور في ذلك العصر، يجدر بنا أن نسجل تحديدًا فريدًا في نوعه، وهذا التجديد هو البوصلة المخترع الصيني، لكن العرب كانوا يطبقونها منذ وقت طويل على الملاحة في الخليج الفارسي والمحيط الهندي. ويسرت بفضلهم هذه الآلة الأساسية الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر.

وكان البارود مخترعًا صينيًا، لكن الصينيين، كانوا لا ينتفعون به إلا من أجل الصواريخ. وبارود المدفع مخترع عربي، رسم نموذجه أحد مخترعي العرب في

القرن الثاني عشر. ذلك أنه في قاعدة مدينة الجسيراس في سنة ١٣٤٢ رأى الإنجليز —للمرة الأولى—مدفعًا إذ كانوا يخدمون في الجيش الأسباني.

ولكي تقيم حسابًا كاملاً لإسهامات الشرق الفكرية تجاه الغرب، كان يجدر بنا أيضًا أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجمت عن المعرفة الإسلامية، ولكن أحرى بنا أن نختم هذا الفصل الذي قد يجازف بمجاوزة ما حدد من تخطيط عام «لتاريخ الحضارة العربية».

ويكفي أن يتصور المرء القارة الأوروبية في فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفاتها هذه الهبات الثلاث: البارود، والبوصلة، والكتاب، رمز المعاونة الإسلامية في بناء الإنسانية.

(١٧) الطب

احتل العرب المكان الأول في الطب وظلوا على رأس العالم طيلة أكثر من خمسمائة عام. وقد ورد في حديث منسوب إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن دراسة الطب ودراسة الدين هما الشقان الأساسيان للمعرفة.

طب النبي:

يبلغ عدد الأحاديث الطبية الموروثة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– حوالي ثلثمائة حديث. وقد جمعت على حدة في كتب تحت عنوان: «الطب النبوي» وتوصى هذه الأحكام بعامة بالقناعة، وتفرض التطبيق العملي لعلم الصحة والنظافة. وعندما شرحت في صورة متقنة وشاعرية، شغلت مكانًا كبيرًا في الطب الشعبي. فأطباء فترة الخلفاء الراشدين التي تمتد من سنة ٦٢٢إلى ٦٦١ كانوا يعرفون من قبل فن تضميد الجروح، والكي والفصد والحجامة.

وفي عهد الأمويين اشتهر بالطب ثلاثة أو أربعة أطباء أكثرهم شهرة «حكم الدمشقي» الذي نشأ من أسرة يغلب عليها الشعر والطب: وابنه عيسى[١] مؤلف «الكناش الكبير» وهو رسالة في فن الطب. يعرض في هذا البحث الحال والعلاج لنزيف شريان بالغ الخطورة نتج عن سوء خبرة حلاق.

ويتسم –من قبل– هذا العصر بتحديد يجدر بنا أن نذكره، فقد أمر الخليفة الوليد بعزل المصابين بالبرص وأمر لهم بجرايات وهكذا في الشرق، منذ بداية القرن الثامن، في عصر ملوك أوروبا المتوانين، كان الملك العربي يوجه النظر إلى العناية بالصحة العامة.

---

[١] انظر ابن أبي أصيبعة ج١ ص ١٢٠. (المترجم)

التقدم في المدن:

كان لظهور الترجمة سنة ٨٣٠ أثر في انتشار تعاليم العلماء والأطباء المشهورين في اليونان: مثل أبقراط، وجالينوس، ورفس الأفسوسي، وبولس الإيجيني. وكما قيل –بفضل ترجمات حنين بن إسحاق– أمكن بعض المؤلفات اليونانية التي فقدت منذئذ أن تحفظ في ترجمة وعربية، وبخاصة الكتب السبع في علم التشريح المشهور لجالينوس وجدير بالذكر أن أول بحث في الطب كتب بالعربية هو ترجمة كتيب يوناني على يد يهودي ألفه مسيحي من الإسكندرية. وعلى الرغم من أن هذا التعاون العملي كان أهلاً للاحترام التام فإن أطباء الإسلام لم يرغبوا في أن يقصروا دورهم على النقل. ومنذ وقت مبكر، اهتموا بجمع العناصر المتفرقة للطب اليوناني وبتصنيفها بحسب ترتيب منهجي. ولما كانوا قد تخلوا في الحال عن علمائهم المعلمين لهم، فقد سلكوا بدورهم طرقًا غير معروفة للإغريق وشاركوا على نطاق واسع في التقدم الطبي.

«وقد جمعوا الحقائق دون كلل– وهم ناقدون مدققون غاية التدقيق ومتأنون وذوو رأي صلب. ومن الآن فصاعدا، أصبح الطب طبًا تجريبيًا. ويعلن علي بن العباس في كلام واضح أن ملاحظاته جمعت من البيمارستانات وليس من النقل المتعلق بعلم الكتب والمؤلفات».

كان تعليم الطب يعطى بخاصة في البيمارستانات، ومنذ القرن التاسع، كما يعترف بذلك س. كومستون– أخذ العرب في إنشاء الطب الإكلينيكي، وأضافوا إلى علم الأمراض وطبائعها وعالمها ودلائلها أمراضًا جديدة.

وفي القرنين العاشر والحادي عشر، أخذ تقدم العواصم الكبرى، دمشق والقاهرة وبغداد بخاصة، يفرض جميع الموارد، والأحوال المادية التي كان لزامًا عليها أن تتيح للعلم وبخاصة للطب أن يقوم تنظيمه على الأسس القوية لإمبراطورية موسرة.

ومنذ ذلك العصر، استطاعت الجامعات أن تلحق بها كلية العلوم وكلية الطب ومعاملها. وفي علم الصيدلة القديم أضاف المسلمون العنبر الداكن، والكافور، وخيار الشنبر، والقرنفل، والزئبق والسنا، والمر، وأدخلوا تحضيرات جديدة عقاقيرية: مثل الشراب المسكر والمستحلب، وماء الورد، الخ.

انتشار الطب في القرى:

إذا كان تعليم الدراسة الطبية منتشرًا بخاصة في بعض المدن أو المراكز الثقافية، فإن ممارسة الطب الحقيقي من جهة أخرى في أعماق المقاطعات والقرى كان مهملاً تقريبًا إهمالاً تامًا. ذلك أن إرادة الله الوحدة وفقًا لما جاء به القرآن– هي التي تمنح المرض أو الصحة. الحياة أو الموت وفقًا لشريعة لا يجوز نقضها، بيد أن الناس قد تعودوا العناية بأنفسهم، ولكن ذلك لم يحدث إلا مؤخرًا، ويفصح مرسوم لأحد أفراد أسرة المرابطين المشهورين في هذه العبارات: «حياة جميع الناس بين يدي الله، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون. وقد شاءت العناية الإلهية أن تقي كثيرًا من الناس شر الطاعون. فعلى كل شخص أن يتناول كل صباح حبة أو حبتين —في أثناء وجود العدوى– من التركيب الآتي مع اعتقد أن ذلك رهن العناية الإلهية: قطعتان من المر، قطعة واحدة من الزعفران، وقطعتان من الصبر، وشراب من حبوب المر».

ولقد وضع العرب —مدة طويلة– ثقتهم في السحرة والراقين أكثر من الأدوية الصالحة النافعة. وظل الطب في القرى وقفًا على أسرة المرابطين. ومن ثم بقي مدة طويلة بدائيًا، وكانت الأدوية بالنسبة للجروح تتركب من مستحضرات من أعشاب مغلاة ومن لزقات، ولأمراض الروماتيزم والتهابات الأغشية بالكي بمسامير رفيعة ملتهبة بالنار. وكانت الحمى تعالج بعشب يطلق عليه «بخور أرضي» أو بمستخرجات من أعشاب تسمى الجلوبولوريا[1] «وكان مرض الحصوة يعالج عن

---

[1] الجلوبوريا أزهار برية تظهر في شمال أفريقية، وتسمى سربانة [قاموس شرف. (المترجم)

طريق حقن مستخرجة من جذور مجففة ومسحوق من نبات الرنس وكان الإسهال يعالج بمسحوق الـ **Pokooha**، والجدري ببلع ست إلى ثماني حبات من القرمز **Hilsermes** في شيء من العسل.

ومع ذلك، فمنذ العصور الموغلة في القدم، مارس العرب التلقيح ضد الجدري وكانت طريقتهم الفنية تختلف عن طريقة الصينيين، وكان التلقيح يتم عن طريق فتح جرح في الجزء البض من اليد بين الإبهام والسبابة. وكان الجرح يدلك مفتوحًا بمساعدة جمرة أو جمرتين جدريتين (مشتراه من عند صديق أو جار يملك منها أنواعًا جيدة).

ولنلاحظ أنه في جميع الأزمنة كان المسلمون المتعصبون يقفون موقف العداوة ضد التلقيح، وقد ثاروا بعف ضد هذا النوع من العلاج، وكانوا يقولون «إنها تعارض العناية الإلهية».

كانت الرضوض، واضطرابات الجروح، والالتهابات وكذلك الأوذيما من كل نوع تعالج بعامة بأوراق الـ **APunta** وتحمل في أول الأمر على النار وتوضع ساخنة بحيث يكون من الممكن تحملها. وكان يستخدم نفس هذا العلاج لتيسير سيل القيح من الدمامل، والخراريج، والقروح. ويحضر للشفاء التام لزقات أساسها مسحوق الحناء وهو علاج له قيمته بخاصة في الآلام العصبية والجروح المؤلمة سواء أكانت ذات تكوين متقيح أم كانت بدونه. ومن بين جميع هذه الأدوية المجربة ما يستحق أن يذكر بخاصة، ذلك أنه لا يفتقر إلى جدة إذا حكمنا عليه عن طريق التقدم الذي احتله في أيامنا هذه، ونقصد بذلك انتفاع العرب بالتعفنات المستخرجة من البنسليوم (عفن الخبر)، ومن العشب الفطري الذي كانوا يجمعونه على ظهور دوابهم وكانوا يستعملونه في شكل مرهم لعلاج الجروح المتعفنة. كما أنه كان لدى العرب معرفة –بطريقة تجريبية– بالمقاومة ضد الأمراض البكتيرية، وضد الأمراض المعدية أو ضد الأمراض الميكروبية لبعض الكائنات المجهرية.

البيمارستانات:

كان جميع الحالين في العصر الوسيط، وهم كثيرون في ذلك العصر، مجمعين على إعجابهم بالبيمارستانات التي كانت في الشرق. وأثبت نوبرجير Neverdnrger وهو مؤرخ لعلم الطب «أن تنظيم المستشفيات هو أحد المستحدثات الجميلة للثقافة الإسلامية».

لقد أسس هارون الرشيد في بداية القرن التاسع أول بيمارستان في العالم الإسلامي. وقرابة سنة ٨٥٠ أقيم أربعة وثلاثون بيمارستانًا على نمط واحد في جميع أرجاء العالم العربي. وقد خططت بدون شك بحسب نموذج المدرسة والبيمارستان الفارسيين في جنديسابور. وكان معظم هذه البمارستانات موقوفاً عليها أموال كثيرة، وكان موقعها حسنًا ومعدة إعدادًا كاملاً، ومفتوحة للجميع، للأغنياء وللفقراء على السواء.

وكما نجد في المنشآت الأكثر حداثة، نجد في المنشآت القديمة خدمات خاصة وفقًا للأمراض، وصيدليات ومحال، ومطابخ، وغرفاً للقراءة أيضًا. وقد عين أول مدير للبيمارستانات في القرن العاشر.

كان يلحق بكل بيمارستان أطباء وطلبة، وجراحون، وأطباء عيون وكذلك «مجبرون». وكان المرضى يرقدون في أسرة مزودة بأغطية. وكان الطبيب يزور المرضى كل يوم، والممرضون الذين كانوا يقودونهم عدة مرات كل يوم، كانوا يمنحونهم الأدوية، ويقدمون لهم الواجبات، ولم تكن معيشة المرضى تختلف كثيراً عن معيشة مرضى اليوم. وأشهر بيمارستان في العالم الإسلامي هو البيمارستان الذي أنشئ في دمشق سن ة ٩٧٨ كان يعمل به أربعة وعشرون طبيبًا. وكان العلاج والأدوية يمنحان بالمجان طيلة أكثر من ثلاثة قرون. وفي بعض الأحيان كما في بيمارستان القاهرة كان المرضى في دور النقاهة يمنحون مقدارًا معينًا من النقود وقت مغادرتهم البيمارستان.

وفي الوقت الذي كانت قام فيه بيمارستانات خاصة للنساء، تهتم بمراعاة كل هيئة عاملة في البيمارستان، أقيمت أول مدرسة للصيدلة في العصر الوسيط وكذلك المستوصفات الأولى، وحوانيت الصيادلة.

فروع أخرى:

أنشئ أول بيمارستان للأمراض العقلية في بغداد منذ القرن الثاني الهجري أي قبل بيمارستان بلنسية بسبعمائة عام، وهو أول بيمارستان في تاريخ العرب، وقد جاء على مثال مستشفى الأمراض العقلية في القاهرة. وبينما كان ينظر إلى هؤلاء المرضى على أنهم مجرمون أو ممسون بالشيطان، وتطاردهم الكنيسة في حذر بالصلوات والتعاويذ، كان المرضى بالأمراض العقلية يعالجون في العالم الإسلامي بمحبة ورفق على يد أطباء إخصائيين في الأمراض العقلية في جميع المدن الكبيرة من العالم الإسلامي. وأسست الأوقاف وهي مؤسسة خيرية، وقتئذ لتقوم بعدد كبير من أعمال المساعدة للجنود المتقاعدين وذوي العاهات وللمعدمين، ولتنشئ ملاجئ «للعجزة»، وملاجئ للأيتام. ولم تكن تعرف العصور القديمة مؤسسات مثل هذه، لقد كانت تشكل تقدمًا اجتماعيًا لا يمكن إنكاره.

ومن السهل أن نرجع في سهولة ويسر كثيرًا من الكشوف إلى حظوتها من كرم الخلفاء.

وعلم الرمد علم مستحدث إسلامي، ظلت شهرة أطباء رمد العيون، وتعمق معرفتهم بطرق أنواع العلاج الفني لا تجاري. وقد كان مقدرًا لكتاب «تذكرة الكحالين» لعلي بن عيسى الكحال ألا تسمو إلا في القرن التاسع عشر. والحق أن المعارف الرحبة لعلماء الطبيعة والبصريات قد ساعدت بقوة أطباء الرمد وأطباء العيون العرب. وكانت أنواع علاج العين لا حصر لها، لكن أول من مارس الأعمال الخاصة بالعلاج: استخراج ماء العين (الكتارا كتا): كان خليفة بن أبي المحاسن الحلبي في سنة ١٢٥٦ واخترع الإبرة المقعرة.

كانت الجراحة العامة، والفن الخاص بالجراحة وصناعة الأسنان العربية في العصر الوسيط أكثر تطورًا. كان التخدير قد اتخذ سبيله إلى الظهور، إذا ذكرنا أنه استخدم لأول مرة في أثناء جراحة قيصرية على يد طبيب مجوسي على عقيدة زرادشت لم يتردد في إثارة النوم للمخدر عن طريق الأبخرة الأثيلية الصاعدة من النبيذ. ثم تبع ذلك استخدام الحشيش، وعقاقير أخرى كانت تثير نومًا عميقًا.

وغنى عن البيان، وعلى الرغم من أن العرب كانوا يشعرون دائماً بالكراهية لتشريح الجثة، أنه كان مفروضًا على طب هذا العصر أن يلجأ إلى هذه الطريقة التجريبية المفيدة جدًا في علم الاستيصاف للداء المقارن وكذلك إلى علم التشريح.

كما أن الجراح ماسواغي هو أول من باشر تشريح القرود العليا من النوع الذي يطلق عليه الإنسان القردي يقدمها إليه أمير من بلاد النوبة.

العشق المكشوف:

في ألف ليلة وليلة، أسطورة «تود» الجارية الجميلة التي اجتازت بنجاح أمام أكثر العلماء ذكاء في بلاط هارون الرشيد، امتحانًا هامًا في مواد مختلفة طبية وتشريعية، ورياضة وفلسفية لا تشير فقط إلى رحابة الثقافة العامة لذلك العصر، بل تشير كذلك إلى الفائدة التي التزموا بها للنهوض بعلم الطب. وكان معجم طبي غزير المفردات بقدر كاف يشكل جزءًا من التعليم العام. ومن ثم لم يكن الشعراء والكتاب والمرضى أنفسهم في حاجة إلى شحذ قريحتهم على حساب أمراضهم، وعلى حساب هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى تخفيفها.

ويروى أن أحد الخلفاء هام بحب جارية شابة واضطرب اضطرابًا شديدًا عندما صارحته محبوبته في عبارات تحلل فيها عناصر الهوى وتشرح الحب، قائلة: بين الترقوة واللهاة تحترق رغبة لا شيء يروى أوارها أو يطفئ نارها.

ويؤلف المتنبي –لا عن دعابة– قصيدة شعرية عن الحمى التي تصيبه والتي

تدعه فريسة لها فيقول:

«شديد السكر من غير المدام»

وإنما ذهب المتنبي في قصيدته بتجوز رائع ومليح في الكلام حتى إلى تشبيه مرضه بامرأة شابة حيية:

«فليس تزور إلا في الظلام»

وعندما تزول عنه الحمى يقول:

إذا مـــا فـــارقتني غســـلتني كأنـــا عاكفـــان علـــى جـــرام

كـــأن الصـــبح يطردهـــا فتجـــري مـــدامعها بأربعـــة ســـجام

وكان يوضح الهذيان، وعودة الحمى في الليل والرعشات وأيضاً العرق الذي ينتهي بكل ذلك في دموع الوداع من محبوبته التي تهرب في الفجر.

وكما جرت العادة كان شاعر[1] آخر يشحذ قريحته في رثاء طبيب فاضت روحه توًا:

وأرى الطبيـــب بطبـــه ودوائـــه لا يســـتطيع دفـــاع مكـــروه أتـــى

ويتفادى الوقوع في الزلل فيما بعد بقليل فيصرخ هاتفًا:

مـــا للطبيـــب يمـــوت بالـــداء الـــذي

قـــد كـــان يبـــرئ منـــه فيمـــا قـــد مضـــى

[1] هذا الشاعر هو أبو العتاهية ... قال أبو عمر النمري: لا أدري أهذه الأبيات له أو لغيره، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. قال المصحح: إننا قد رأيناها في مجموعات كثيرة. وكل الروايات على اختلافها تفردها لأبي العتاهية. وقيل إن هارون الرشيد تمثل بهذه الأبيات عند وفاته. [الأنوار الزاهية في ديوان أبو العتاهية-طبعة بيروت سنة ١٨٨٨]. (المترجم)

ذهـــب المـــداوى والمـــداوي والـــذي

جلـــب الـــدواء وباعـــه ومـــن اشـــترى

لقد كتبت هذه الأبيات قبل أن يكتب مثلها موليير بـ ٨٠٠عام.

أربعة رموز كبيرة:

إنا لفي حاجة إلى مجلدات كاملة للإبانة عن حصيلة معارف الإسلام في الطب الحديث. ولا نستطيع أن نتذكر غير هؤلاء الذين أثروا التأثير العظيم بين جميع العلماء المسلمين.

وفي الشرق حيث يتعين علينا أن نورد المدارس المشرقة التي انتشرت في ذاته في إفريقية وفي أسبانيا يجب أن نذكر أسماء أربعة تجاوز مكانتهم حد الشهرة الجامعة:

ربن، الرازي، على بن العباس، ابن سينا

ولندرس في اختصار عمل هؤلاء «الأربعة الكبار» في ربيع العباسيين الذهبي.

ربن:

عاش ربن[1] وهو أقدمهم في القرن التاسع وقد كتب أربعة مؤلفات كان أكثرها بلوغًا في النجاح بعد مرات عدة من التوقف كتاب «فردوس الحكمة» وهو كتاب في الطب، وفي الفلسفة الطبيعية وقد قدر سلفًا كل القدر من عصره فهذا هو المؤرخ الكبير الطبري جعل منه كتابه المفضل على غيره. وتحدد فائدته في أنه مستقل عن الترجمات القديمة، وأنه يشكل باكورة التأليف باللغة العربية. وقد بقى منه مخطوطان، الأول في المتحف البريطاني، والآخر في برلين، ويتناول نصفه تقريبًا

---

[1] أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري، كان يهوديًا وأسلم على يد المعتصم، وأدخله المتوكل من جملة ندمائه، وهو معلم الرازي صناعة الطب، ولد بطبرستان ونشأن بها، وله مؤلفات عدة. [عن ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٩]. (المترجم)

علم معرفة ألوان الأمراض العامة، ويختص الباقي بعلم الأجنحة، وبعلم هيئة الأجسام الحية وتركيبها، وبعلم الهموم، وعلوم متنوعة في علاقاتها مع الطب والصحة. وكان من العبث أن يسير ربن قدمًا وكان هو نفسه لا يستصوب ذلك، إذ هو يخلط بقلمه: «فمن ظفر بهذا الكتاب وتنحره[1] وتدبره وجد فيه جل ما يحتاج إليه المتخرج من علم الطب والفلسفة. فلا ينبغي للقارئ أن يستنكر ما فيه ويتبرم به» ودراسة ٥٥٠ صفحة باستقصاء لا تفي بهذا الموضوع. ومن الملاحظ بالنسبة لكلمة حائز على درجة جامعية أن الدراسة الصالحة للإقناع التي يفترضها هذا الكتاب لم تكن موجودة في وقت ظهور الكتاب عام ٨٥٠ وقد أعيد تحريره فيما بعد بثمانين عامًا لظروف خطأ مهني علم به الخليفة المقتدر.

الرازي:

يبدو الرازي (٨٤٤–٩٢٦) تلميذ ربن أكثر أطباء الإسلام غزارة وأصالة. ويذكر ابن النديم في الفهرس، وهو ثبت حجة بأسماء العلوم، أن عدد مؤلفاته تبلغ مائة وثلاثة عشر مؤلفًا كبيرًا وثماني وعشرين رسالة في العلوم والآداب ومعظم هذه المؤلفات ترجمت وأعيدت ترجمتها إلى اللاتينية.

درس الرازي الكيمياء والسيمياء والطب في بغداد، وكان كبير أطباء البيمارستان في هذه المدينة. وكتابة الأكثر ذيوعًا هو كتاب «مقالة في الجدري والحصبة» الذي حظي بوساطته بمرتبة بارزة في تاريخ علم الأوبئة. وهو مؤلف رائع يقوم على الملاحظة المباشرة، وعلى التحليل الإكلينيكي. ويمكن أن نحكم على تأثيره بالأربعين طبعة الإنجليزية التي طبعت ما بين عام ١٤٩٨ وعام ١٨٦٦. وتعالج طبقات أخرى من مقالته «الحصى في الكلى والمثانة» ومرض النقرس وأمراض الروماتيزم. وألف الرازي أيضًا ستة من المؤلفات العامة في الطب ومؤلفات أخرى ألفها للسخرية من أدعياء الطب والأطباء بالخبرة الذين كما يقول يحظون

---

[1] تنحره: أصاب نحره والمعنى استوعبه. (المترجم)

بشعبية لا يرقى إليها غالبًا الأطباء المؤهلون. ومؤلفاه الأخيران «المنصوري» وهو موجز في الطب في عشر مقالات، و «الحاوي» الذي يعالج جميع فروع الطب في عشرين مجلدًا هي دوائر معارف صادقة. لكن لم يعد يوجد اليوم إلا نصف مخطوط من «الحاوي» مبعثرة أوراقه بين المتحف البريطاني «والاسكوريال»، وميونخ، ولينينجراد، وبرلين وكانت ترجمته إلى اللاتينية تحت عنوان «**liber eovtineus**» على يد الطبيب اليهودي فرج بن سالم كتيبًا طبيًا أكثر احترامًا وأكثر فائدة طيلة عدة قرون، وكان هذا واحدًا من تسعة كتب كانت تشكل كل مكتبة كلية الطب في باريس في عام ١٣٩٥.

وقد اتفق أحسن الحكام على الاعتراف بأن الرازي تفوق على جميع أطباء العرب كمجرب وكإكلينيكي وأنه يعد من بين أعظم أطباء جميع العصور بمهارته وموهبته، وبملاحظته الإكلينيكية وبتكهناته، وباستنباطه وبغزارة تعاليمه. وكان الرازي لا يعيبه عن نزاهة أن يذكر الحالات التي كانت تحبط تنبؤاته، وأن يحكى سقطاته، وأن يحاول تفسيرها. ويحكى كل مؤرخي حياته أنه أصبح فاقد البصر نتيجة لإظلام عينيه في آخر حياته، وأنه رفض أن تجرى له جراحة لكيلا لا يرى زيادة على ذلك عالمًا كان برمًا به. وكان الرازي قد درس الفلسفة مثل سواد أطباء العرب الكبار، ولعله أن يكون لنا في هذا درس نستخلصه من هذه الغاية التي أوضحت حقيقتها لهذا العملاق في الطب.

علي بن العباس:

عاش علي بن العباس في القرن التاسع، وألف للملك عضد الدولة بن بويه كتاب «الملكي» الذي ترجم إلى اللاتينية منذ عام ١١٢٧، والذي ي جمع كل الطب في مؤلف واحد. وهو مؤلف منظم وممتاز في شكله وفي حماسة صاحبه، وهو ذو مفهوم نظري وعملي. وتتناول مقدمته نقدًا للمؤلفين السابقين: فأبقراط في نظره شديد الإيجاز، وجالينوس مسرف الإسهاب، وينسب إلى الرازي الإسهاب في

كتابه «الحاوي» والإيجاز في كتابه «المنصوري» ويجدر بنا أن نلاحظ أن علي بن العباس قد عنى بعدم الوقوع في أخطاء السابقين، تمسك بالتوسط بين الإيجاز والإطناب، وصنف الأفكار والوقائع في ترتيب منسق.

وكان علي بن العباس يحظى بشعبية كبيرة بين معاصريه. وكان يطلب بإلحاح من تلاميذه التردد المنتظم على البيمارستانات فهو يقول: «ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازمًا للبيمارستانات، ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من حذاق الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم، والأعراض الظاهرة فيهم ،لما قد قرأه من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر الخ ...

ابن سينا:

في القرن التاسع، تجمعت الثقافة العربية في شخص ابن علي الحسين بن سينا «الشيخ الرئيس[1]» وفي سن السابعة عشرة كان ابن سينا قد درس الطب على نفسه بدون أستاذ، فذاع صيته بقدر كاف بسبب أنه استدعى لعلاج سلطان بخاري الأمير نوح بن منصور فشفي على يديه. وفي سن الواحدة والعشرين، ألف أول كتبه، ثم استمر يؤلف حتى بلغ ما ألفه حوالي مائة كتاب غزيرة المادة يغلب عليها الفلسفة والطب والدين والهندسة والفلك، والتشريع، وعلم اللغة. وألف أشعارًا ممتازة منها خمس عشر قصيدة باقية، وقصيدة من الخمس عشرة اختلطت برباعيات الخيام، وأخرى «في النفس[2]» تشكل قطعة من القطع الكلاسيكية في

---

[1] احتفل في عام ١٩٥٢ بالعيد الألفي لابن سينا، وأقيم له قبر في همذان، واشتركت مصر في هذا الاحتفال بنشر بعض مؤلفاته. (المترجم)

[2] مطلع القصيدة:

هبطـــت عليـــك مـــن المحـــل الأرفـــع ورقـــــاء ذات تعـــــزز وتمنـــــع

ومنها:

محجوبـــة عـــن كـــل مقلـــة عـــارف وهـــي التـــي ســـفرت ولـــم تتبرقـــع

الشعر العربي، وشرح إقليدس، وجمع ملاحظات فلكيه وتأليف مبتكرة عن الحركة والقوة والخلاء والحرارة والضوء والأوزان النوعية. وكان بحثه عن المعادن المصدر الرئيسي لعلم طبقات الأرض حتى القرن الثالث عشر. وبرع في هذا الفرع، وتشكل ملاحظاته على تكوين الجبال نموذجًا لهذا النوع من العلم:

ومن العسير أن نحكى هنا كل المغامرات التي أدت أحيانًا بابن سينا إلى السجن والمحن التي جعلته يمضي من ملك إلى آخر، وكيف أصبح رئيس وزراء، وشاعرًا، ورجل أعمال، الخ ... ويجدر بنا أن ننعم النظر فقط في مؤلفاته، ومنها اثنان يستوفيان تعاليمه. أولهما «كتاب الشفاء» وهو دائرة معارف للرياضيات والطبيعة وما وراء الطبيعة، والإلهيات والاقتصاد السياسي والموسيقى، وهو محرر في ثمانية عشر مجلدًا. ولا يحتوي كتاب «القانون» مؤلفه الرئيسي على أقل من مليون من الكلمات. وهو يعالج الفسيولوجيا، والصحة، والعلاج، والصيدلة، وفي هذا الجزء الأخير، لم يفيد أقل من ٧٦٠ عقارًا، أوضح استعمالها في العلاج. ومع أن «القانون» مؤلف تأليفًا محكمًا ومع أنه يحتوي على أجزاء كتبت بأروع أسلوب لم يعدم محقرين متهكمين ذهبوا إلى أن تأثره بالنزعة المدرسية في التصنيف والإيضاح كان بالنسبة له داء عضالاً لم ينجح فيه علاج.

إن طابع ابن سينا الموسوعي والدجماطيقي إلى جانب شهرته الضخمة جعلا من هذا الكتاب المرجع الأعلى لكل ما يتصل بفن العلاج ومنذ ظهوره باللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، احتل مكان كتب جالينوس. ولما كان قد ترجم إلى كثير من اللغات، منها خمس عشرة طبعة باللاتينية، وطبعة واحدة بالعبرية في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر، فقد ظل أساسًا للدراسات الأوروبية

وصلت على كره إليك وإنما كرهت فرانك وهي ذات تفجع

(المترجم)

طيلة أكثر من ستمائة عام. وقد عد الكتاب المقدس في الطب، وقد ترجمت بعض أجزائه منذ عهد قريب إلى الإنجليزية. ويذكر عن ابن سينا نوادر من الذكاء والمعرفة فريدة في نوعهما وذلك بالنسبة لأحوال لم تكن تخطر على بال، مثل علاج بعض الأمراض النفسية. كما أنه كان يبدأ الحديث بدون ترتيب وأصبعه على نبض مريض. وكان عدم انتظام النبض وضعفها أو سعة اهتزازاتها، وتوقفها المفاجئ تبعًا للمناسبات الملتزم بها تشكل كثيرًا من الإيضاحات بالنسبة لابن سينا. ومن دراسة النبض، كان يصف الأعراض التي كانت تتيح له أن ينشئ مبدأ للعلاج. وقادته فطانته حتى إلى تخصيص فصل عن الحب، وإذا كان ميالاً للفكاهة بحسب هواه، فقد صنف الحب بين الأمراض العقلية. بيد أنه عندما مات في سن الثمانية والخمسين، وكان يعالج نفسه بنفسه دون أمل، قال فيه بعض أهل زمانه:

رأيـت ابـن سـينا يعـادي الرجـال ... وبـالحبس مـات أخـس الممـات

فلـم يشـف مـا نالـه بالشـفا ... ولـم ينـج مـن موتـه بالنجـاة

لكن فيما بعد موته بمائة عام، كان مؤلف «الأسفار الأربعة»[1] يكشف بقدرة خلاقة متفاوتة كل التفاوت في ابن سينا، الدليل على وجود الله بالنسبة للبشر.

وقد لا نستطيع أن نترك ابن سينا دون أن نتحدث ببضع كلمات عن أحد شراحه وهو ابن النفيس (١٢١٠–١٢٨٨).

وهذا الطبيب الذي لم يكن قد مارس التشريح البتة لا في الإنسان، ولا في الحيوان كشف بقوة الاستدلال وباستخدام مؤلفات جالينوس نفسه أن الدم لا يستطيع أن يمضي عبر حاجز القلب بسبب تكوينه مع الهواء «التامور» الذي اعترف بصحة وجوده ونظريته. وبالاستنباط البسيط كان هذا التفسير يؤكد بلا نزاع

---

[1] هو ملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠هـ، وكتابه الأسفار الأربعة في الحكمة والفلسفة ويعرف بكتاب الحكمة المتعالية في مسائل الربوبية، طبع في طهران ١٢٨٢ (معجم المطبوعات لسركيس ص ١١٧٣). (المترجم)

وجود الدورة الدموية الصغيرة.

الأطباء:

تظل مصائر هؤلاء الناس الخارجية عن المألوف في تآلف يثير ذلك الإعجاب الذي تتسم به الروح الشرقية، التي اقتضت أن يكون الخلفاء أقوياء بغير حد، والأميرات جميلات جمالاً لا يبارى، والوزراء ذوي فطانة فائقة، والأطباء ذوي بصيرة معصومة من الخطأ.

كانت شهرة الأطباء مدعومة دعمًا قويًا، كذلك كانت ثروتهم تزداد عندما كانوا يعرفون طريقهم بمهارة إلى البلاط، لكن لم تكن هذه حالهم دائمًا، فإذا كان جبريل بن بختيشوع وهو طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة قد نجح في تكوين ثروة تبلغ حوالي مائة مليون من الدراهم و ٣٦ مليونًا من الفرنكات الذهبية في ٣٦ عامًا فإن بعض الأطباء المغضوب عليهم، على الرغم من معرفتهم، المشهود لهم بها مثل ابن جاني، كانوا يعانون حال بؤس وكانوا يفتقرون إلى العواد من المرضى، حتى في أثناء عام كان الطاعون فيه في حالة المتوطنة يقضى على عدد كبير من السكان.

والرازي العظيم الذي كان قد حظي بشهرة ضخمة وبذل ثروته للصالح العام، مات ضحية منافسين حقودين. لكن أسرة بختتشوع وهي أسرة مسيحية وأصلها من جنديسابور نجحت في دعم شهرتها طيلة عدة أجيال. وقد طلب واحد منهم، وهو جورجيس ذات يوم إلى الخليفة المنصور الذي كان قد عالجه حتى شفي من عسر في الهضم الأذن له بالعودة إلى موطنه الأصلي فأجابه المنصور «اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة» لكن جورجيس رد علي في بساطة قائلاً: أنا على دين آبائي أموت، وحيث يكون آبائي أحب أن أكون إما في الجنة أو في جهنم»، فضحك الخليفة وأمر أن يخرج إلى بلده وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار.

وهناك موقف آخر لطبيب عظيم هو حنين بن إسحاق، ذو دلالة أكثر على التسامي فلقد أراد الخليفة المأمون أن يرغمه على تحضير سم لأحد خصومه،

وعندما رفض الطبيب تميز المأمون غيظًا، وقذف به في السجن، ثم أعاد طلبه مهددًا إياه هذه المرة بالموت العاجل. فأجابه حنين بشجاعة «إني لم أتعلم إلا الأدوية النافعة» وتحكى القصة أن الخليفة أنبأه أنه كان لا يريد إلا امتحانه ووثق فيه منذ ذلك الوقت ثقة عمياء.

كانت مهنة الطب بعامة مكرمة كل التكريم، وكان المدافعون عن هذه المهنة ينظرون إليها على أنها إلهام رباني من المستحسن أن نمارسها دون التفكير فيما تجره من ربح. وأخذ شغف الشبان بهذه المهنة الجميلة ينمو على مر الأيام. وفي سنة ١٩٣١ كان قد سمح لـ ٨٦٠ طبيبًا بمزاولة المهنة في بغداد. وكان الوزير الطبيب ابن عيسى قد أنشأ جماعة من الأطباء راحت ترعى المرضى حتى في المدن والضواحي الصغيرة وفي السجون.

في أسبانيا:

في القرن العاشر، وفي مدينة قرطبة، ظهر العالم مسلمة المجريطي الذي كان تلاميذه يتعلمون الرياضيات والفلك والكيمياء والطب والذي قوبل ظهوره بحماسة عظيمة صادقة. كما كان هناك أيضًا الجراح العظيم أبو القاسم الزهراوي (٩٣٦–١٠١٣) الذي كان طبيبًا لعبد الرحمن الثالث والذي شهر باسم **Nlulcassis** وقد كان مقدرًا أن ينشر هذا الفن طيلة قرون.

وكان الجراحون العرب يتفوقون كثيرًا على جراحي العصر الوسيط في أوربا، وكانوا يهيئون صناعًا ذوي مهارة يدوية عظيمة لصناعة آلاتهم. وكان أبو القاسم يطبق عمليًا الرباط الصناعي لمنع سيل مجاري الدم، وعلاج استخراج ماء العين (الكتاراكتا) قبل امبراواز باريه[1] لستة قرون، وكان على معرفة عميقة بمرض بو الذي يطلق عليه «تدرن في العمود الفقري» ويقول العالم الجراح الفرنسي إمبل

---

[1] جراح فرنسي ولد بالقرب من لافال، مات في باريس (١٥١٠–١٥٩٠)، شهر بكشفة ربط الشرايين الذي أحله محل الكي، طبعت مؤلفاته بجميع اللغات الأوربية. (المترجم)

فورج في هذا المعنى «كان له الفضل في تلخيص جميع المعارف الجراحية في عصره. وسيبقى بحثه «التصريف لمن عجز عن التأليف» المنشور فيه ٢٠٠ صورة التعبير الأول عن الجراحة.. «وقد نشرت أيضًا مؤلفات أبي القاسم في عام ١٨٦١».

وينتمي إلى فترة تلي ذلك بأجيال ابن الجزار من القيران، وابن وافد من طليطلة، والبكري من مرسيه وهو خبير جدًا في خواص الأدوية، وابن وافد الذي فاق كل معاصريه في دراسة المواد المتعلقة بعلم خواص العقاقير، وعالم البصريات العظيم ابن الهيثم الذي كان قد قدر لبحثه في البصريات أن يلهم روجيه باكون وكيبلر، ولما كان فقيرًا فقد نسخ –لكي يعيش– مؤلفات رياضية، مكتسبًا بذلك ١٥٠ دينارًا سنويًا مغربيًا وكانت هذه بمثابة الدولارات في هذا العصر.

في القرن الثاني عشر، أنجبت قرطبة ابن رشد، وهو من أصل أسباني عربي وواحد من أعظم الشخصيات في الفلسفة، وهو في الوقت نفسه طبيب وفلكي ذائع الصيت. وإذا كنا نقرر عدم الإصابة بالجدري مرتين فإنه يمكن أن نقرر أيضًا أن ابن رشد هو أول من كانت لديه الفكرة الأساسية لعلم الحصانة ضد الأمراض.

أشبيليه أنجبت أسرة ابن زهر ستة أجيال من الأطباء المرموقين، وكانوا جميعًا فخورين بهذه المهنة. وبرهن الطبيب الثالث (١٠٩١–١١٦٢) وهو ابن زهر على أنه واحد من أعظم أطباء العرب، فقد كشف عن حشرة الجرب. كما ندين له بالوصف الأول لالتهاب الغشاء التاموري وسرطان المعدة. وكتب كتابه «التيسير» استجابة لطلب صديقه ابن رشد، وقد ترجم إلى اللاتينية وإلى العبرية. وكان له تأثير لا حد له في الطب الأوربي. وعندما تحرر ابن زهر من علوم الأوائل، والعلوم الإغراقية –الرومانية أو الفارسية– نظر إليه على أنه رائد للطب التجريبي. وفي زمن ابن رشد، ظهر في تاريخ العلوم العربية والطب العربي معاصر له ولد مثله في قرطبة في سنة ١١٣٥ وهو اليهودي الميموني (موسى بن ميمون) الذي نظر إليه على أنه

أعظم مفكر من بين أطباء جميع المرحلة الإسلامية في أسبانيا وفلاسفتها. وكان أبوه عضوًا بالمدرسة الثانوية الحاخامية في قرطبة، وقاضيًا ورياضيًا، وفلكيًا، وكان سليل أسرة علماء تنهج نهج اليهود. وهو الذي درس لابنه التوراة والتلمود والرياضيات، والفلك. ولقنه ابن رشد وابن طفيل التاريخ الطبيعي والفلسفة، وكان ابن ميمون قد زاول الطب طيلة عشرين عامًا قبل أن يكتسب شهرة خاصة. وقد قيد الفضل –وزير صلاح الدين– اسمه في الأئمة أطباء السلطان عندما عرف فضله. وكان تأثيره في مادة الطب ضخمًا ليس بين العرب واليهود وحدهم في الشرق والغرب، بل كذلك بين المسيحيين وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ودرست في جامعات بادو، ومونبلييه ويمجد الشاعر العربي القاضي السعد بن سناء الملك ابن ميمون بهذه العبارات:

أرى طب جالينوس للجسم وحده — وطب أبي عمران للعقل والجسم
فلو أنه طب الزمان بعلمه — لأبراه من داء الجهالة بالعلم

وفي الفلسفة، نقدمه على أنه المدافع عن الفكرة العلمية ضد المذهب الأساسي للتوراة ومن ثم في المؤلفات التي كتبها كان لزامًا عليه أن يسعى إلى التوفيق بين اليهودية وبين مذهب أرسطوطاليس عند المسلمين أو بطريقة أعم التوفيق بين الدين والعقل وفي الطب. عاون على دراسة قناة التنفس، وألف مؤلفات ممتازة في علم السموم. كما كان على علم بتوضيح فائدة المبادئ الأولية لعلم الصحة وتدبير التغذية.

ولنذكر أيضًا من بين علماء الأندلس في العصر الوسيط العالم النباتي العظيم والأخصائي في العقاقير وهو ابن البيطار من مالقة (١١٩٠–١٢٤٨) الذي طاف الشرق واليونان بحثًا عن أعشاب طبية. ويذكر كتابه «الجامع» أربعمائة نوع من نبات، وأغذية وعقاقير يصفها بحسب خصائصها العلاجية، ونظر إلى ابن البيطار حتى القرن السادس عشر على أنه أعظم عالم نباتي أخصائي في العقاقير.

في منتصف القرن الخامس عشر وخلال انتشار طاعون أسود فتك بأوربا وفسره المسيحيون على أنه ظاهر غضب إلهي، في هذه الأثناء قدر لطبيب آخر عظيم أن يظهر، إنه الوزير الخطيب وهو طبيب مسلم من غرناطة ألف من أجل هذا الوباء بحثًا مستندًا إلى نظرية التلوث. ويستخدم هذا البحث الذي خطط بطريق علمية وبالمعنى الذي يدرك به المرء هذه الكلمة اليوم، يستخدم أساسًا في نظرية الوقاية.

مدرسة سالرنو:

كانت مدرسة سالرنو المشهورة في إيطاليا الجنوبية مركزًا لدراسات طبية بنفس الفكرة التي تقوم عليها المدارس العربية الكبيرة في ذلك العصر. وكان المغاربة في صقلية قد أسسوا جامعة في بالرمو. وكانت هذه المدينة تفاخر بأطبائها الكبار الذين كانت شهرتهم المقررة عالمية.

وفي القرن الحادي عشر، ترك قسطنطين الإفريقي، وباعث إفريقية، وأصله من تونس، ترك إفريقية بعد أربع سنوات من الدراسة يقف نفسه على ترجمة المؤلفات الطبية إلى اللاتينية أولاً في سالرنو، ثم في دير البند كتين في جبل كاسين حيث توفى سنة ١٠٨٧ «واستخلص قسطنطين الإفريقي من جميع المؤلفين المعروفين كل ما كان يمكن أن يكون مفيدًا لطبيب ما لهذا يستحق أن يطلق عليه «مجدد التآليف الطبية في الغرب».

في فرنسا:

وقد نفذ أيضًا الطب العربي، منذ العصر الوسيط، إلى فرنسا، وسرعان ما أشربت مدينة مونبلييه، التي تحتل موقعًا ممتازًا، على الطرق التي تتجه من أسبانيا إلى إيطاليا ووادي الرون –تأثير مسلمي أوربا وأفريقية. ومنذ بداية القرن الحادي عشر عملت أوربا على الاتصال بالعالم الإسلامي العربي، عن طريق أسبانيا على يد الأطباء اليهود، وعن طريق إيطاليا طريق مدرسة سالرنو التي كانت تتبادل معها

التلاميذ والأساتذة.

وكان سولومون من سالرنو ونائان بن زخاريوس يدرسان في كلية مونبليه في منتصف القرن الثاني عشر، وفي القرن الثالث عشر، أسس البابا أونوريوس الثالث في حفل رسمي جامعة موبنلييه ومنحها نفوذًا تجاه جميع بلاد العالم المسيحي. لكن التأثير اليهودي العربي استمر مدة طويلة أيضًا. وبعد أن تعلم أرمنجو اللغة العربية. وهو طبيب لفيليب لوبل ترجم «القانون» لابن سينا و «الشروح» لابن رشد. وفي العصر نفسه، بعد أن تخرج أرنودي[1] فلينيف وهو لغوي ممتاز في مدرسة سالرنو، اشتغل بالتدريس في باريس، ثم في مونبلييه التي ذاعت منها شهرته في أوربا. وقد استدعاه على التوالي ملك ارجون ثم البابا ليمثل عندهما، ولقد كان تأثير الترجمات العربية لا يقل عن التأثير المباشر لدرسة سالرنو، وقد سبق أن عاون جرون البليزنسي وإبراهام في مرسليا على ترجمة «كتاب النبات» المنسوب إلى جالينوس لكنه نقل إلى اللغة العربية، وبعد قليل كان لزامًا على جين مستشار أسقف روان أن يترجم بحثًا في الأدوية المفردة. وأخيرًا أسس هنري الثالث في عام ١٥٧٧ كرسي أستاذ اللغة العربية في المدرسة الملكية. وكان هذا قبل كل شيء في سبيل معاونة تقدم الفن الطبي في فرنسا. وكانت أوربا في عصر النهضة قد بدأت دراسة الأطباء العرب كما بدأت دراسة أبقراط وجالينوس.

---

[1] كيميائي وطبيب، ولد في كاتالوني عام ١٢٣٥، ومات حوالي عام ١٣١٢، حكم عليه بقانون الحرمان بسبب هجومه على تعاليم الدين الحقة، فاضطر إلى أن يلجأ إلى صقلية، وعندما استدعى لمعالجة البابا كلمنت الخامس مات في أثناء عبوره البحر بالقرب من جنوا، وبحوثه عن الكحول كانت لها نتائج هامة. (المترجم)

(١٨) الفلسفة

يظل «القرآن» طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية. فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر. والمفسرون –وهم العلماء– يمثلون المعرفة والنشاط الفكري لأهل السنة.

بيد أن رياحًا من التحرر بدأت تهب على الشرق أثناء القرن الثاني من الهجرة قبل غزو الفكر اليوناني للعالم الإسلامي بكثير. ذلك أن مناقشات المسيحيين حول صفات الله، وطبيعة المسيح، والقضاء والقدر، وحرية الإرادة، والوحي والعقل، والمفاهيم الزراد شتية واليهودية عن مصير الإنسان والتفكير الهندي.. كل ذلك كان يساعد على تهيئة ظهور صور جديدة من التفكير الفلسفي أو الديني. ومع ترجمة الفكر اليوناني وانتشاره على نطاق واسع ومع شروح على هذه الترجمات، ظهر عالم جديد ملئ بالإغراء، كان فيه رجال يبحثون في جميع الأمور بحرية وبدون قيود، ودون الاستناد إلى كتب مقدسة، وإلى معجزات. وكانوا يمضون سراعًا منطلقين تجاه الحركة الجديدة للمنطق. وكان المسلم صاحب الفكر الناقد مثل الفتى الأثيني يفاخر «باللذة» النفيسة للفلسفة. ولم يكن يخطر بباله مع ذلك أن يقطع صلته بالقرآن لأن فقهاء الشرع كانوا يسهرون على حفظه، ومضت دراسة الفلسفة على هامش عقيدة السلف المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالوحي المنزل في «الكتاب». وحاول بعض المسلمين أن يتخلصوا من هذا الارتباط، لكنا قد نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا أحرارًا في آرائهم. وعلى الجملة، كانوا يسعون جاهدين للتوفيق بين الفكر اليوناني والدين الإسلامي. وعلى امتداد ثلاثة قرون، قدر لهؤلاء الفلاسفة الكبار أن يدافعوا عن العقل والفهم وروح النقد. وبعد كثير من الشكوك وضروب من اليقين، وألوان من الحكمة وأنواع من الرعونة، بقى مقررًا أن الإسلام عرف كيف

يوفق بين التوحيد وهو نتاج هام من العالم القديم السامي وبين الفلسفة اليونانية التي هي نتاج هام من العالم القديم الهندي الأرووبي. وربما لا يكون هذا أقل ما فيه من مزايا.

المعتزلة:

كان أول تعبير عن الفلسفة هو نمو مدرسة من «المنشقين» أي من المعتزلة الذين كانوا يجاهرون بضرورة التفسير المجازي للقرآن والحديث إذا تناقضا مع العقل. وكان العقل البشري يستطيع حقًّا أن يتوافق مع الإيمان بشرط أن يدرك أن هناك قوة روحية كأساس لكل حقيقة، لكن كان من المستحيل عقلاً أن يتجاوز ذلك. فلما سلموا بهذا المبدأ العقلي، أنكر المعتزلة قدم القرآن، ،أعلنوا أن الإنسان لا يستطيع أن يقف على ذات الله وصفاته الحقيقية، وأن القضاء والقدر يتنافيان مع الأخلاق والمبادأة الإنسانية.

انتشر مذهب المعتزلة في نهاية القرن الثامن وفي بداية القرن التاسع في عهد المصور وهارون الرشيد. واستمال هذا المذهب المأمون، ابن هارون، وصرح به رسميًا. وكان لزامًا على المسلمين من الآن فصاعدًا أن يقروا القول بخلق القرآن في الزمان وأن يعتقدوا حرية الإرادة، واستحالة إدراك الله كما يذهب المشبهة، لكن أحمد ابن حنبل الذي كان قد أسس عن شجاعة مدرسة أهل السنة المحافظة، ثار باسم المذهب السلفين وقد ضرب بالسوط حتى سالت منه الدماء، وقذف به في السجن، ورأى الشعب فيه شهيدًا، وتهيأ رد فعل لهذا الحادث.

الكندي:

كانت فلسفة المعتزلة قد أنجبت من قبل رجلها الأول العظيم، أبا يوسف يعقوب الكندي، المولود في الكوفة في سنة ٨٠٣ والذي تحدثنا عنه بمناسبة الكلام عن العلم الطبيعي. واتخذ لنفسه حكمة أفلاطون الشهيرة المتعلقة بالفلسفة: «من لم يكن مهندسًا فلا يدخل علينا»، وكان قد درس جميع العلوم، ولا ينسب له

أقل من ٢٦٥ مؤلفًا.

وكان يستمسك بالرياضيات الفيثاغورية الجديدة كأساس لكل معرفة حقيقية إلى حد أنه سعى إلى إخضاع الموسيقى، والطب، والصحة لعلاقات رياضية. وكان مقربًا عند الخليفتين المأمون والمعتصم على أنه مترجم وعلى أنه عالم في وقت واحد. ونحن ندين له بترجمة كتاب «الأثولوجيا» لأرسطو.

ولأنه تأثر بهذا المؤلف المنسوب إلى أرسطو فقد أجهد نفسه في التوفيق بين وجهات نظر أرسطو وأفلاطون، على طريقة الأفلاطونيين المحدثين، مثل آخرين كثيرين فيما بعد. وكانت فلسفة الكندي طبعة ثانية لمذهب الأفلاطونية المحدثة لأفلاطون الذي يقوم مذهبه على فيض ثلاث من الله، يصدر عنه روح العالم أو العقل legos الخالق ثم يصدر عن العقل نفس الإنسان، وإذا باشر الإنسان المعرفة الصادقة استطاع أن يحصل على الحرية والخلود. لكن في هذه الجولة إلى الخلود، أوشك الكندي أن يفقد الحياة. وعندما حدث رد الفعل ضد المعتزلة، قذف به في السجن. وعندما صودرت مكتبته لم يبق شيء ذو أهمية من ٢٦٥ مؤلفًا كان قد كتبها.

عندما يرتكز النظام الاجتماعي على عقيدة، فإن كل هجوم ضد هذه العقيدة ينظر إليه على أنه تهديد للمجتمع نفسه. وفي الواقع بعد هذه البداية من الاضطهاد كان هناك كثيرون ينتظرون الفرصة ليرفعوا رءوسهم من جديد: وهؤلاء هم الوطنيون الفارسيون، والمنحرفون الذين يدينون بمذهب عبادة الإله مزدك. واليونانيون، والمسيحيون، وجميع هؤلاء الذين كان قد أقلقهم هذا الغزو في لحظة ما. وعلى ذلك لم يكن في استطاعة عقيدة أهل السنة إلا أن تقاوم بشدة فمن سنة ٨٤٧ إلى سنة ٨٥١ ألغى المتوكل الإجراءات المتحررة التي أوجدها المأمون وطرد المأمون الموظفين المعتزلين، وأبعد المذهب الشيعي، ودمر المزار الشهير للحسين الذي كان يجذب إلى كربلاء كل عام عشرات الآلاف من المسلمين.

أما من جهة اليهود والمسيحيين، فقد أعيد بقوة «شروط عمر». وصارت القاعدة العامة أنه عندما كانت عقيدة أهل السنة تنتصر، كان التسامح الديني يتناقض ولهذا كان لزامًا على غير المسلمين أن يرتدوا بشكل ظاهر شرائط صفراء على ملابسهم، كما أنه ليس لهم الحق في امتطاء صهوة الجياد، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمتطوا بغلة أو حمارًا. كما كانوا لا يستطيعون أن يقيموا كنائس جديدة أو معابد يهودية، وكان لزامًا عليهم أن يقصروا أنفسهم على إصلاح القديم من هذه الكنائس ومن تلك المعابد. ولا يجدر بنا أن نبالغ في رد الفعل الطبيعي في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وفي قلب الإسلام نفسه، كما في معظم الأديان، بلغت العداوة بين الفرق المختلفة مبلغًا أكثر مما كان بينها وبين الكفار من غير المسلمين. ولكي يقود المتوكل هذه السياسة الحازمة، كان عليه أن يعتمد على الشعب الذي ظل مخلصًا في مجموعة لعقائده القديمة، وعلى الحرس التركي الذي اعتنق الدين الإسلامي أخيرًا، والذي كان متحمسًا حماسة المنضوين تحت راية دين جديد. وكان الأتراك من جهة أخرى أعداء بالوراثة للفرس وكانوا يجهلون كل شيء في الفكر اليوناني. كما أن الخلافة سبقت إلى فقدان امتيازاتها السياسية شيئًا فشيئًا حتى انتقلت تدريجًا بين يدي رئيس الحرس التركي، وأمير الأمراء.

الأشعري:

ارتضت فيما بعد القوى الرجعية المؤمنة بانتصارها أن يكون ميدان المعركة هو الأفكار، وحاول علماء الكلام في هذه المعركة في بداية القرن العاشر التوفيق بين المقيدة والفلسفة اليونانية. وكان لابد لهذه المحاولات أن تستأنف في أسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر على يد ابن ميمون، لكن مجالها كان الديانة اليهودية، ثم في القرن الثالث عشر على يد توماس الاكويني بالنسبة للمسيحية. وقد وجد المناطقة حليفًا على غير انتظار في الأشعري (٨٧٣–٩٣٥) وهو معتزلي قديم عاد إلى عقيدة أهل السنة فهاجم –بجميع أسلحته الخاصة– النظريات التي كان قد درسها قديمًا. ودافع بحرارة عن مذهب القضاء والقدر، وأكد انتصار

مذهب أهل السنة والجماعة.

ولم يستصوب المسلمون هذه المعركة التي أثارها المناطقة والتي انحرفت عن روح أهل السنة. وكانوا يتألمون كلما رأوا الدين خاضعًا لمناقشات فكرية، فاضطر المتكلمون أن يقفوا هذه المعركة. وقد اكتفى المؤمن فيما بعد بالعبارة المريحة «بلا كيف». «اعتقد في الله دون أن تسأل» لماذا التي نجد امتداداتها القديمة في أسبانيا أيضًا. ومنذ بضع سنوات، وفي زيارة لبعض ضواحي أشبيلية، كان هناك زنديق عجوز ساجد أمام تمثال للعذراء الموقرة مشدوهًا، وشفتاه تتمتم كأنه كان يتحدث وعيناه تفيضان تأثرًا. ولما حسب نفسه ملتزمًا بتوضيح موقفه هذا فقد قال في بساطة «إنني لا أزمن، لكني أصلي».

الفارابي:

اعتصمت الفلسفة في حلب التي كان يعاني فيها مشقة العيش محمد بن طرخان الفارابي المولود في تركستان. وكان الفارابي قد درس المنطق في بغداد، وفي حران على أساتذة مسيحيين، ولم يكن بأمور الدنيا، فآثر مذهب الصوفية واتهم بالزندقة وهو على شاكلة الكندي، خدعه كتاب «الأنوالوجيا» لأرسطو، وعلى مثال الأشعري أنهى حياته بعقيدة أهل السنة. وإذا كان قد أعلن في شبابه أن «الأزلي» لا يمكن إدراكه بالفكر البشري، فإن هذا لم يمنعه –وقد وصل سن النضج– من أن يعطي وصفًا مفصلاً عن الألوهية، وأن ينقح براهين أرسطو طاليس على وجود الله، مثله في ذلك مثل القديس توماس الأكويني الذي كان لزامًا عليه أن يترسم ذلك فيما بعد بثلاثة قرون وأخيرًا، لم يكن رأيه في مشكلة الخلود مفهومًا مثله في ذلك مثل أرسطو. توفي الفارابي سنة ٩٥٠ في دمشق. ومن بين التسعة والثلاثين مؤلفًا التي خلفها لنا «إحصاء العلوم» وهو موجز لكل العلوم في عصره» وهو موجز لكل العلوم في عصره» وهو موجز لكل العلوم في عصره» وهو موجز لكل العلوم في عصره» وهو موجز لكل العلوم في عصره» وهو موجز لكل العلوم

في عصره» وهو موجز لكل العلوم في عصره. وتشكل دائرة معارف أخرى من مؤلفاته وهي «المدينة الفاضلة» وصفًا لقانون الطبيعة الذي يتصوره على أنه المعركة الدائمة لكل تنظيم ضد كل التنظيمات الأخرى كما أن المجتمع خرج من قانون الغالبة، تبعًا لرأي بعض الناس، عن طريق ميثاق بين الأفراد الذين يرتضون قيود العرف والقانون، وتبعًا لبعضهم الآخر عن طريق هزيمة الضعفاء في هذه المعركة وهم الذين يتحولون إلى أرقاء وآلات بين أيدي الأقوياء وذوي السلطان. ويشير هذا القانون إلى أن الدول نفسها هي تنظيمات متنافسة وأن معركتها ليس لها حكم غير القوة. وانتهى الفارابي من هذا بالحث على مبدأ الملكية القائمة على عقيدة دينية قوية، ويقف موقف المعارضة من اتخاذ أسلوب القوة والكفاح ليعظ أخلاقية البذل والحب.

إخوان الصفا:

بيد أن الميل إلى مناقشة القضايا الفلسفية في بغداد لم يختف. وبعد عشرين عامًا من وفاة الفارابي، أسس أحد تلاميذه جماعة من العلماء. وتبدو هذه الجماعة غير مكترثة بالأصل الديني لأعضائها وبانضمامهم إليها، وكانت مهمة هذه الجماعة خاصة بالمنطق والعلوم.

وانتظمت جماعة مشابهة في البصرة سنة ٩٨٣، لكنها استمسكت بأن تبقى سرية لكيلا تنصرف عن مآربها، وكان لها كثير من المكانة والأثر، وحصلت على مزيد من النتائج، وأطلق عليها «إخوان الصفا[١]»، وكانت تشكل علماء، وفلاسفة مهتمين كل الاهتمام بسمات الضعف التي كانت عليها الخلافة، وبفساد الأخلاق.

وفقر الشعب. وكان إخوان الصفا يبحثون للوصول إلى تجديد في السياسة

---

(١) في كتاب للأستاذ رينولدا. ينكاسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي فصل قيم في سبب هذه التسمية فيرجع إليه من يريد التوسع في هذا الموضوع.

(المترجم)

وفي الأخلاق عن طريق إدماج التشريعات الإسلامية، ومذهب الشيعة، ومذهب الصوفية، والأخلاق المسيحية، والفلسفة اليونانية. وكانوا يزعمون أن الحقيقة تنشأ من ملاقاة الأفكار أكثر من انعزالها. وكانوا يتحادثون بحرية عن جميع القضايا الجوهرية، ولخصوا النظام الناتج عن تعاونهم في إحدى وخمسين رسالة تعكس رغبة محدودة تحديدًا جيدًا لإذاعة أحكام بحسب منهاج معد إعدادًا كاملاً.

في هذه الرسائل نجد شروحًا علمية متعلقة بمعظم الظواهر الطبيعية، وعقيدتها الدينية غنوصية وأفلاطونية محدثة: فمن العلة الأولى، أو بعبارة أخرى من الله يفيض العقل الفعال الذي عنه يفيض عالم الأجسام والأرواح! ويتطلب اتحاد الروح بالعقل الفعال صفاء مطلقًا، ويقدم العلم، والفلسفة والدين الوسائل للوصول إلى هذا الصفاء. وأخيرًا ينظر إلى العقل –بفضل المعرفة– على أنه حر في تفسير «العبارات المشكلة من القرآن بالمجاز والتي كانت مسايرة لفهم قوم غير مصقولين في الصحراء». وكانت مؤلفات إخوان الصفا الواسعة الانتشار تمثل في الحقيقة الفكر الإسلامي في عصر العباسيين. وقد أحرقها أهل السنة في بغداد على أنها زندقة في سنة ١١٥٠. لكنها كانت قد مارست من قبل تأثيرًا حقيقيًا في فلسفة ذلك العصر.

ابن سينا:

لقد ذكرنا اسم ابن سينا على أنه أشهر أطباء تاريخ العصر الوسيط. ولم يهتم ابن سينا بأن يكون «رئيس الأطباء» ويمكن أن ينظر إليه على أنه ذروة الفلسفة العربية في الشرق. كان يتذوق المنطق، ويشغف دائمًا بالتعريفات الدقيقة وبالتصنيفات وبالإيضاحات التي كانت ملحوظة جدًا في كتابه «القانون» وكان ابن سينا يبجل كتب أرسطوطاليس، وقد حذا خذوه في «كتاب الشفاء» وعمل له موجزًا في كتاب «النجاة».

في هذه القضية المشهورة: هل توجد الكليات خارجة عن الأشياء الفردية؟ يقدم ابن سينا الإجابة الكلاسيكية ويعلن أنها كانت موجودة، قبل الكثرة في العقل

الإلهي، وفي الكثرة التي تتجلى فيها، (وبعد الكثرة) في حالة من التجريد في ذهن الإنسان لكن في العالم الطبيعي، لا يمكن أن توجد الكليات خارج الأشياء الجزئية.

وقد أعطى ابيلارد **abelard** وتوماس الأكويني نفس الإجابة بعد قرن من المناقشة وهو رائد عظيم، وقد لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان رائدًا عظيمًا بلغ الغاية. ولم يكن علم «ما وراء الطبيعة» لابن سينا شيئًا آخر غير أنه موجز لما قدمه اللاتينيون بقرنين من بعده على أنه الفلسفة المدرسية. وفي هذه المتيافيزيقا نجد خلاصة مذهب الفارابي وأرسطوطاليس: الممكن والواجبن والكثير والواحد، ولكي يفسر ابن سينا مشكلة الكثير الممكن والمتغير الذي يوجد في الواحد الواجب الوجود والثابت، يفترض وجود عقل فعال متوسط بينه وبين النفس. وينحو هذا المنحى، لكي يحاول أن يثبت مبدأ قدم الذات الألهية مع الانتقال من العدم إلى الوجود، وهي المشكلة التي حلها أرسطو بقبوله بقدم العالم الهيولاني، فيقترح العالم الفيلسوف حلاً توفيقيًا لا يصطدم بمنطق علماء أهل السنة: الله سابق على العالم، ليس فقط في الزمان، بل الذات، فهو الوجود بذاته والعلة الأولى. وبالنسبة إلى ابن اسينا، كل المخلوقات ما خلا الله ممكنة الوجود، وتتطلب علة لوجودها واجبة ولا غنى عنها، وهكذا نمضي في سلسلة العلل إلى علة واجبة بذاتها، فالواجب بذاته من الضروري أن يوجد، إذ لولا العلة الأولى ما أمكن وجود الموجودات. ولأن كل مادة غير ممكنة الوجود. فإن الله لا يمكن أن يكون ماديًا. وفي الحقيقة، هذا البرهان على وجود العلة الأولى بذاتها التي يقترحها ابن سينا لم تكن شيئًا آخر غير تكرار البرهان الأونطولوجي المعروف على وجود الله الذي قال بهالقديس امبراوز (٣٤٠-٣٩٧) قبل ذلك بعدة قرون: «الموجود الذي ينشأ من ذاته الوجود، موجود إذا كان له ذات، والله هو الموجود الذي ينبع من ذاته الوجود، والله ذات، إذن الله موجود».

ويرى العقل الأول كل شيء من ماض وحاضر ومستقبل ليس في الزمان فحسب، بل في الحال، لأن تعقله أزلي. لكن الله ليس هو العلة المباشرة للأفعال،

فهي تملك في ذاتها أهدافها وغاياتها، إذن فالله ليس مسئولاً عن الشر الذي هو ثمن الحرية والذي ربما يكون الخير لكل شيء.

بهذه الحجة الوحدة وفق ابن سينا بين إيمان الجمهور والفلسفة. ووجود النبي ضروري ليعرض على الأمة قوانين الأخلاق في عبارات مفهومة وذات أثر فعال. لهذا عندما يضع دعائم التقدم الاجتماعي والأخلاقي على هذا النحو، فإنه يسلك بحق مسلك الرسول المبحوث من عند الله. وقد يرتاب الفيلسوف في خلود الجسد، لكنه يعترف أنه لو أن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– قد أعلن مثلاً عن سماء روحية فقط ما كان أحد قد اتبعه قط، وما كان العرب قد تجمعوا في أمة واحدة منظمة قوية، وفي الحقيقة تفوق ابن سينا على منافسيه بوضوح أسلوبه وإشراقه، وفي القدرة على معاضدة الفكرة المجردة وتوضيحها بفضل قصص فكاهية كثيرة الاستعارات مستندة إلى أسلوب شائق، وكذلك برحابة معرفته العلمية والفلسفية الفريدة في نوعها، وكان تأثيره كبيرًا في العالم الإسلامي والعالم المسيحي وكان القديس توماس الأكويني يتحدث عنه في شيء من الإجلال كما يتحدث عن أفلاطون واستطاع رينان أن يسجل بأن البرت الكبير[1] كان مدينًا بكل شيء لابن سينا. ومن ثم قد لا يستطيع أحد أن ينكر أن كتابي الشفاء والقانون لابن سينا يرسمان ذروة الفكر في العصر الوسيط، ويشكلان محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية في تاريخ الحضارات.

التصوف:

إن الإسلام الذي نشأ في بيئة واقعية لم يكن تصوفيًا بالذات، لكنه كان لا يستطيع على الرغم من صعوبات تفسير القرآن أن يتجنب ثورة روحية.

كان بعض القوم الورعون لا يقرون التوفيق بين العقيدة والفلسفة، وكانوا يحتجون ضد الترف وانحلال الأخلاق. كان هؤلاء المثاليون يجيبيون في التجرد من

---

[1] لاهوني وفيلسوف من الآباء الدومينيكان، توفي بكولونيا بألمانيا. (المترجم)

لذات الدنيا والسمو إلى قوة الإرادة والزهد حتى الاتصال مع الله، وقد انتشرت – بلا مراء– هذه الحركة في ظل التأثير البعيد للفلاسفة الهنود وللترجمات الأفلاطونية المحدثة، وكذلك بالاتصال بالرهبنة المسيحية، وقد أطلق على هذه الحركة مذهب الصوفية نسبة إلى الصوف الذي كان يرتديه النساك الأول.

حتى القرن العاشر، كان كل ما يميز الصوفيين بساطتهم في الحياة وتقواهم، وكانوا يجتمعون حول قدوة صالحة لإقامة الصلاة والتسامي بأنفسهم معًا، وكان بعض الصوفية يعيشون في عزلة زهادًا. ورويدًا رويدًا انتشر الأولياء غير المعروفين في صدر الإسلام في أعداد لا حصر لها من بين الصوفية بحيث إن الخيال الشعبي نسب إليهم قدرات خارقة وروى عن أمرهم ظواهر من الجلاء البصري والشعور عن بعد تثير الإعجاب. وأرسى الغزالي أسس التصوف مستمدة من عقيدة السلف. واستطاع المؤمنون أن يبحثوا عن النجاة بالجذب والإشراق، كما سعوا إلى ذلك بالأعمال الصالحة، بيد أن أهل السنة رأوا تكفير بعض المذاهب على أنها زندقة، تلك المذاهب التي نشرها بعض المسلمين لكي ينحرفوا عن الشريعة الإسلامية، ولكي يخففوا اتجاهات ثورية. وفي مذهب الشيعة، كانت فرقة الإسماعيلية تجذب بخاصة الساخطين. وفي سهولة ويسر تشكلت هذه الفرقة من جماعة سرية، وجمعت شخصيات من ذوي السلطان وبعض المثقفين، وبعثت دعاة لنشر مذهبها وأصبح مع الزمن مذهب الشيعة قوة هامة، وانتشر في أفريقية الشمالية، وأنشأ أسرة الفاطميين.

في سنة ٨٧٤، اعتلى فلاح عراقي نشيط كل النشاط هو حمدان قرمط، رياسة الفرقة وأنشأ على شاطئ الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من الخليج الفارسي في الإحساء، جمهورية اشتراكية وعلمانية. وبعد أن دفع أتباعه خمس أموالهم ودخولهم إلى بيت المال، طالبوا بالمساواة العامة، وشيوعية الأموال والنساء، وألغوا العبادات وأيام الصيام، والحج إلى الأماكن المقدسة، واعتمدوا كالقائلين بحرية التدين أو عدمه تأويلاً مجازيًا للقرآن. لكن لم يكن هذا كل شيء.

فبعد أن أنشأ قرمط ومريدوه دولة مستقلة على الشاطئ الغربي من الخليج الفارسي، جمعوا جيشًا قويًا ونهبوا سوريا بعد أن هزموا جيش الخليفة في سنة ٩٠٠، واستولوا على البصرة، والكوفة ثم في سنة ٩٢٩ تحت قيادة رئيسهم أبي طاهر الجنابي، استولوا على مكة، وعذب ثلاثون ألف مسلم، ونهب بيت المال، وكذلك كسوة الكعبة والحجر الأسود. وعندما غلبت الحكومة القرمطية على أمرها رويدًا رويدًا من جراء جرائمها واغتصابها للأموال، لم تستطع أن تقاوم ثورة أتباعها أنفسهم الذين انتهوا إلى إقرار النظام وإعادة الملكية من جديد.

الغزالي:

كان أهل السنة يناضلون بكل جهدهم ضد الخارجين عليهم من شتى الفرق، فالمؤلهة يعتقد بإله واحد وبالخلود وينكرون الخلق والبعث، والمقرون بوجود الإله يعترفون بالألوهية وينكرون خلود النفس، والماديون لم يعترفوا بوجود الإله.

بيد أنه في بغداد، كان هناك عالم ديني شاب هو أبو حامد الغزالي يجذب أهل العلم إلى دراسة في المدرسة النظامية السنية. وكانوا يأتون من كل بلاد العالم الإسلامي ليشيدوا بجدله وقوة بيانه. ولد في طوس من أعمال خراسان في سنة ١٠٥٨، وتوفي أبوه وهو صغير السن فتولى أمره أحد الصوفية، وأرسله إلى نيسابور لكي يدرس الشريعة والدين والفلسفة. وهناك، بعد عدة سنوات من النجاح المتزايد، أصيب الغزالي بمرض غريب أدى إلى شلل أعضائه، وحبسة كلامه، فلما أحس بدنو أجله، راح يستشير طبيبًا وصف مرضه بأنه مرض عقلي دون أن يفسر السبب الحقيقي للمرض. وقد أعلن الغزالي فيما بعد بأن أزمة خطيرة روحية كانت قد دفعته إلى أن يضع موضع المناقشة جميع مبادئ المعرفة، وعندما يئس من عدم استطاعته إسنادها إلى العقل، وقع الفيلسوف فريسة يأس عميق كان هو السبب الحقيقي لمرضه. وقد تخلى الغزالي عن كل شيء، عن منصبه في التدريس ومقرراته، ولاذ بالعزلة. وكان لزامًا عليه أن يعيش أحد عشر عامًا في الزهد، ممارسًا المذهب

الصوفي، وباحثًا في العالم الداخلي عن سند افتقده في المعرفة. ثم شرع في كتابة مذهبه. وبعد أن أخضع نظرية الحس لامتحان دقيق، انتهى إلى أن الحقيقة التي يستند عليها المذهب المادي تشوبها الأخطاء.

واتخذ على سبيل المثال خطأ الحس البصري الذي يشير إلى أن النجوم صغيرة على حين أنها لكي تكون واضحة على الرغم من بعدها المتناهي لابد أن تكون ذات حجم ضخم كبير. كما أنه بعد أن جمع عددًا معينًا من أمثلة أخرى لأخطاء الحس، انتهى إلى أن الحس لا يمكن أن يكون بذاته برهانًا على الحق، ولكن ينبغي أن نقرر أن العقل المستند إلى الحس يعد دليلاً أصح. ويحقق الغزالي هذا الدليل بطريقة ميتافيزيقية في التأمل الصوفي الذي يعد منبعًا للحقيقة أدنى إلى القلب من الفلسفة. وعلى ذلك فقد كتب «تهافت الفلاسفة» الذي يوضح أن العقل نفسه يتجه بالإنسان إلى الشك، وبالمجتمع إلى الإفلاس، وبالحضارة إلى هلاك محقق. وعندما وصل الغزالي إلى هذه الذورة من وجوده الروحي، هجر عزلته، واستأنف تدريسه في نيسابور. وبكل حزم شبابه قام يدافع وقتئذ عن عقيدته السنية المجددة، والتي نشرها في مؤلف من أعظم مؤلفاته شهرة، المعنون بعنوان معبر جدًا: «كتاب إحياء علوم الدين». وفي هذا العرض التام للصوفية، يتحاشى بعناية مغالاة المذهب الإشراقي ويوفق بين هذا المذهب والدين دون أن يقلل من شأنه ومن وجهة نظره أن المعرفة ليست بمهنة، ولا بحرفة دنيوية إنها على العكس فيض إلهي من القلب، وصلاة داخلية، ووسيلة يمارسها الضمير الإنساني للتقرب من الله.

نستطيع أن ننظر إلى الغزالي على أنه المصلح الأكبر للدين والمفكر الأكثر أصالة، والعالم الديني الأكثر علوًا في العالم الإسلامي. ولم يسبق أبدًا للشكاك والفلاسفة أن صادفوا خصمًا متشددًا غاية في الدقة مثله. ولكن، في المغرب عندما استنكر أهل السنة مؤلفة، أحرقوا «الإحياء» في احتفال أمام باب مسجد قرطبة الكبير. وهذه كانت حركة من التقوى الوضعية بحثًا عن مناصب ومصالح دنيوية. وعلى الرغم من رد الفعل هذا، وعلى الجملة، فإن علماء جميع الأديان بل

المسيحيين أنفسهم رجعوا إلى مؤلفه. ودام تأثيره بعض الوقت، وبعد سنوات من وفاته، كانت الزندقة المكبوتة التي بعثت من جديد حتى سنة ١١١١، تتحاشى الظهور مرة أخرى، وكانت الفلسفة لا تجسر كثيرًا على الظهور على الرغم من انتمائها إلى الاسم العظيم ابن رشد.

ابن رشد:

كان ملوك أسبانيا المسلمون يتذوقون بقوة مع ذلك البحوث الفلسفية، وكانوا ينكبون عليها عن إخلاص: ومن المقرر أنهم كانوا يعدونها ضارة بعامة الناس، وصار لزامًا على الفلاسفة أن يظهروا الحرص والحذر في كتاباتهم. وكان ممثلهم الأعظم والأخير تاريخيًا ابن رشد الذي دخل في رعاية بلاط الموحدين قرابة ١١٥٣ نتيجة لمقابلتين تاريخيتين دبرهما بمهارة ابن طفيل. وهو طبيب، وكاتب، ووزير عند الخليفة أبي يعقوب يوسف، ولم يكن للحسد الذي تخلقه الزمالة أثر في نفس ابن طفيل من ناحية ابن رشد، وهو طبيب وفيلسوف مثله.

وابن طفيل المسمى **Alupacer** عند الغربيين هو في الحقيقة مؤلف القصة الفلسفية الأكثر جاذبية والأكثر ابتكارًا في العصر الوسيط: «حي بن يقظان» فهو يوفق في القرن الثاني عشر في شمال أفريقية بين الفلسفة والتصوف. وعندما ترجم إلى اللاتينية في سنة ١٦٧١، وإلى معظم اللغات الأوروبية في سنة ١٦٧٢ وبخاصة إلى اللغة الإنجليزية، أوحى بقصة روبنسن كروز لدانيل دي فو وترجم إلى اللغة الروسية في سنة ١٩٢٠، وإلى اللغة الأسبانية في سنة ١٩٣٤.

وبطل قصة ابن طفيل طفل ترك وشأنه في جزيرة مهجورة، وأرضعته غزالة فقدت صغيرها. فأطعمته لبنها، وتعهدته بحنان. وترعرع في الطبيعة، ولعب مع حيوانات صغيرة، وروضها، لكن الغزالة أمه ماتت. وأنكر هذا الموت وشق صدرها وبحث عن زوجها، هي أصل الحياة فلم يجدها. ومن ثم أخذ يلاحظ ويفكر ويجرب: شق بطن حيوان حي آخر بحثًا عن هذه الروح التي لا يمكن إدراكها.

وكان الجراح تروسو[1] يقول فيما بعد بسبعة قرون «سأعتقد في وجود الروح عندما أجدها في نهاية مبضعي «لكن بطل ابن طفيل فسيولوجي وسيكولوجي في وقت واحد، ولحسن الحظ ميتافيزيقي كذلك، فهو يرقى إلى فهم العالم العلوي وبجد تدريجًا ما كان يبحث عنه، ألا وهو تكامل الروح في الوجود العظيم للعالم.

وعندما نزل في الجزيرة رجل متصوف يبحث عن العزلة، علم حي بن يقظان القراءة وحثه على نشر الحقائق السامية التي عرف كنهها وحده. وراح الاثنان يهديان العوام ويقرران أن الحقيقة الخاصة ليست سهلة على الإدراك. وأنها لكي تنفذ إلى العقول الفجة لابد من تغليفها بالأساطير والمعجزات والاحتفالات، وبالاختصار بجميع الرموز التي تشكل على وجه الدقة المذاهب الدينية المنزلة. وفي مواجهة الرجال الذين لا يستطيعون فهمها، يعتذران عن تطفلهما ويحثان مستمعيهما أن يحافظوا بأمانة على دين آبائهم، وأن يصموا آذانهم عن ضلالة الأفكار الجديدة. ثم يعودان إلى جزيرتهما المهجورة للعيش في الحياة العلوية التي يتميز بها قليل جدًا من الرجال، والتي هي مصير الأرواح الكبيرة.

ولد ابن رشد في سنة ١١٢٦ في قرطبة التي تولى فيها جده وأبوه منصب القضاء. وكان هو نفسه قاضيًا في اشبيلية وفي قرطبة، ثم استدعاه أبو يعقوب يوسف إلى مدينة مراكش كطبيب أول في بلاط الموحدين في سنة ١١٨٢ وكان هذا البلاط يرعى الفلاسفة على شرط أن تكون مؤلفاتهم بعيدة الغور في آرائها. لكن يجب أن نعتقد أن المرء كان يفهم منها بعض الشيء، وعندما رحل أبو يوسف يعقوب في إحدى غزواته، تخلى عن الفلاسفة من أجل أن يكسب ثقة الفقهاء وذاق ابن رشد من هذا الحاكم نازلة عابرة، ثم عاد إلى البلاط وأبعده في عام ١١٩٤ لكي يرضي غضبه الرأي العام ضد إلحاده. وعندما منحه الخليفة عفوًا تامًا

[1] طبيب فرنسي ولد في تور، ومات في باريس (١٨٠١-١٨٦٧)، ألف كتابًا عن «العيادات» وبحثًا عن «الطب الوقائي» بمعاونة الطبيب بيدو، ومات مصابًا بالسرطان.

(المترجم)

واستدعاه، مات في نفس العام في العاشر من ديسمبر في مراكش. ونحن نعرف أنه كان طبيبًا عظيمًا. وكان فيلسوفًا أعظم. وأبو يعقوب يوسف الذي كان قد أدهشته بمعرفته منذ المقابلة الأولى، طلب منه شرحًا على كتب أرسطو فظفر هذا الاقتراح من ابن رشد بكل قبول، فقد كان ابن رشد يعتقد أن الفلسفة كلها اجتمعت في أرسطو، وأن من واجبه أن يشرحها. وكتب لكل مؤلف من مؤلفات الفيلسوف اليوناني تلخيصًا وشرحًا أوسط، وشرحًا أطول. وكانت هذه بحوثًا حقيقية على طريقته وذات تحليل ثاقب الفكر، بعيد الغور استحق بها ابن رشد أن يظل الشارح العظيم لأرسطو بالنسبة للغرب كله.

وفوق مؤلفاته عن أرسطو طاليس، نحن مدينون له كذلك برسائل في علم النفس، وعلم ما بعد الطبيعة، والدين، والمنطق والفقه. وعلى النقيض من الغزالي يؤكد ابن رشد حرية الفيلسوف في البحث عن الحقيقة، بإقراره مع ذلك بضرورة استخدام الكتب المنزلة، بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسلموا إلا بآراء في متناول عقولهم تجاه العلل الأولية. ويقرر الفيلسوف بالنسبة لعقول أكثر تطورًا أن المذاهب الديني المفسر تفسيرًا رمزيًا يمكن أن يتفق مع كشوف العلم والفلسفة. فما الذي يمكن أن نأخذه على ابن رشد وهو يحدثنا بهذه العبارات: «الحركة أبدية، ومستمرة، وكل حركة لها علتها في حركة سابقة. ولا حركة بلا زمان. ولا يمكن تصور الحركة بغير بداية وبلا نهاية، والخلق خرافة أما العالم فهو خلق مستمر من الله الذي هو نظام العالم وقوته وروحه».

ويتركب العقل البشري من عنصرين: العقل المنفعل الذي يشكل جزءًا من الجسد والذي يفنى معه، والعقل الفعال وهو فيض إلهي، لا يتكثر مع الأفراد وهو وحده الخالد. وانطلاقًا من هذا التعريف، يوازن ابن رشد بين فعل العقل وفعل الشمس التي تجعل الأشياء مضيئة، ولكن تبقى في كل مكان وعلى الدوام واحدة. وفي الحق إنه لا وجود للعالم اللهم إلا بالنسبة للعقل الذي يدركه، وفكرته عن الجنة أنها الحكمة الهادئة والخيرة للحكيم. وكانت هذه كذلك ما انتهى إليه

أرسطوطاليس.

وبلبل ابن رشد أكثر من أي مفكر آخر، العلماء والمثقفين من المسيحيين في العصر الوسيط. وأثار هذا الفيلسوف من قبل رد فعل لدى المسلمين ثم لدى اليهودية وأخيرًا لدى المسيحيين. ولم يكن مع ذلك ملحدًا، أو غير مؤمن كما قيل عنه، لكنه كان مفكرًا منطقيًا يدعو إلى حق إخضاع كل شيء إلى الرأي وإلى العقل ما خلا العقائد المنزلة. ومع ذلكن بينما كان الفلاسفة يلائمون بعامة بين مذهب أرسطو وبين الواجبات الدينية، أخضع ابن رشد العقائد إلى الحد الأدنى في القابل للتوفيق مع أرسطوطاليس. ومهما يكن فإن المسلمين أسرعوا في تنفيذ أمر الخليفة المنصور الذي كان قد فرض بأن تلقى في النار كتبه الفلسفية، وأن يقضى عليها بالنسيان. واحتفظ اليهود بمؤلفاته المترجمة إلى اللغة العبرية. ولم تكن تعليقاته لدى المسيحيين أهون من أن تزلزل بطريقة جدية إيمانهم العقائدي، وألف القديس توماسي الاكويني كتاب «الخلاصة» لكي يناهض فكر ابن رشد، لكنه لم يستطع أن بفعل شيئًا آخر غير أن ينهج نهج ابن رشد في شروحه المتنوعة. وفي النهاية قررت جامعة باريس دراسة الفلسفة الرشدية التي هذبتها السلطات الكنسية التهذيب المطلوب. وأصبح تأثيرها حاسمًا في كل تطور الفكر الأوروبي حتى ظهور العلم التجريبي.

وبعد ابن رشد بقليل، كان لزامًا على ابن ميمون وهو فلكي وعالم ديني أن يسعى أيضًا للتوفيق بين اليهودية والأرسطوطالية الإسلامية. وفي «دلالة الحائرين» وهو مؤلفه الفلسفي الرئيسي، لم يتردد ابن ميمون في محاولة تفسير تنبؤات الأنبياء بتمثيلها بتجارب روحانية. ووصف علماء اللاهوت اليهود كتابه على أنه كتاب ضار، ومع ذلك كانت الأفكار الفلسفية التي نشرها ذات منهج مبتكر ومتنوع عن أفكار ابن رشد التي كانت تتشابه أيضًا في كثير من جوانبها مع آراء هذا الأخير.

وصفوة القولن أنه استجاب لحاجة الفكر والتطور العقلي استهدف فلاسفة

الإسلام في المغرب التوفيق بين الإيمان؛ والعقل، والدين والعلم، وبهذا الحق أنشأوا الحلقة الأخيرة للسلسلة التي نقلت الفلسفة اليونانية من الشرق الأدنى إلى الغرب اللاتيني.

نقلة طليطلة:

إن الجهد العجيب الذي حققه نقلة المؤلفات اليونانية في الشرق في القرن التاسع تجدد في أسبانيا، ولكنه كان هذه المرة في إطار اللغة اللاتينية، وكانت المعرفة تشكل جوهر هذا الجهد.

افتتح ريموند رئيس أسافقة طليطلة بداية هذا الجهد بترجمة «كتاب النفس لابن سينا» إلى اللغة اللاتينية وأصبحت طليطلة بفضل ريموند في القرن الثاني عشر ملتقى كبار المفكرين الغربيين فأوهمار من أهل بات[(١)] وهرمان من أهل دلماسيا وروبرت من أهل رتين[(٢)] كانوا جميعًا يرغبون ملحة في المعرفة، وكانوا يأتون إلى أسبانيا الإسلامية بحثًا عما لا يجدونه في بلادهم. وضرب الفونس العاشر –الملك العالم وحاكم قشتالة– المثل الأمثل وحوط نفسه بعلماء من جميع النحل مزدريًا التاج الإمبراطوري.

لم تبلغ –بدون شك– مدرسة النقلة الشهيرة في طليطلة عظمة مدرسة بغداد. ومع ذلك وبغض النظر عن ترجمات الكيميائيين لا نجد أقل من ثلثمائة مخطوط مترجم، يخص الطب منها قرابة الثلث. وترجم جيرار الكريموني وحده واحدًا وسبعين مؤلفًا في العلوم كانت تشكل في ذلك العصر موسوعة حقيقية للمعارف الإنسانية التي انتفع بها مفكرون من العلماء مثل ميشيل سكوت وروجيه باكون والبير الأكبر، والقديس توماس الاكويني، وفنست البوفيسيان. وعن طريق اتساع نطاق الوثائق ذات الأصل العربي وتنوعها وهي التي استطاع جيرارد الكريموني أن

(١) مدينة من مدن إنجلترا. (المترجم)

(٢) مدينة من مدن بلجيكا. (المترجم)

يذيعها في البيئات العلمية يمكن أن ينظر إليه على أنه المؤثر الأكثر غزارة في المعرفة الغربية في العصر الوسيط.

إن القرون الخمسة التي لخصناها تعد أكثر القرون سموًا في تاريخ الفكر الإنساني. ويمكن أن نؤكد أنها جمعت باللغة العربية ثروات ثقافية أكثر من ثروات جميع اللغات الأخرى مجتمعة سواء ذلك في العلم، أو الطب، أو الفلسفة.

وهكذا فإن التيار الكبير للثقافة الذي نشأ في مصر، وفي كلديا، وفي آشور، وفي فينيقية، وفي فلسطين، والذي كان يتجه نحو اليونان، عاد من جديد تحت شكل موحد للحضارة اليونانية في الشرق الأدنى حيث كان العرب قد جمعوها فيه. ثم أضافوا إليها مصادر من الإلهام الهندي الذي نقلته فارس، وضخموها بجهودهم المبتكرة، ثم وجهوها عبر أفريقية حتى أسبانيا التي كانت لزامًا عليها أن تنمو أيضًا. ومن طليطلة «المدينة ذات العقيدة الثلاثية» انتشر التيار العظيم في مراكز الفكر العربي من جنوب فرنسا، ووصل إلى ديركلوني وعن طر يقه وصل إلى إقليم اللورين، وألمانيا، وإنجلترا، وكل أوربا الغربية.

وكان العرب قد أضافوا إلى التقدم الإنساني أهم إسهام في العصر الوسيط.

الباب الرابع

(١٩) الأفول في الأندلس

بلاط أشبيلية:

بقدر ما يتطور تاريخ الحضارة العربية، يكون من المفيد أن نلاحظ الخصائص التي تتميز بها أصالتها. فالذي يبدو غريبًا كل الغرابة هو بلا شك الوجه المزدوج لهذه الحضارة التي تتصف بالرفعة والبداوة، وبالرقة والقسوة في وقت واحد.

ويدهش الرجل الغربي من وجود نماذج لملوك وعظماء داخل قصورهم الشم يعرفون كيف يحوطون أنفسهم بفلاسفة وعلماء، وكانوا في الوقت نفسه شعراء مرهفي الحس ونماذج للقسوة البغيضة.

ويمضي كل شيء كما لو كانت الروح الشرقية قد تعودت خير الأمور وأسواها. كان العربي شجاعًا عظيمًا، وكان يتكشف كذلك أحيانًا عن بدوي ثابت الجنان، وعلى استعداد بقلب ثابت وفخور لمقابلة الموت الذي يصيبه مدفوعًا بغريزة تحثه على الاستشهاد دون التفكير في الحصول على مجد.

استمرت هذه الغريزة الموروثة عبر القرون، وثبتت في بغداد وفي أشبيلية في عهد هارون الرشيد كما ثبتت أيضًا في عهد المنصور، وفي عصر الفتح كما في عصر الأفول. وهذه الظاهرة التي لا يمكن تفسيرها، والتي لا تخص إلا رجل الصحراء لا توجد دون أن توجد له همًا مؤرقًا تجاه مستقبله.

ولا يغفر الرجل الغربي له هذا الخليط من الرقة ومن القسوة التي لا تخلو قط من إثارة فضول الكاتب والفيلسوف. وربما تكون قصة حياة المعتمد في اللحظة

التي دقت فيها ساعة تقهقر العرب وإعادة الفتح الإسباني والمسيحي مفعمة بالدروس.

وفي الوقت الذي أعلنت فيه أشبيلية أنها مستقلة عن قرطبة سنة ١٠٢٣ قسمت أسبانيا الإسلامية إلى ٢٣ دويلة. وكان الكثيرون يفضلون أشبيلية لسحرها، ولشعرائها الملهمين، ولحدائقها وورودها، ولمرحها المشوق والذائب أبدًا بالرقص والغناء. وفي هذا الموقع الساحر كان الشعراء يقبلون على المطارحات الشعرية. ويحكي ابن خلدون أنه في إحدى هذه المطارحات أنعمت ندوة لها مكانتها الشعرية بوسام على الشاعر الأعمى الطليطلي في معرض إلقائه شعرًا عن الحب وحبيبته:

ضـــــاحك عــــــن جمــــــان   ســــــافر عـــــــن بـــــــدر
ضــــــاق عنــــــه الزمــــــان   وحــــــــواه صــــــــــدري

وفي ذلك العصر، تولى محمد بن عباد منصب القضاء الكبير في أشبيلية. وعندما عثر محمد بن عباد بطريق المصادفة على صانع حصر يشبه هشام الثالث، الملك المخلوع، قفزت إلى ذهنه فكرة: ماذا لو ولاه الخلافة..؟ ثم استولى بنفسه على الحكم. وحكم ولده عباد المعتمد الذي خلفه إشبيلية باللين حينًا والقسوة حينًا، وعندما رضي عن نفسه أخذ يزرع الأزهار في جماجم خصومه. وتكشف هذه الفكرة الشاذة عن طبيعة الرجل، وتشير إلى الوجه التناقض لسلوكه. وفي سنة ١٠٤٢ عند موت هذا الملك المولع بسفك الدماء، ورثه ولده المعتمد (١٠١٦–١٠٩١) في الملك وكان يبلغ من العمر ٢٦ عامًا، وكان شاعرًا بل أصبح أيضًا أعظم شاعرًا في أسبانيا الإسلامية. وكان المعتمد منذ شبابه يفضل سلفًا صحبة المتفننين ورجال الأدب على جماعة السياسيين ومن ثم كرس نفسه للآداب، والفنون والعلوم. وقد عرف–وهو نصير كريم للآداب والفنون– كيف يكافئ عن طيبة خاطر أحسن منافسيه الذين كانوا ينافسونه الموهبة. وكان المعتمد حكيمًا في

تصرفه إزاء احتفاظه بوزير أبيه ابن زيدون (١٠٣٣-١٠٧٣). ويستحق منا أن نروي تاريخ هذا الوزير، وتاريخ ميوله العاطفية كشاعر لأنهما يوضحان ما كتب في بداية هذا الفصل.

وسرعان ما أدى فشل وزراء القصر والعامريين إلى فشل الخلفاء والأمويين، فإن أوكار المؤامرات كانت قد تجمعت بعض الشيء في كل مكان حتى في منتديات (صالونات) الصفوة من الناس. وكانت الأميرة ولادة، وهي من بيت أموي تملك منتدى (صالونًا) أدبيًا يرتاده الشعراء. وقد اشتهرت بأنها أدبية ذات أصالة على غرار كثيرات من جاريات بلاط هارون الرشيد، فكانت تنظم شعرًا على ملابسها وعلى حالها، وكان المرء يستطيع أن يقرأ على أحد عاتقي ثوبها:

أنـــــا والله أصـــــلح للمعـــــالي وأمشــــي مشــــيق وأتيــــه تيهــــا

وعلى الآخر:

وأمكــن عاشــقي مــن صــحن خــدي وأعطــي قبلتــي مــن يشــتهيها

وعلى الرغم من مباذلها كانت ولادة عفة، وإرضاء لهؤلاء وأولئك كانت الأميرة المدللة تدع نفسها لعشرين شابًا يولعون بها حبًا. ولا يخفي التاريخ أن صراحتها بلغت حد المكاشفة في سرد قصص غرامياتها دون تردد وبحرية لا تعرف الحدود.

وليس من المفيد أن نشترك في مناقشة يرجع موضوعها إلى الوراء ألف عام تقريبًا إذ لا يظهر أن الطبقة العليا من المسلمين قد تأثرت بهذه المناقشة، وكل موقفها يتركز في هذه الوقفة المبهوتة تجاه سلوك ولادة المتحرر. ومع ذلك، فقد حدث أن ابن زيدون أولع ذات يوم بها حبًا. ولما كان يجيد اللون الغرامي، والمديح بأسلوب بليغ، فقد قال الوزير موعدًا وعد به للمطارحة في نظم الشعر، ثم أعقبته مواعيد أخرى كانت سببًا لمطارحات جديدة من القصائد الشعرية، وكان كل شيء يجرى على ما يرام حتى كان يوم أغرم فيه الوزير الفتى ابن عبدوس -بدوره- بولادة

الجميلة. وكان ابن زيدون الغيور يجيد كذلك الهجاء، وقد سخر من الوزير الذي أجابه باستصدار أمر ملكي بالسجن لخيانة في العمل، على حين أن الخائنة الجميلة دخلت في حريم فاتنها الآخر. ويناجي الوزير الشاعر في سجنه السماء المرصعة بالنجوم التي لم يعد يراها فيقول:

يــــا ليـــــل خبـــــر ألفـــــي	التـــــــذ عنــــــه خبـــــرك
بـــالله قـــل لـــي هـــل وفـــي	فقـــال.. لا، بـــل غـــدرك
ويــا نســيم الصــبا بلــغ تحيتنــا	من لو على البعد حيي كان يحيينا
ويـــا حيـــاة تملينـــا بزهرتهـــا	منـــي ضـــروبًا ولـــذات أفانينـــا
يــا روضــة طالمــا أجنــت لواحظنــا	وردًا جــلاه الصــبا غصــنًا ونســرينا
ويــا نعيمًــا خطرنــا مــن غضــارته	فـي وشـي نعمـي سـحبنا ذيلـه حينـا

لكن هذه القصائد الشعرية لا يمكن أن توازن بتلك التي نظمها المعتمد نفسه، والتي تعد من أجمل المؤلفات الأدبية لشعراء العرب الكلاسيكيين.

حدث أن التقى بجارية جميلة متفننة وشاعرة هي «رميكية» التي خصصت حياتها الأدبية للمعتمد. وعندما سحر بإلقائها وموهبتها، أولع بها حبًا ثم تزوجها وعاشت إشبيلية منذئذ في أعياد وانهمكت المدينة –دون اهتمام– بما سيكون في ضمير الغيب في ترف فكري وفني شأن بغداد في أجمل أيامها. ولقد شغف المعتمد حبًا بابن عمار –الذي أصبح وزيره المفضل– لحلاوة شعره وتنبؤاته الرائعة:

أدر الزجاجـــة فالنســـيم قـــد انبـــرى

والـــنجم قـــد صـــرف العنـــان عـــن الســـرى

والصـــبح قـــد أهـــدى لنـــا كـــافوره

لمـــا اســـترد الليـــل منـــه العنبـــرا

والـــروض كالحســـنا كســـاه زهـــره

وشـــيا وقلـــده نـــداه جـــوهرا

أو كـــالغلام زهـــا بـــورد رياضـــه

خجـــلا، وتـــاه بآســـهن معـــذرا

وهكذا كان ابن عمار يعبر عن نفسه خلال قصيدة من أجمل قصائده المرتجلة. والتقدير الذي منحه المعتمد لابن عمار من أجل موهبته الغارقة في لذة جسدية مغلقة، ذات حساسية حادة، سرعان ما تحولت –كما قدر لها– إلى حب جازف وحاقد. وعندما عين حاكمًا على شلب، لم يستطع الملك أن يتحمل غياب صديقه وقتًا طويلاً فاستدعاه في حضرته.

وكان الوقت عصيبًا إذ كان الفونس السادس ملك قشتالة قد قدر الاستيلاء – مستغلاً تفتت أسبانيا الإسلامية– على قرطبة وعلى أشبيلية اللتين لم تكونا جد قادرتين على مقاومته. وقد نح ابن عمار بمهارة كبيرة في سفارته لدى ملك قشتالة كيما يثنيه عن مشروعاته الحربية، وأنقذ المدينيتن مقابل جزية متواضعة. وقد كان هذا النجاح سببًا في حمل المعتمد أن يعهد إليه بمهمة أكثر صعوبة وهي مهمة تنصيبه حاكمًا على مرسية. وبقدر من الحظ، نجح الوزير عسكريًا، واستجاب كل الاستجابة لرغبات خليفته، لكنه، عندما ثمل من انتصاراته، وأفرط في الزهو واطمأن إلى مستقبله، قاطع المعتمد وأعلن نفسه بدوره ملكًا مستقلاً. وعندما غلب الثائر على أمره، اقتيد مكبلاً بالقيود.

ومضت بضعة أيام كانت عزيمة المعتمد الغاضبة خلالها تتراخى، وحاول الشاعر الأسير أن ينال عفوه بأن وجه إليه التماسًا مؤثرًا وجليلاً، فقد كان لا يعني شيئًا من هذا الالتماس، غير أن يقلع المعتمد عن العقاب الأعظم الذي كانت

تستحقه خيانته. ولما كان لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لكي ينال عطف الملك، فقد كان يذكره بجميل ما كان بينهما من حب. وفي بيت من الشعر، صور بمهارة فائقة، كان يتملقه فيه جهرًا بأنه أكثر قوة من القدر. وأنه حاكم الموت نفسه.

وبـــين ضـــلوعي مـــن هـــواة تميمـــة   ســـتنفع لـــو أن الحمـــام يحلـــج

وقد أثار هذا البيت من الشعر النقاد من رجال الأدب، ومن الشعراء، لكن المعتمد وهو ذواقة ماهر، بسبب حبه للشعر وللشاعر أيضًا بلا ريب، دافع عن ابن عمار بقوله: «إن الله منحه ذكاء حادًا وأخاذًا» فكان العفو قاب قوسين أو أدنى. ولسوء الحظ، عجلت بموت ابن عمار أكذوبة جديدة. فعندما استبد به غضب عنيف، أهوى عليه بنفسه وقطعه إربًا إربًا بضربات من الطبرزين، ثم بعد أن أعطى الأمر بغسل بقاياه جسده، صلى الصلوات الأخيرة على رفات الذي كان قد أحبه كثيرًا، وواراه التراب في القصر المبارك.

وفي كل عام كان بعث مسيحي يأتي إلى أشبيلية لاستيفاء فدية السلام التي كان قد تعهد بها المعتمد لألفونس السادس. وفي سنة ١٠٧٩ عندما وصل الوفد، كان المعتمد في حرب مع ملك غرناطة البربري عبد الله الزيري الذي كان بدوره تحت سلطان ملك قشتالة. ولما أمسى الأسبانيون في جو حربي، بادر، بمعاونة حرسه، إلى الدفاع عن الحدود الأشبيلية مدعيًا أن حاكمها كان تابعًا لملك قشتالة، ما دام يدفع جزية.

كما كان يوجد بين جنود المعتمد قشتاليون بنسبة كبيرة نتيجة لسياسة الفونس السادس الذي كان يوازن بين القوات الإسلامية المتنافسة ليحد من أطماع المعتمد، وهكذا كان فرسان مسيحيون في نزاع وجهًا لوجه في كل من المعسكرين الإسلاميين خلال المعركة التي دارت رحاها في كابرا، وكانت فشلا لغرناطة. وعندما انتهت المعركة عاد الوفد حاملاً الجزية من أشبيلية إلى قشتالة تحت قيادة رئيسها

الذي لم يكن غير الملك نفسه.

ولم تحتفل أشبيلية بانتصارها. وكان علماء الذين يشكون من هجر المساجد ويؤاخذون رميكية على فتور زوجها تجاه الدين. وكان الحزب التقي الإسلامي يرقب أقل الأفعال والتصرفات من الملك وزوجته. وعلى ذلك كانا مضطرين إلى أن يركز كل منهما عمله في خلق جو أكثر ملاءمة، وذلك بأن يؤدي المعتمد بعناية واجباته كمسلم ورع، وبأن تقف زوجته جزءًا من أموالها على مؤسسات ديفية.

الموحدون:

لكن في سنة ١٠٨٥، كان هناك خبر فجائي أذهل دويلات أسبانيا الإسلامية. فقد استولى الفونس السادس –توا– على طليطلة. وأدرك المعتمد أن درره قد حان، وأن المدن الإسلامية حتى في توحيد قواها لن تستطيع أن تقاوم مقاومة جدية ملك قشتالة، وليون بطل الفتح الإسباني والمدافع عن النفوذ المسيحي. واستنجد ملوك العرب في أسبانيا بالملك الموحدي يوسف ابن تاشفين الذي كان يحكم من الشاطئ الآخر للبحر المتوسط كل القطر الذي يمتد من بجاية إلى سوسا، ومن تافيللت إلى السودان.

وقد وعد يوسف –الذي ألف تقاليد الحرب المقدسة ضد المسيحيين– عبر المضيق مع جنوده الصحراويين الملثمين، وهم جنود فدائيون صادقون، وجمع الشبان الأندلسيين المهيئين للخدمة العسكرية من مالقة وغرناطة وأشبيلية، والتقى بالقوات المسلحة في الزلاقة أو ساجراباس بالقرب من بطليوس في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٠٨٦. وقد اقترح الفونس على يوسف بقوله: «غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده الأحد وهو عيدنا، فليكن لقاؤنا يوم السبت» وارتضى ذلك يوسف لكن الفونس شن هجومه الجمعة. وحارب يوسف والمعتمد بكل شجاعة، فكانت هذه كارثة للمسيحيين أفلت منها الفونس مع ٥٠٠ رجل، لكن الفارس البربري الكبير الذي لا تفارقه عزة النفس الإسلامية أدهش الجميع بعودته

إلى أفريقيا دون غنيمة.

ولما خشي الفونس عودة الهجوم من قبل العرب، اهتم بشكل جدي آنئذ بجمع جيش كثير العدد وحشد كل طبقة الأشراف القشتالية. وقد أقلق هذا لإجراء المعتمد، فقرر أن يدعو يوسف مرة ثانية لكي ينزل الهزيمة ينول الهزيمة بطريقة حاسمة بالتدين المسيحي، وعاد في الحال في يوسف وأمام استحالة إخضاع المسيحيين، ادعى لنفسه الحق في السيادة على إسبانيا الإسلامية، واتخذ احتياطات جمعت إليه صاحب العقيدة السلفية والشعب، لكنها أقلقت بال الأمراء الذين تآمروا وقتئذ ضده مع الفونس، وبذلك لم يحاصر يوسف غير قرطبة التي دافع عنها المأمون، ولد المعتمد، لكن عامة الشعب سلمت له المدينة وألقى ابن الملك الشاعر السلاح من يده وسقطت بدورها أشبيلية. وأسر المعتمد وأرسل إلى طنجة.

والحق أنه في نهاية سنة ١٠٩١ كان يوسف قد فتح كل جنوب أسبانيا، وكان سلطانه يمتد حتى جزائر البليارد التي كان يحكمها رجاله.

وبالاتصال بالحضارة الأيبرية سرعان ما أصبح سكان الصحراء الملثمون «أسبانيين» واستطاعوا تبعًا لذلك أن ينقلوا ويدخلوا الثقافة الأندلسية إلى بلاد مراكش. وكان البربري العظيم قد أقام عاصمته في مدينة مراكش في مركز أمامي لكي يراقب على وجه أفضل ثورات الجبال. وعندما مات، كانت نصيحته الأخيرة المليئة بالحكمة العميقة توصية ولده أن يتجنب في هذه الجبال أدنى شغب. فهل كان لديه الإدراك أن بعض الشبان المستدعين للجندية المنحدرين من الجبال قد يستطيعون إزالة إمبراطوريته؟ ولم يتخذ خلفاؤه الحيطة وهم واثقون من مؤخرات جيوشهم المباشرة في هذه الجبال. لقد عادوا مرة أخرى إلى أسبانيا، وانتصروا أيضًا على المسيحيين في أقليش (أو ذات الإقطاعيات السبع) التي لقى فيها دون سانكو الابن الثاني لملك قشتالة حتفه في عام ١١٠٨.

نهاية المعتمد:

كان دون سانكو لا يبلغ من العمر غير خمسة عشر عامًا، وكان الابن الوحيد لألفونس السادس من أميرة هي مورا زايده، وكثيرًا ما كان يعتقد أن هذه الأميرة كانت ابنة المعتمد قدمها لملك المسيحيين رهينة لتحالفه ضد يوسف. لكن الحقيقة لم تكن كذلك، إذ لم تكن الأميرة ابنة المعتمد، بل كانت زوجة ولده. وعندما قتل زوجها المأمون في الدفاع عن قرطبة ضد الموحدين، لجأت مورا زايده إلى عبر منطقة سيرا مورينا في ممتلكات الفونس السادس، وأصبحت زوجته غير الشرعية. وهكذا رحلت الأميرة الأشبيلية إلى أرض كافرة مع أطفالها من المأمون. وأكدت هذه الحقيقة. وثيقة مرا كشية، وأسفت لها. «في هذا المكان تمامًا حدث ما حدث من زوجة ابن المعتمد ابن عباد ومن أطفالها وقتئذ. عسى أن يحفظنا من الشر ومن معاملات الأعداء القاسية؟».

بيد أن المعتمد التعس ظل حبيس السجن في طنجة. وقد نقلت قصص حفظت بدقة تثبت أنه ظن نسيج وحده. فعندما وجه إليه شاعر من طنجة بعض أبيات من المديح، وطلب منه منحة: كان الملك المخلوع لا يملك غير ٣٥ ديكات (عملة ذهبية قديمة) هي كل ما يملك، وقد منحه إياها معتذرًا عن ضآلتها. وعندما نقل إلى أغمات، فرح بتسلمه كتابًا من ابنته التي لم يكن لديه أخبار عنها. وهذه هي ترجمة الكتاب المكتوب في أحد عشر بيتًا من الشعر، وهي مهمة لأكثر من سبب:

اســـمع كلامـــي واســـتمع لمقـــالتي ... فهـي السـلوك بـدت مـن الأجيـاد

لا تنكـــروا أنـــي ســـبيت وأننـــي ... بنـــت لملـــك مـــن بنـــي عبـــاد

ملـــك عظـــيم قـــد تـــولى عصـــره ... وكـــذا الزمـــان يـــؤول للإفســـاد

لمـــــا أراد الله فرقـــــة شـــــملنا ... وأذاقنـــا طعـــم الأســـى مـــن زاد

قـام النفـاق علـى أبـي فـي ملكـه فـدنا الفـراق ولـم يكـن بمـراد
فخرجـت هاربـة فحـازني امـرؤ لـم يـأت فـي أفعالـه بسـداد
إذ بـاعني يبيـع العبيـد فضـمني مـن صـانني إلا مـن الأنكـاد
وأرادنـي لنكـاح نجـل طـاهر حسـن الخلائـق مـن بنـي الأمجـاد
ومضـى إليـك يسـوم رأيـك فـي الرضـا ولأنـت تنظـر فـي طريـق رشـادي
فعسـاك يـا أبتـي تعرفنـي بـه إن كـان ممـن يرتجـى لـوداد
وعسـى رميكيـة الملـوك بفضـلها تـدعو لنـا بـاليمن والإسـعاد

ولم تكتب بثينة أشعارًا أخرى غير تلك الأشعار، إنها لخسارة. وكانت هذه الابنة الرقيقة الكاملة التي فيض احترامًا لأبيها، تجيد كذلك وزن الشعر وتلحينه كما كانت تجيد الفكرة الموجزة والكلمة المحكمة. بيد أن المعتمد عاش أيضًا بضع سنوات في أغمات حبيس السجون والفاقة، وظل حتى نهايته التي وافت سنة ١٠٩٥، لم يمل نظم الشعر. ولما كان يستمد إلهامه من تقلبات مصيره فقد كتب:

أرى الـدنيا الدنيـة لا تـواتي فأجمـل فـي التصـرف والطـلاب
ولا يغـررك منهـا حسـن بـرد لـه علمـان مـن ذهـب الـذهاب
فأولهـا رجـاء مـن سـراب وآخرهـا رداء مـن تـراب

إن المعتمد لشخصية غريب عرف بنفس الرقة كيف يرتدي لباسًا من الحكمة، ولباسًا موشى بالذهب، وأن يفلسف آلامه بكياسة فقدت آمالها، وأن يمزق بنفسه بالطبرزين ودون خوف الصديق الذي كان قد خانه.

(٢٠) تفكك الإمبراطورية

الأسباب:

كان اتساع نطاق الإمبراطورية نفسه هو السبب الأول لتفككها. ففي الأيام الطيبة من الفتح، كان الخلفاء قد عرفوا كيف يفرضون سلطانهم على حكام المقاطعات العسكرية على حدود الإمبراطورية البعيدة. لكن الحدود بلغت من ترامي أطرافها أن المسافر كان يسلخ ثمانية عشر شهرًا للذهاب من طرف إلى آخر، من سمرقند إلى سرقسطة. وقد قضت الضرورة أن يترك لحكام الأقاليم البعيدة من العاصمة حكم ذاتي كان لابد أن يؤدي حتمًا إلى تجزئة الإمبراطورية وتفككها. وكيف كان يمكن أن تكون الإمبراطورية على وجه آخر غير ذلك؟ لم تكن هناك سلطة مركزية لها من القوة ما تستطيع به المحافظة على ترابط جماعات في أقاليم وقبائل شديدة البعد والتشتت.

هذا إلى أن حياة الإفراط من كل نوع وبخاصة داخل حياة الحريم سرعان ما كانت توهن العقل والجسم معًا.. مما أدى إلى انحطاط الأسر التي لم تعد تقدم إلا ملوكًا ضعافًا، كانوا ميالين بدورهم إلى حياة الفسق والترف أكثر من ميلهم إلى القيام بأعباء الدولة. وكان التسري إلى غير حد يرفع نسبة عدد الطامعين في الحكم الذين كان وضعهم القلق معترفًا به بسبب عدم وجود قانون محدد لاعتلاء العرش وفي كل آن، كانت ثورات لا حصر لها تحل ملكًا مكان آخر، ولم يعد هناك أية متابعة للعمل، أو للإدارة في الجهاز الإمبراطوري العظيم. ولقد أصاب هذا الفساد في الآداب، والأخلاق الشعب كله. إن تكاثر الثروة وما يصحب ذلك من سهولة عيش، وفجور، وكسل، واتخاذ الحظيات، ومخادنة الغلمان، والفساد الذي ينشأ مع حياة الرقص والغناء والموسيقى والشراب، كل هذا كانت له نتائج سيئة على الطبقة الموجهة. وكان دم الفاتحين قد ذاب في دم المغلوبين. ففترت حماسة العرب وفحولتهم.

هذا وقد أخذ الاتحاد القائم على وحدة اللغة والدين يميل إلى التفكك، وكان لزامًا دون شك على الشعوب المختلفة حين تذكر استقلالها المفقود، أن يؤدي نفورها وبغضها للسلطة المركزية إلى السخط وأن تتحول إلى ألوان الصراع. ومن أجل هذا، فإن الفرس المخلصين لذكرى مجدهم القديم، لم تعد لهم رغبة في الارتباط بالعهد الجديد. وكانت سوريا تتوقع دائمًا القائد الوطني الذي يستطيع أن يحررها من العباسيين، وكان البربر قد تمسكوا بعاطفة قبلية راسخة كل الرسوخ، بل استبدت بالعرب أنفسهم قبيلتهم القديمة أيام كانوا منقسمين شماليين وجنوبيين، فعادت إليهم بطريقة قاطعة. والدين نفسه الذي كان قد ابتدع الوحدة قديمًا، كان يهتز تحت تأثير الهرطقات الضارة. ولم يقر للخلافة قرار بسبب ترجحها بين مذهب السنة (اليمين) ومذهب الشيعة (اليسار). وكان مذهب الشيعة يساند قضية «العلويين» ضحايا العباسيين. وكانت مكانته ودوره السياسي كبيرين على الدوام عبر العصور، وكان مذهب الشيعة الإسماعيلي قد أقام الخلافة الشرعية ولكنها متحررة للفاطميين في مصر، على حين كان أصل مذهب الشيعة الزيدي من إمارة بني بويه بشرق نهر الفرات كما يجب أن نضع في حسابنا أيضًا مذهب القرامطة، والمعتزلة، والصوفية، وفرق أخرى فلسفية أو دينية. وفي الحق قد ترتب على كل هذه الحركات تقوية الانقسامات السياسية والجغرافية. وأصبح الإسلام غير قادر على جمع شمل المسلمين في مجموعة متجانسة.

ولا تقل العوامل الاقتصادية عن الاختلافات المذهبية تلك العوامل التي أفضت أيضًا إلى الانحلال الأخلاقي والاجتماعي. وأصبح الشرق تارة جنة وتارة صحراء وفقًا لما كان يروي أولاً من أراضيه. لكن إعداد قنوات الري كان يتطلب تنظيمًا وعناية دائبين، تستطيع الدولة وحدها أن تعبئهما. ولما كانت هذه المشروعات رديئة التخطيط، سيئة الإدارة رديئة التنفيذ، فقد كانت النتيجة انتشار المجاعة والفيضانات والأمراض المعدية. وسطا أربعون وباء خطيرًا على العالم الإسلامي خلال الأربعة القرون الأولى، وأفنى عددًا كبيرًا من سكانه. ولم تخفف

هذه المصائب المختلفة مع ذلك وطأة الجباية، التي أخذت تزداد دون توقف في الولايات التي كان كل حاكم صغير فيها يسلب رعاياه دون حياء. وأصبحت هذه المظالم عرفًا مسلمًا به حتى باتت رويدًا رويدًا قاعدة مقررة. ولما لم يعد هناك دافع يحث على الإنتاج، فقد أخذت الزراعة والصناعة في الهبوط، وفي ذلك خسارة كبيرة لبيت المال الذي وجد نفسه تجاه مشكلة تزويد خزائن الدولة بما تحتاج إليه من أموال.

ولم يعد في استطاعة الاقتصاد دعم الحكومة، فقد اضطرت أن تعيش على الاحتيال لتدبير المال وتدخلت المضاربات وارتفعت الأثمان، وانفجرت الثورات.

الانحلال:

استدعى ضعف السلطة المركزية بلا شك تجزئة الإمبراطورية. أما الأمراء الذين حكموا الأقاليم البعيدة فلم تكن لهم مع بغداد إلا روابط شكلية بحتة، ويمكن القول إن وضعهم السياسي كان الاستقلال الذاتي، ومن ثم لم تلبث الفرصة أن سنحت لهم ليظهروا بتمام الاستقلال، بل لقد أصبح الاستقلال حكمًا وراثيًا. وقد أخذ العدد المذهل من الأسرات المالكة في الازدياد على أطراف الإمبراطورية ثم في قلبها نفسه، وكان لذلك أثره السيئ في سياسة البلاد. فالسلوك العربي الذي حقق الفتح بطريقة ممتازة لم يمارس لتأمين استقرار البلاد المفتوحة. وهكذا ماتت الخلافة العباسية موتًا بطيئًا.

وخلف المأمون أباه هارون فكان خليفة عظيمًا حقًا، وحين خلفه المعتصم سنة ٨٣٣، رأى نفسه مضطرًا لكي يدعم سلطته المهتزة أن ينشئ حرمًا خاصًا له مختارًا بعناية من بين العبيد الأتراك، وهم جنود شجعان، ذوو جلد، ولكنهم غلاظ الطبع، وهكذا سهر ٤,٠٠٠ من جنود الحرس على سلامة الإمبراطورية.

وهذا شبيه بما فعله أباطرة الرومان حين اضطروا إلى الاعتماد على حرس قوي قيصري. وكما حدث في روما أصبح الحرس في بغداد مع الزمن القوة الحقيقية

للحكومة. ولم تعد الخلافة إلا رجلاً مريضًا. كما كانت الإمبراطورية الرومانية قبلها. ومنذ ذلك الوقت، نرى أطرافها تتناقض شيئًا فشيئًا خلال ولاية الخلفاء الشرعيين أو المعترف بهم، والذين كانوا ملوكًا بلهاء خاملين. وفي ظل الإمبراطورية المفتتة، عاد إلى الظهور روح الحضارات القديمة، وتشكلت من جديد الوحدات العنصرية القديمة في دول مستقلة داخل حدودها الطبيعية بحسب السلطة الشخصية لحكامها. وهكذا سيجد العالم الشرقي البنية الأولى التي كانت بنيته في غضون التاريخ.

كانت أسبانيا أول من أعلنت استقلالها سنة ٧٥٦ ثم تبعتها مراكش سنة ٧٨٨، وتونس سنة ٨٠١، وفي سنة ٨٦٨ استقل ابن طولون بالسلطة في مصر. ولم يعد لزامًا عليها بعد ذلك أن تتبع بغداد إلا من جهة أسمية بحتة. وعندما تحرر المصريون من نفوذ الخلافة، وضعوا وقتئذ يدهم على جنوب سوريا التي قدر لهم أن يحتفظوا بها طيلة قرنين. وبعد ذلك بقليل، استولى الإمبراطور اليوناني باسيليوس الثاني على بقية سوريا، وشوهد لأول مرة العرض الطويل من الأسرى العرب في ملعب القسطنطينية، وأخيرًا استولى إمبراطور آخر على أرمينية، لقد كان العرب يقبلون التحدي قديمًا، أما الآن فإن الزمن قد تغير.

وقد أسهم المأمون كذلك في تفكك الإمبراطورية وذلك بمنح حكومة خراسان لطاهر بن الحسين مكافأة له وجعلها وراثية. وكان الأخير قد انتصر على أخيه الأمين –ابن هارون من زبيدة– وجلده. وتعاقب بعد ذلك تسعة خلفاء فيما بين عام ٨٣٣ وعام ٨٩٢، وكان الإمبراطورية قد بلغ بها السيل الزبى، ثم فقدت الأسرة المالكة هيبتها ففي سنة ٩٠٢ خلع المقتدر من الخلافة على يد «أمير الأمراء» أحد وزراء القصر، وبذلك أسرعت خطى الانحلال.

وفي سنة ٩٢٨، استولى الحمدانيون وهم مسلمون شيعيون على بلاد ما بين النهرين الشمالية، وعلى جزء من بلاد سوريا، وأسسوا في حلب والموصل مركزين

ثقافيين، غاية في الازدهار. واستولى بنو بويه وهم شيعيون أيضًا على أصبهان وشيراز، بل على بغداد سنة ٩٤٥. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد الخليفة إلا رمزًا لعقيدة أهل السنة، يأتمر بأمر الحاكم الشيعي وفي الوقت ذاته، جعل الساسانيون في بلاد ما وراء النهر من بخاري، ومن سمرقند مركزين كبيرين في المعرفة والفن كان قد درس فيهما ابن سينا والرازي، وأخيرًا استقرت أسرة الغزنوي في أفغانستان في سنة ٩٦٢؛ واستولت على كل بلاد فارس والبنجاب. واستدعى رئيسها محمود إلى غزنة –كما كان يفعل كبار الخلفاء قديمًا– الشعراء والعلماء وبخاصة البيروني والفردوسي.

الأتراك السلجوقيون:

منذ ذلك الحين، أخذت تتهيأ هجرة كبيرة بل لعلها غزوة في شمال آسيا، كان الأتراك السلجوقيون يشحذون أسلحتهم. لكن كما حاربت بيزنطة لكي تصد العرب، راح المسلمون يسعدون ليسدوا الطريق على الحملة التركية نحو الشرق، ثم كان الأتراك بدورهم هم الذين سعوا ليقطعوا الطريق على المد المغولي.

مهما يكن من أمر، فإن المنتصرين سيعتنقون دين المغوليين الذين نهكوهم، وسوف يجعلون من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين. وتثير هذه الظاهرة العجب، لكنها ليست من الندرة في تاريخ العالم الإسلامي المتقلب، لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين، ثم بالنسبة لأبناء عمومتهم المغول بعد ذلك في القرن الثالث عشر، وأخيرًا بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر، وسيظفر الدين الإسلامي بألمع انتصاراته طيلة الأزمنة الممعنة في ظلام الفشل والغزو، وقبل أن يمضي الأتراك في المسير نحو الغرب، وعند انطلاقهم من بحيرة بايكال، كانوا قد قاموا من قبل بعدة اتصالات مع العالم الإسلامي، واحتلوا بخاري في سنة ٩٩٠، وبعد تسع سنوات، خلعوا أسرة الساسانيين.

وكان تقدمهم سريعًا. وفي العام الألف بعد الميلاد، انتصروا على بلاد ما وراء

النهر، وتركستان. وفي سنة ١٠٢٩، في عهد طغرل بك فتحت كل بلاد فارس. ولما أعدوا تقدمهم المقبل، أرسلوا وفدًا إلى الخليفة القائم، معلنين له اعتناقهم للدين الإسلامي وفي الحال، ألح عليهم الخليفة في الحضور أملًا في أن يتخلص من بني بويه، بفضل هذه المساعدات الحازمة. وفي عام ١٠٥٥ هرع طغرل بك إلى الخليفة فهرب البويهيون، وتزوج الخليفة ابنة أخت طغرل بك الذي جعله «ملك الشرق والغرب» وفي سنة ١٠٥٨. ورأى الخليفة القائم بالنسبة لهؤلاء الأنصار المغالين في طلباتهم أن يقطعهم البلاد التي في استطاعتهم أن يفتحوها في جواره.

وهكذا أخذت تخضع الإمارات الإسلامية واحدة بعد أخرى لحكم السلاجقة الذين اتخذوا لقب «سلطان». فلما أصبح السلاجقة أقوى من الخليفة نفسه، قصره الأتراك على أن يشغل دورًا دينيًا بحتًا، وحلت الإمبراطورية التركية محل الإمبراطورية العربية.

خلف طغرل بك ابن أخيه ألب أرسلان «الشجاع الأسد» في سنة ١٠٦٣، وغزا بلا مقاومة أرمينية وجورجيا وسوريا، وأمن العرش لابنه ملك شاه (١٠٧٢–١٠٩٢) الذي أصبح أعظم سلاطين السلجوقيين. وكان ملك شاه حكيمًا حين احتفظ بوزير أبيلا الأول نظام الملك الذي وفر من جديد عظمه عصر البرامكة ورخاءه للإمبراطورية طيلة ثلاثين عامًا، وفي كتابه «فن الحكم» يرسم الخطوط الكبيرة لسياسته، بوضوح واجبات الملك، والقادة، ويوصي الجميع بقوة —بالعقيدة السلفية. ولسوء الحظ، توفي هذا السياسي المستنير الحكيم مقتولًا في سنة ١٠٩٢ على يد إسماعيلي ينتمي إلى فرقة كان يتهمها بالباطنية. ولم يكن هذا المذهب في الحقيقة إلا جمعية دينية سرية معتصمة في قلعة الموت (عش النسر) على بعد ٣,٠٠٠ متر عرضًا من شمال فارس. ورئيسها العظيم الحسن بن صباح الذي كان يطلق عليه الصليبيون «عجوز» الجبل، صنع من هذه الجمعية طيلة ٣٥ عامًا مركزًا للاغتيال، ومركزًا للفن والتعليم. وماركو بولو الذي زار ألموت في سنة

١١٢٧، بصفها بأنها روضة مليئة «بالسيدات والآنسات اللائي كن يداعبن الرجال، ويستجبن لرغباتهم»، وطراز من جنة ينطلق فيها المطلعون على الأسرار الدينية الجدد بعد تخديرهم بالحشيش، هذه كانت صورة المقر المخصص على الدوام لمن يظهرون الطاعة حتى الموت، وكان يطلق على هؤلاء الذين كانوا يتناولون الحشيش الحشاشون التي تشتق منها كلمة «قاتل **assassin**». وكانوا يهاجمون بخاصة مضطهدي المذهب الإسماعيلي، وفي سنة ١٢٥٦ طاردهم المغول على أنهم كفار، بيد أن جمعيتهم ستبقى كفرقة دينية متجددة ومتزنة تحت اسم النزارية لا سيما في الهند، وكذلك في فارس، وفي سوريا وفي أفريقيا، ورئيسها الديني والسياسي هو أغا خان[١]، وهو الإمام السابع والأربعون من نسل علي.

وكان لزامًا على المملكة السلجوقية، منذ القرن الثاني عشر أن تتفتت بدورها إلى إمارات مستقلة.

---

[١] توفي أغاخان منذ سنوات، ودفن بأسوان، وتولى ابنه من بعده. (المترجم)

(٢١) الحملات الصليبية

قد لا نستطيع أن نتحدث عن الحضارة العربية دون أن نتناول بعض الحملات الصليبية وتأثيرها في زمانها.

أسبابها:

ظلت المسيحية أكثر من أربعمائة عام تتراجع أمام الإسلام الذي كان يتقدم بعنف في آسيا، وأفريقية، وصقلية، وإسبانيا. وغني عن البيان أن المحاولة الضخمة للحملات الصليبية كانت قبل كل شيء رد فعل في أوروبا المسيحية ضد آسيا الإسلامية التي كان يوجد فيها قبر المسيح.

وكان الحج إلى الأماكن المقدسة يمثل منذ عدة قرون بالنسبة لمسيحي العصر الوسيط قيمة لا نظير لها. ويلخصها ميشليه[١] **Miehelet** على هذا النحو «سعيد هذا الذي كان يعود! وكثر سعادة منه ذاك الذي كان يستطيع أن يقول، تبعًا لتعبير جريء ما قاله معاصر: «أيها السيد المسيح أنت مت في سبيلي وأنا مت في سبيلك» ومن ثم كان الحجيج يذهبون إلى قبر المسيح بأعداد كبيرة.

ويبدو أن تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح في سنة ١٠٠٩ على يد خليفة فاطمي هو السبب الحاسم للحروب الصليبية[٢]. ويجدر بن في الحقيقة أن نذكر أنه حتى في الوقت الذي كان العرب فيه يستقبلون الحجيج استقبالًا حسنًا، وهذه كانت قاعدتهم بعامة، كان المسيحيون يغضبون سلفًا من الحقيقة البسيطة، وهي أن

---

[١] مؤرخ فرنسي، ولد في باريس (١٧٩٨– ١٨٧٤)، من مؤلفاته «تاريخ فرنسا» و«تاريخ الثورة»، ولكنه كذلك مؤلفات في الأدب منها «الحبل» و«العصفور». (المترجم)

[٢] يرى القارئ أن المؤلف يحاول أكثر من مرة أن يوهم أن السبب الحاسم للحروب الصليبية هو تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح، إن السبب الحقيقي هو ما ذكرناه في تعليقنا ص ٣٢٢ من هذا الكتاب. (المترجم)

الأراضي المقدسة مازالت باقية في أيدي الكفرة[1]. بيد أن فكرة الحملات الصليبية لم يكن من الممكن أن تفرض بالإكراه إذا لم تكن هناك أسباب أكثر عمقًا أسباب دينية وسياسية معًا، بل اسباب دنيوية ومهما يكن من أمر، فإن العالم الإسلامي الذي كان قد كف عن مونه عامل تهديد منذ تفتته، أصبح من جديد فجأة وجهًا لوجه أمام العالم المسيحي منذ القرن الحادي عشر، نتيجة لإعادة تجمعه على يد الأتراك، وكان يبدو أن الحرب المقدسة ستستأنف تقريبًا في كل مكان. ففي الشرق استولى السلاجقة على بيت المقدس في سنة ١٠٧٨ وأنطاكية في سنة ١٠٥٥ وفي سنة ١٠٨٦ في أسبانيا انتصر الموحدون على الجيش المسيحي في الزلاقة، وعندما لمح الامبراطور اليوناني الكيسيس **Alxis** في عام ١٠٩٣ من القسطنطينية خيام جنود سليمان المعسكرة على الشاطئ المواجه للبسفور، أسرع بإرسال سفراء أمام مجمع مدينة بليزانس **Plaissnce** لكي يعلنوا مساندة الغرب ضد الأتراك، لقد رأى العالم المسيحي أنه قد حان الوقت للانتهاء من هذه الحملات.

ولعل الباب رأى في هذا الأمر فرصة مواتية لجميع الكنيستين اليونانية والرومانية اللتين كانتا منفصلتين منذ أربعمائة عام. ولعله رأى كذلك في الحملات الصليبية وسيلة لوقت حرب العصابات المستمرة التي كانت تقوم بالفتنة بين أصحاب الإقطاعيات بتحويل حماستهم الحربية تجاه عمل خير. وكان البابا أوريان الثاني **rdiaiu II**[2] يقول: «إن الأرض التي تقيمن عليها تقدم – بشق النفس– الغذاء لهؤلاء الذين يزرعونها، من أجل ذلك يقاتل بعضكم بعضًا. شقوا الطريق إلى قبر يسوع المسيح.. وستكون ممالك آسيا من نصيبكم».

---

(١) كان المسيحيون في أوروبا ينظرون إلى المسلمين على أنهم كفار، فتأمل! أما المسلمون فإنهم يعتبرون اليهود والنصارى أهل كتاب. (المترجم)

(٢) بابا من عام ١٠٨٨ حتى عام ١٠٩٩ ولد في لاجاري من مقاطعة شامبيني بفرنسا، يعتبر المحرض الأول على القيام بالحملة الصليبية الأولى في مجمع «مونت» الكنسي. (المترجم)

لم يكن فرسان العصر الوسيط الأشداء مسيرين –كما هو واضح– بدوافع روحية فحسب إذا كانت الانتصارات التي ظفر بها النورمانديون في إنجلترا وفي صقلية (١٠٩١) ضد مسلمي أسبانيا وأفريقية قد بعثت المسيحين إلى الحرب. وكانت هناك دوافع أخرى لا تقل عن ذلك إلزامًا. وإذا كان بعض أصحاب الإقطاعيات يبحثون أيضًا عن الحرب التي تسعدهم سعادة أبدية فقد كانت هناك فقراء يرون في هذه الحرب تخفيفًا من بؤسهم قبل أن تكون تضحية. وقد لا يستطيع أي إنسان أن ينكر مع ذلك أن الوثبة الكبيرة للحملات الصليبية على الجملة كانت ذات باعث ديني صادق، وكان «إنقاذ قبر المسيح» هو الباعث الأساسي[1].

وقد توالت تسع حملات صليبية على التعاقب فيما بين عامي ١٠٩٦، ١١٩١، وليس هناك مجال لنروي كيف تجمع هذا العدد الكبير من الصليبيين الذين كان عددهم يقدر بـ ٧٠٠,٠٠٠ تقريبًا، وما يدل عليه العدد المرتفع قليلًا من الجند الذي شارك في هذه الحملات، أو بيان المراحل التي مرت بها هذه الجموع المختلطة وفساد أخلاقهم ومصائبهم على طول الطريق، وعلى الجملة هذه التقلبات والحوادث العجيبة لهذا المشروع الحربي الذي ارتبط بالتاريخ الأوروبي. وتنطوي المعركة في خطوطها الكبيرة على مرحلة من فتوح الصليبيين استمرت

---

[1] لم تلبث أن قوبلت دعوة البابا للحرب الصليبية بالاستجابة في غرب أوربا، فرحب بها جمهور العامة بسبب الفاقة والضيق الاقتصادي الذي كانوا يعانون منه عندئذ في غرب أوربا ... ورحب بها فريق كبير من الفرسان وأمراء الإقطاع لأنهم وجدوا فيها فرصة طيبة لتأسيس إمارات لهم في الشرق، ورحبت بها المدن التجارية مثل بيزا والبندقية وجنوا لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة هي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في شرق البحر المتوسط وجمع الأموال والثروات من وراء ذلك كله ... وهكذا اتفقت مختلف الأطراف في المجتمع الأوربي الغربي على إرسال حملة إلى الشرق لتحقيق أغراض دنيوية بحتة تحت ستار زائف من الدين وجعلها تنتسب إلى الصليب وتعرف باسم الحروب الصليبية [عن أعلام العرب –الناصر وصلاح الدين– تأليف الدكتور سعيد عب الفتاح عاشور ص ١٨ و١٩]. (المترجم)

خمسين عامًا، ومرحلة من رد الفعل الإسلامي استغرق المدة نفسها والمرحلة الثالثة استغرقت القرن الثالث عشر، وتداولها النجاح والفشل لكلتا الفئتين، وانتهت أخيرًا بطرد الصليبيين الذين اضطروا إلى الجلاء بطريقة حاسمة عن الأراضي المقدسة.

فتوح الصليبيين:

ابتداء من القسطنطينية وهي مركز تجمعهم، كان طريق الصليبيين يعبر آسيا الصغرى وحاول الأتراك أن يقطعوا عليهم الطريق إلى دوريلا[1] في يونيه ١٠٩٧، وارتدوا إلى الوراء. وقد فتك بالتجمعات الصليبية الأولى مسيرهم عبر الهضبة القاحلة لآسيا الصغرى وجبال طوروس الوعرة. لكنه حرر آسيا الصغرى وأخر دخول الأتراك إلى أوربا بما يقرب من ٣٥٠ عامًا.

وكان وصول بعض الشبان المستدعين للخدمة المنظمين تنظيمًا جيدًا من منطقة كليكيا قد زادهم رباطة وجأش. وفتح الصليبيون سنة ١٠٩٨ طرسوس، والرها، وأنطاكية وحلب. لكن جيشًا تركيًا مكونًا من ٢٠,٠٠٠ رجل بقيادة أمير الموصل أقبل ليحدق بهم في أنطاكية. وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون فريسة للمجاعة ينتظرون سلامتهم بمعجزة، أعاد لهم كشف القديسة لانس المدفونة في كنيسة من كنائس أنطاكية الحماسة والحمية الجريئة معًا، وقهر الجيش التركي وولى الأدبار. وبعد عام في ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ وصل ٤٠,٠٠٠ جندي صليبي أمام بيت المقدس. وفي ١٥ يوليو، بعد هجوم استمر يومًا ونصف يوم كان جيشهم يدخل المدينة. وكان قد دخلها جودفرى ده بويون[2] عن طريق جسر ضيق، والنورمانديون عن طريق ثغرة في الحائط. وفي ذلك يكتب ميشيليه في كل كافر كانوا يقابلونه أنهم يميتون أحد جلادي المسيح. تلك كانت روح التعصب

---

[1] مدينة من مدن آسيا الصغرى، وتعرف اليوم باسم اسكى شهير. (المترجم)

[2] دوق إقليم اللورين المنخفض، ولد في بيزى (١٠٦١– ١١٠٠)، وكان رئيسًا للحملة الصليبية الأولى، نودى به ملكًا على أورشليم، واتخذ لقب «وكيل قبة الصخرة». (المترجم)

للصليبيين الأول.

ولم يرتض جود فردة ده بويون الذي انتخب ملكًا إلا بلقب المدافع عن قبر المسيح ولما كان محاربًا مقدامًا فقد دعم انتصاراته بأن أرغم في عسقلان جيشًا من ٢٠,٠٠٠ رجل كان قادمًا من مصر على أن يولي الأدبار. ومنذ ذلك الوقت تحققت آمال الصليبيين، وبعد ثلاث سنوات من التضحيات التي لم يسمع عن مثيلها حررت الأماكن المقدسة. وقسمت سوريا وفلسطين ثلاث دول لاتينية هي بيت المقدس وأنطاكية، وطرابلس. وعندما أسست هذه الممالك الثلاث لم تكف عن أن تتشاجر فيما بينها، بل شرعت تشن هجومها ضد أطراء حلب والموصل وأتابك دمشق وخليفة القاهرة الذين لم يكونوا أقل انقسامًا من أولئك أنفسهم؛ وفي غضون المعارك أقام الصليبيون حصونًا مازالت أطلالها ماثلة. بيد أن الخصومات توقفت. وبدأت علاقات حسن الجوار تنشأ. وأدرك المسيحيون أن المسلمين لم يكونوا كفارًا وثنيين كما كانوا يعتقدون، وأدت الاتصالات المتزايدة في مبادلات أكثر ودًا وإلى علاقات أكثر حبًا. وانتهى الصليبيون – بدافع الظروف– إلى اصطناع أساليب حياة الشرقيين، كانوا أكثر تعودًا للجو. ولما فتنوا باللذات الشرقية، تذوقوا ألذ حلاوة الحياة ولم يكن من الندرة أن ترى مسلمين يتحالفون مع مسيحيين منذ إخوانهم في الدين، ومن جهة أخرى التمس بعض اللاتينيين الذين كانوا يتشاجرون فيما بينهم معاونة من يسمونهم بالكفار. ويروى أيضًا رحالة عربي هو ابن جبير أن مبنى دينيًا في إقليم عكا كان مقسمًا بالتناوب بين العبادتين المسيحية والإسلامية. ولم تسكن المعارك نفسها بذات تأثير على المحاربين، فتولدت الروح الإنسانية التي خلفها صلاح الدين تجاه اعدو المغلوب، والذي أعطى اجمل الأمثلة عن طيبة النفس[1]. وكانت هذه بالأمراء مثار دهشة

---

[1] غير أن المسلمين كانوا رجالًا أكمل من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استلوا على بيت

للمسيحيين إذ كشفوا وقتئذ سمو نخبة من رجالات الشرق المهذبين والمثقفين، وذوي الأخلاق الرقيقة، والذين عرفوا زيادة على ذلك كيف يشركونهم في خطواتهم الفنية، وأن يسدوا فراغ طب غربي بدائي وتجريبي. وقد أدى اتصالهم بنظام اجتماعي متطور كل التطور أنت يولد عند الصليبيين التطلع إلى حرية فردية أكثر انطلاقًا، والاتجاه نحو تحرير الأفكار مما نشأ عنه تحول في المجتمع الغربي، ولكن هذه المهادنة الخيرة لم تستمر، ولم تلبث العلاقات الودية أن قطعت.

رد الفعل الإسلامي:

أضمر رينو ده شاتيون **Renaud de Chatillon** الذي كان قد نهب قافلة إسلامية، خطة للانطلاق للتحرش بحجاج مكة. ولما شرع هذا المسيحي ينفذ خطته أسرع صلاح الدين سلطان مصر والمتحمس لعقديته السلفية والذي قد كان يتحين مثل هذه الفرصة بغزو مملكة بيت المقدس واستولى على طبرية في الأول من يوليو من سنة ١١٨٧. وفي حطين، سحق جيشًا مسيحيًا من ٢٠,٠٠٠ رجل ابيدوا من الحرارة والعطش، وأكرم وفادة جي ده لوزينيان[١] ملك أورشليم أسره، وهو خصم مخلص وشجاع، لكنه قتل القاسي رينو ده شاتيون. وفي ٢ من أكتوبر، سقطت أورشليم بين يديه وقد أنقذ صلاح الدين الذي كان أكثر إنسانية مما كان عليه الصليبيون أسرى المسيحيين من الموت مقابل فدية. وبسبب علو همته كما يقال فقد حرر أيضًا –فيما بعد– هؤلاء الذين كانوا لا يستطيعون أن يفتدوا حريتهم.

وفي نهاية ١١٨٧، كانت فلسطين وسوريا تحت سلطان صلاح الدين ما عدا أنطاكية وصور وطرابلس، وبعض الأماكن المحصنة أو القلاع المنعزل. وكان لهذه البلايا العظيمة دوى عميق في الغرب يتطوع أقوى ملوك العالم المسيحي، فقد

المقدس [عن قصة الحضارة –عصر الإيمان– تأليف ول ديورانت– ترجمة محمد بدران ص ١٩٠]. (المترجم)

[١] كان ملكًا لأورشليم ثم حاكمًا لجزيرة قبرص (١١٩٢– ١١٩٤)، وهو الأبن الأصغر لهيج السابع الذي أسره صلاح الدين في موقعة حطين عام ١١٨٧.

تطوع إمبراطور ألمانيا وملكا إنجلترا وفرنسا ف حرب صليبية وفد هلك فردريك باربيروس[1] على رأس ١٠٠,٠٠٠ ألماني في طرسوس، وتفرق جيشه. واستولى ريتشارد قلب الأسد الذب كان أكثر حظًا على قبرص. ونجح فيليب أوجست[2] من جانبه أمام عكا في إقامة اتصال بين جيشه وجيش الصليبيين اللاتين الذين كانوا قد بقوا في الأرض المقدسة.

وبدأ حصار المدينة في ٢٧ من أغسطس سنة ١١٨٩ وشارع صلاح الدين إلى معاونتها في اليوم الثاني من الحصار. كما وصل كذلك – من جانبها– ريتشارد مع جنوده الإنجليز، ودوق النمسا مع فلول الألمانيين. وكانت خيام جيش الصليبيين تغطي السهل، وسفنهم تسد الميناء، وكان جيش صلاح الدين يعسكر على المنحدرات المجاورة، وتقاتل الجيشان طيلة سنتين، وأتى كل من جانبه بأعمال خارقة «فقد اشترك ٦٠,٠٠٠ رجل في هذه المعركة الضخمة التي ذهب ضحيتها ١٢٠,٠٠٠ مسيحي و١٩٠,٠٠٠ مسلم. ونشبت تسع معارك كبيرة، وأكثر من ١٠٠ معركة صغيرة». وكانت هذه أكبر عملية حربية في العصر الوسيط. وكان الصليبيون يتفوقون على المسلمين بأسطول وبمعدات وفيرة للحصار، وكان المسلمون يفوقونهم في القيادة الفريدة. التي لا يستهان بها. وسلمت الحامية المنهوكة في ١٢ يوليو سنة ١١٩١. وكان يشترك في التسليم أن الحامية قد تنقذ نفسها مقابل دفع ٢٠٠,٠٠٠ عملة ذهبية بيزنطية وإعادة الصليب الحقيقي إلى حالته الأولى حينما استولى عليه صلاح الدين في حطين. ولما لم يكن في طاقتهم دفع الفدية في المهلة المتفق عليها، أعدم ريتشارد الحامية الإسلامية البطلة.

وتمخضت مفاوضات للسلم مع ذلك في ٢ من نوفمبر سنة ١١٩٢. عن

---

[1] إمبراطور الغرب (١١٢٥– ١١٩٠)، انتخب ملكًا لألمانيا عام ١١٥٢، وتوج ملكًا على إيطاليا عام ١١٥٥، ومات غرقًا في كليكيا في أثناء الحرب الصليبية الثالثة.

[2] ابن لويس السابع (١١٦٥– ١٢٢٣) اعتلى عرش فرنسا عام ١١٨١، واشترك مع ريتشارد قلب الأسد في الحرب الصليبية. (المترجم)

تقسيم البلاد. فأعطى الشاطئ إلى اللاتين وداخل البلاد للمسلمين. ومنحت جزيرة قبرص صفة مملكة مستقلة لحساب الصليبيين، وأنشئ في شمال أنطاكية مملكة أرمنية الصغرى على رأسها ملك أرميني وطبقة أرستقراطية فرنسية. واتفق على تأمين سلامة الحجاج المتجهين إلى بيت المقدس ولدعم هذا السلام، واعتزم ريتشارد أن يزوج أخته جان ملكة صقلية من شقيق صلاح الدين. وكان مقدرًا أن يحكم الزوجان بيت المقدس المدينة المحايدة، لكن هذا المشروع العاطفي لم يكتب له التوفيق. وعاد ريتشارد إلى إنجلترا دون أن يدخل المدينة المقدسة.

نهاية الحملات الصليبية:

في بداية القرن الثالث عشر، استولت حملة جديدة على دمياط في مصر، ثم أخلتها، وفي سنة ١٢٢٩ استولى فريدريك الثاني على بيت المقدس من سلطان مصر، لكن المدينة سقطت مرة ثانية في قبضة المسلمين في سنة ١٢٤٤ نتيجة لخلافات بين المسيحيين. واستولت من جديد حملة جديدة صليبية بقيادة القديس لويس على دمياط مرة أخرى في سنة ١٢٤٩، وسارت في اتجاه القاهرة، لكن مجازفة الفرسان الفرنسيين، وفيضان النيل، والطاعون والأسقربوط كل ذلك أرغمها على التقهقر، وأسر ملك فرنسا وهو في مؤخرة الجيش. وعندما أطلق سراحه مقابل إعادة تسليم دمياط، وفدية ضخمة، وصل الحرب وأصلح الأماكن القوية التي كان المسيحيون لا يزالون يحتلونها في سوريا ثم عاد إلى فرنسا في سنة ١٢٥٤، لعدم وصول الإمدادات التي كان ينتظرها منذ ثلاث سنوات ثم توفي بالطاعون في سنة ١١٧٠ في أثناء الحملة الأخيرة الصليبية الطائشة الموجهة هذه المرة ضد تونس.

كلن بيبرس على رأس سلسلة من السلاطين الممالك الذين ألقي عليهم عبء القيام بالضربات الأخيرة ضد الصليبيين. فاحتل غزة في شنة ١٢٦٣ وقيصرية في سنة ١٢٦٥، ويافا وأنطاكية في سنة ١٢٦٨، وأمر بذبح حامية هذه المدينة الأخيرة، وقاد ١٠٠,٠٠٠ شخص في الأسر وهاجم خلفاؤه عكا بوسائل قوية

واستولوا عليها في سنة ١٢٩١ وذبحوا فرسان المعبد الذين كانوا يدافعون عنها. واحتل بيبرس بعد ذلك صورا وصيدا وبيروت وطرطوس، وقذف بآخر الصليبيين في البحر.

لم تحقق الحملات الصليبية هدفها، بل تبين للعالمين أنها عديمة الجدوى. فقد شرح آنفًا تأثيرها الحضاري على المجتمع الأوروبي، أما في الشرق فلم تترك هذه الحملات غير أطلال بالية وإحساس بالمرارة لم يتبدد بعد.

صلاح الدين:

قاضت الحملات الصليبية بسمات من البطولة ومن البذل من كل نوع بل – ويالأسف– بسمات من البربرية أيضًا لأن القسوة كالشجاعة لم تعد بالأمر الحاسم لأي من الخصمين. وهناك رجال من بين الذين خاضوا هذه المعركة الضخمة يستحقون أن تسلط عليهم الأضواء لا بسبب شجاعتهم فقد كانت هذه عملة متداولة في نشوة المعارك –بل بسبب ما يبقى في النفس بعد ما يمكن الضجيج من الصفات التي تصنع ثروة الإنسان وسموه الأخلاقي الصادق والفضائل التي عاونت على وجه الدقة في تقديم الحضارة والتي ستظل من صفاته الرئيسية.

تألقت شخصية صلاح الدين في المعسكر الإسلامي والقديس لويس في معسكر المسيحيين في رونق قوي على أنهما العلمان الممثلان الحزم والثبات والبطلان الناصران للعدالة والقانون. وقد ظهر الاثنان في طراز أخلاقي عال في المناسبات الفاجعة أحيانًا، وكان نبل روحها يلامس أيضًا خصومهما، ونهض القديس لويس بتاريخ فرسا، أما صلاح الدين الذي عد أحد كبار القديسين في العالم الإسلام فينتمي إلى الحضارة الإسلامية.

لقد استحق فعلًا كل هذه الألقاب، الملك، والناصر، وصلاح الدين. ولد في سنة ١١٣٨ من أصل كردي وتلقن منذ شبابه في القيادة على والده، الذي كان حاكمًا لبعلبك ثم دمشق، وفي الانتصار في ميادين القنال. وكان وزيرًا في الثلاثين

من عمره ثم حاكمًا لمصر، واستولى صلاح الدين على سوريا بحفنة من الرجال. وعند موت الخليفة الفاطمي الذي ترك ١٢,٠٠٠ جارية وثروات لا يحسب لها حساب، قسم كل شيء دون أن يحتفظ لنفسه بأي شيء. وعندما أصبح سلطانًا في سنة ١١٧٥ أقام صلاح الدين العدالة فأنشأ المساجد والدارس والمستشفيات، والكتاتيب، وعضد فن المعمار وحفر القنوات، وشيد القناطر، وأنشأ نطاقًا كبيرًا للري، ونجح مع ذلك في تخفيض الضرائب.

وعندما ما استؤنفت الحرب مع الفرنجة، راح ينصب من ناسه حاميًا للإسلام، واستولى على سائر الممالك اللاتينية تقريبًا، وهو محارب كريم النفس. وقد رأيناه يسرح الأسرى في بيت المقدس دون فدية على حين جرت العادة بذبحهم. وعلى هذا المنوال عفا عن الملك جي ده لوزينيان الذي لم يف بوعده في الكف عن استئناف الحرب والذي لم يذكر له أي له أي أثر يدل على طيبة نفسه، ومع ذلك وبعد أربع سنوات من سلوك صلاح الدين الكريم في بيت المقدس، أعدم ريتشارد قلب الأسد الألفين والسبعمائة أسير في عكا الذين عجزوا عن دفع الفدية. ويقول جونفيل: عندما كان أطفال العرب يصيحون «كانت أمهاتهم تهمس إليهم: كفوا عن الصياح، ها هو الملك ريتشارد جاء يبحث عنكم، فكان الأطفال يكفون عن الصياح في الحال بسبب خوفهم الشديد الذي كان يتملكهم عند ذكر اسم ريتشارد. وكذلك عندما كانت الجياد تجفل من بعض الأشباح كان العرب والأتراك يقولون لها: «وهل تظنين أن هذا الشبح هو المالك ريتشارد.؟ أما صلاح الدين فلم يعرف عنه إلا خصال العظمة.

كانت المعاهدة التي عقدت بعد الاستيلاء على عكا على يد الصليبيين تحدد أن المسيحيين كان لهم الحرية في الذهاب إلى الأراضي المقدسة، وكانوا معفين من كل جزية ومكوس بهذه المناسبة. واحتفظ صلاح الدين بكلمته، وكانت معاملته غاية في الرقة إلى درجة أن الحجاج تتابعوا على قبر المسيح وداخلت الريبة من ذلك ريتشارد، وطلب من السلطان استقبال هؤلاء الذين يوصي هو بهم فقط.

وأجاب السلطان بأنه لا يستطيع في الحقيقة طرد كثير من الحجيج الذين كانوا قد تركوا آباءهم وأصدقاءهم في بلاد بعيدة من أجل مجيئهم لقضاء فريضة العبادة.

كان صلاح الدين يمقت بدرجة كبيرة أهل الجدل وعلماء ما وراء الطبيعة وعلماء الكلام المدوسي. وكان يحتقر الفلاسفة والشعراء ورجال الأدب لكنه كان يشعر بمتعة عظيمة كلما أصغى إلى أحاديث الرسول وسنته. وكان يقر أي غالبًا أصول الفقه للرازي(1). وكان يصفه المؤرخون المسلمون بالدعة والتواضع، والتقوى، والتحرر والصبر، وعدم الحقد. وكانت قناعته وزهده مضرب الأمثال. إذ كان لا يملك أرضًا ولا منزلًا ولا كان صاحب إقطاع.

وبعد وفاته، لم يوجد في خزانته غير دينار واحد وسبعة وأربعين درهمًا. مع ما كان تحت يده من أموال ضخمة في مصر، وسوريا واليمن، والأقاليم الشرقية. لكن كل شيء كان قد استخدم في التخفيف من آلام شعبه «الذي أهلكته ويلات الحروب والزلازل» وكانت وفاته الذي حدثت فجأة في سنة ١١٩٣ حدادًا عامًا. ورقد رثاه احد الكتاب في هذه العبارات « .. أفلت الشمس عند الصباح، وذهبت روح الدنيا التي ذهبت بذهابها كثير من الأرواح، في تلك الساعة ظلت الألباب حائرة وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ثاكلا لوحيد، فهم أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر».

ونظر العالم المسيحي إلى صلاح الدين على أنه مثل خليق بأن يحتذى. ومجده الإيطاليون بسبب ما ذكره عنه دانق من أنه ملك ليس أقل تحررًا من الإسكندر الذي ظل في الغموض وسط أبطال القرون القديمة إذ يقول:

«رأيت صلاح الدين في جانب واحد منه فقط»

---

(1) هو أبو بكر الرازي الجصاص صاحب كتاب أصول الفقه. (المترجم)

ويصفه الألماني فيدا دي بازوش بقوله: «هذا المالك لم يكن مشهورًا إلا بين جنوده الأوفياء». وفي نظر الإسبانيين يتناول علو شخصيته جوهر السمو الأخلاقي وفقًا لمفهوم عن «جوهر الإنسان بالذات» كما كان يقال عادة في القرن الخامس عشر. ولكي نستخدم تعبير دون جوان مانويل. بتعارضه مع تعريف الشيء في حد ذاته، فإن «الرجل على حد تعبير أونامونو[١] «لا شيء غير أنه إنسان كامل». وفي نظر الإنجليز الرومانتيكيين في هذا الشأن أصبح صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد مادة لا تنفد من القصص الخيالي بشعرائهم المتجولين الذين فاخروا بالقائدين على أنهما يمثلان وحدهما الفروسية وكان الفرنسيون متأثرين بإحساس رسالة دينية، وعلى حد تعبير جيلبير[٢] دي نوجان، كانت الحملات الصليبية مآثر من الله اكتملت على يد الفرنسيين. لكنهم لم يخفوا اعترافهم بأن صلاح الدين «زهرة رقيقة من البشاشة» وبوصفه بأجمل صفات الشجعان. وقبل أن يصرخ بطل مسرحية[٣] كورني (**Corneille**) بخمسة قرون «إن لها من مالا يحصى بالنسبة إلى أنها ليست مسيحية» كان الفرسان الإفرنج يتأسفون على أن صلاح الدين لم يكن مسيحيًا. وراحت هذه الفكرة المتفق عليها تنتفي —من الآن فصاعدًا— من أذهانهم حتى لأقل شعور بالنسبة لهذا الرجل النبيل الذي يتلخص كل بغضهم له في إخلاصه لدينه.

---

[١] كاتب أسباني ولد في بيلباو (١٨٦٤– ١٩٣٦). مؤلف كتاب «عنوان الشعور التراجيدي بالحياة»، وكتب رسائل هجائية مقذعة. (مترجم)

[٢] راهب بندكياني وراعي كنيسة نوتردام ده نوجان في عام ١٠٥٣ مات نحو عام ١١٢١، ألف كتابًا عن الحروب الصليبية، وبعد من أحسن الوثائق التاريخية عن هذه الحروب.

[٣] مسرحية (Palyeuete) الفصل الرابع – المنظر الثاني. (المترجم)

(٢٢) انعكاسات باهرة

كان الإسلام لا يزال يحافظ حتى خلال هذه العصور المظلمة على مكانته الأولى في العالم. ويمكن أن يعد السلاطين الأول السلجوقيون ووزراؤهم من بين أحسن رجال الحكم في التاريخ. ولم تكن المعرفة السياسية والعسكرية لصلاح الدين تقل قيمة في أي شيء عن المعرفة السياسية والعسكرية بالنسبة لريتشارد قلب الأسد، ولفردريك ده هوهنشتاوفن والقديس لويس ومعاصريه. ومهد هؤلاء السلاطين –دون شك– سبيل النجاح للعقيدة السلفية إلى درجة اضطهاد الهرطقات الإسلامية، لكنهم أبدوا تسامحًا تجاه الأديان الأخرى في الإمبراطورية، حتى إن المرء كان يرى طوائف مسيحية منحدرة من بيزنطة تدعوهم لنجدتها ضد الحكام الذين كانوا يضطهدونهم، ومن جهة أخرى أدت حكمتهم في أمور الدين إلى تخفيف انحرافات الفلاسفة وإلى التقليل من شأن الفلسفة فترة من الزمن. وعلى النقيض، في الميدان الفني لم يكن عصرهم بأقل من العصور التي سبقته في ظل تأثيرات متنوعة وبخاصة تأثيرات مسيحية، تحرر فن المعمار بطريقة أكثر إشراقًا أيضًا، ففي الشرق، كما في مصر، طبع السلجوقيون والأيوبيون والمماليك هذا الفن بوثبة تصوفية كان يفتقر إليها. أنه لعصر غريب، عصر صاعد وهابط معًا، وحشي وناعم في آن واحد.

امتاز الطراز السلجوقي بقوة عوضت لحسن الحظ ما كان فيه الطراز المعماري الفارسي من رشاقة مصطنعة. وكان من نتيجة اندماج هاتين الطرقيتين الفنيتين ظهور قصور ومساجد ذات طراز جديد تغلب عليه رشاقة الخطوط وقوتها. ويجدر بنا أن نلاحظ انه في الوقت نفسه كان الفن القوطي يزدهر في فرنسا. وهنا وهناك، كانت تقوم الدلائل الفنية الكثيرة والباقية من عصر يشع فيه من الإيمان، إيمان ديني هام حقًا، لكنه إيمان خادع كذلك، طالما قاد هذه الشعوب نفسها

ليجابه بعضها بعضًا متصارعين في ميادين القتال. وهكذا كان شان هذا المثل الأعلى الذي كان يصنع تارة محاربين لا يقهرون، وتارة أخرى مؤسسي دول يفيضون جرأة وبأسًا.

ولا تخلو أية نظرة خاطفة على تطور فن المعمار من فائدة، وبمساعدة تطور الزمن والانصراف جملة إلى أوفى إيمان راسخ كل الرسوخ لم تعد المساجد تتخفى في داخل فناء فهمي تملك الآن واجهات براقة وتتطاول نحو السماء وتتوج بقبو. وتتكاثر أنصاف القطع المكافئ والقباب والسطوح الداخلية للقباب، وتتحد معًا في مجموعة متناسقة رشيقة التناسب. وقد جمعت الأمثلة الأولى لظاهرة الفن المعماري في جامع آني عاصمة أرمينية وشيد هذا الجامع منذ بداية الاحتلال السلجوقي، وكذلك الآثار الباقية أطلالها اليوم في قونية، ويمكن أيضًا أن تعجب في هذه المدينة الأولى بالجامع الضخم المسمى جامع علاء الدين وبالواجهة المزخرفة لمادرده سير تجيليه».

ولا يزال باقيًا كذلك عن عصر السلجوقيين الجامع الكبير في الموصل وجامع المستنصر في بغداد، ومقبرتان وبرج طغرل بك في الري ومقبرة سنجار في مرو، وثلاثة محاربين همدان، وفي قزوين، لكن تحفة هذا الفن الجديد تظل ولا شك ممثلة في مسجد الجمعة بأصبهان. وعندما بدئ فيه سنة ١٠٨٨، تتابع تشييده طيلة عدة قرون في إتقان رائع، حتى إن بعض جزئيات زخرفته الداخلية نظر إليها على أنها أجمل الجزيئات الزخرفية في العالم الإسلامي. ومن العصر الأيوبي، تظل أيضًا في سوريا القلعة الضخمة في حلب والجامع الكبير في هذه المدينة، وضريح صلاح الدين في دمشق، قريب من المسجد الأموي، وهنا تحولت المساجد وتلاءمت مع المطالب الجديدة لطلاب العلم من الشباب، فقد أضيف إليها في ذلك الوقت أروقة في كل مكان منها ردهة (صالة) للمحاضرات لتدريس الفقه وأصول الدين. وكل رواق تعلوه مئذنة، وفي الوسط ترتفع الكتلة المهيبة للقبة الكبيرة. وفي عصر صلاح الدين أيضًا كانت قلعة القاهرة حادثًا خطيرًا، وقامت

أسوار المدينة (١١٨٣) التي أتمها خلفاؤه فيما بعد بالاستفادة من أحجار الأهرام الصغيرة، لأن الأحجار نادرة في بلد أرضها من الطمي.

وإذا كان الإنتاج الفني وبخاصة المعماري بلغ من الوفرة ما لم تعرفه مصر منذ ألف عام تقريبًا، فإن أصالته ونوعه لا يزالان من السمات الملحوظة بل من السمات التي لا يمكن تصورها في ظل نظام من الدم والحديد وعبر عصر من المعارك المستمرة. وإنما بقيت خفايا من هبة فنية راسخة كل الرسوخ في هذا البلد المنطوي على نفسه ولحسن الحظ ظل في مأمن من الهجرات التي لا تبقى ولا تذر، وتذهب بكل شيء. وكان الغزو المغولي نفسه على الرغم من تخريبه الشديد للشرق مفيدًا لمصر، لأنه أكره التقنين والصناع على الهرب من بغداد، والموصل، وحلب ودمشق لكي يلجأوا إلى مناطق أكثر ملاءمة لممارسة موهبتهم وفنهم، ومنذ ذلك الوقت انتشر لدرجة الكمال طراز المسجد –المدرسة الذي جيء به من سوريا وأصبح المثل الأعلى للقباب في مصر التي ظلت أجمل القباب بسبب حسن تلسيقها، وثروة زخرفتها. ويمكن أن نعجب في هذه المساجد الطلابية بأسوارها المشيدة على قواعد من الأحجار ذات الألوان المتنوعة وكذلك الرسوم الزخرفية المكونة على شكل عقود من الرواسب الكاسية، والنقوش المكونة من ملاط –مذهب. وفي كل مكان، يتألق اللون والضوء. ولا توجد مساجد أو مقابر مملوكية دون أن تكون مزدانة بالفسيفساء اللامع، وبالقرميد ذي اللون والوضاء والأبواب الضخمة من البرنز الموشي بأسلاك من اللجين أو العسجد، والنوافذ الفنية بزجاج ملون بألوان الطيف تختلف عليه الأضواء والظلال. وفي الوقت الذي يتعب فيه النظر من التأمل فيهرب منطلقًا نحو أفق بعيد إذا بالطراز العربي الهندسي، وخطوط الكتابة الكوفية تأسر لبه من جديد لسبب ما فيها من رشاقة الرسم، ورقة الخط المنحني الأنيق.

ويستخلص من هذه الحضارة العجيبة متناقضة، مذهلة في تناقضها. فلقد جمعت هذه الحضارة بين رقة شعب المتفننين والأدباء والفلاسفة، وبين بربرية السلاطين المماليك وقسوتهم ممن عاصروهم فعلى الرغم من روحهم المجدبة

الفجة –ظل المتفننون الملهمين والمحركين لعصر من ألمع العصور في الحضارة العربية.

وهكذا نجد أن بيبرس أقام على التوالي المسجد والمدرسة اللذين يحملان اسمه، وأن المنصور وابنه الناصر الذي عزل مرتين، لكنه قاوم بعد مبايعته في المرة الثالثة (١٢٩٣– ١٣٤٠) – أعطيا الأمر ببناء مستشفى، وثلاثين مسجدًا ومدارس وأديرة، ومجار للمياه وحمامات عامة. والناصر هذا هو الذي شرع في حفر القناة الضخمة التي تربط النيل بالإسكندرية. وخصص أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل لتحقيق هذا العمل العظيم الذي يؤكد في أبدع صورة– مهما يكن التقدم– فكرة العظمة والخلود التي كانت تسيطر على روح الملوك المسلمين. وفي ذلك العصر اشتهرت القاهرة بانها مدينة فاتنة، وأكثر حيوية ورخاء من مدن العالم الإسلامي في الشرق من بدء القرن الثالث عشر. فهذا نهر النيل الوديع وقنواته يعبره عدد وفير من سفن تجارية أو من سفن النزهة. وكانت الحدائق العامة المزدحمة بالأشجار الكثيفة، مضافًا إليها الآلاف من أشجار النخيل ذات العناقيد الحمراء أو الصفراء الذهبية وفيها مبان رشيقة ومآذن مدببة ومتطاولة، وكانت الشوارع الدافقة بالحياة وبالحركة تعج بجمهور ويجذب الأنظار تتجلى بين يديه سلال من الخضر والفواكه، وحوانيت صغيرة في الهواء الطلق وبين حين وآخر ينحني المار لكي يفسح الطريق لقوافل الجمال التي لا تنقطع عن السير محملة بالمنتجات الثمينة أو ببضائع قليلة القيمة. وعلى جانبي الشارع تظل المساكن موصدة تحجب ضوء الشمس، والضوضاء، والفضوليين. ولم يكن يرى من هذه المساكن وحياتها الداخلية الفاخرة غير حدائق مقفلة أو أفنية مظللة ونافورات مياه ذات ألوان متعددة وسطوح بيضاء، وتسود الزخرفة التي لا مثيل لها مساكن المدينة وسقوفها، ويبرز منظر قلعة صلاح الدين الذي لا يمكن أن ينسى على أنه منظر خيالي وكأنه رؤيا حالمة في السماء الصافية المزينة بالنجوم وفي الليل على ضوء القمر.

العصر الوسيط الكلاسيكي

(من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر)

لقد ساعد انحلال الإمبراطورية أيضًا على نهضة الآداب، بزيادة تعدد قصور الملوك وعدد حماة الآداب والفنون ونصرائهما وكانت جميع الأسر المالكة كبيرها وصغيرها تتابع عن إخلاص إنتاج العباسيين في الميدان الأدبي.

هذه هي المرحلة الكلاسيكية التي تشمل العصر الوسيط من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر والتي ظل الحب في أثناءها أيضًا بجميع صوره المختلفة الموضوع الرئيسي للشعر العربي. ويعبر ابن خفاجة المعجب بنفسه بهذا الوصف المعجز للشيء المحبوب:

فخالطت أطراف الأسنة أنجما ودست بهالات البدور ديارا

ولم تك إلا رشفة واعتناقة ويعجبني أني أعف إزارا

ومع تابن شرف، كان القلق والخوف من الحب هما اللذان يوحيان بالشعر الحزين.

وكان ابن حزم المتوفى عام ١٠٦٤ الحبيب العاطفي الذي كان يلذ له انتظار اللقاء والقلب خافق، وكان يلذ له توسل الحبيب وتأمله واستعطافه وبكاؤه:

برغبة لو إلى ربي دعوت بها لكان ذنبي عند الله مغفورًا

وإذا اتفق لنا أن نذكر من هذه الأشعار، أشعارًا أخرى كثيرة، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام نفس الموضوعات ونفس هذه الثروة الملهمة. وهناك مكانة خاصة

بالنسبة للحب الصادق المفعم بالمرارة من الصوفي الجنيد[1]، وبالنسبة للعاشقين الميالين إلى الحزن والدين يتعطشون إلى الحب:

إذا قلـــت أهـــدى الهجـــر لـــي حلـــل البلـــي

تقـــولين لـــولا الهجـــر لـــم يطـــب الحـــب

وإن قلـــت هـــذا القلـــب أحرقـــه الهـــوى

تقـــولي بنيـــران الهـــوى شـــرف القلـــب

وإن قلـــت مـــا أذنبـــت قلـــت مجيبـــة

حياتـــك ذنـــب لا يقـــاس بـــه ذنـــب

حقًا كان الأدب موضوعات أخرى في ذلك العصر غير الحب. ونظرة إلى ما قبل هذا العصر نجد أن الحاجة اضطرت المؤرخ أن يؤكد وجوده بدوره بسبب ضرورة جمع الأحداث الماضية وأعمال المشهورين من الرجال.

وكان أهم مؤلف كتب في هذا النوع هو وفيات الأعيان لمحمد ابن خلكان (١٢١١– ١٢٨٢) ويحتوي هذا المؤلف على ترجمة تاريخية من ثمانمائة إلى تسعمائة من خيرة الرجال في الإسلام[2]. وعلى الرغم من أن ابن خلكان يلاحظ

---

[1] أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الحزاز القواريري المتوفى سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨. قال الشيخ الجنيد: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، قيل له: وما هي؟ قال: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصت لها فسمعتها تقول: (إذا قلت أهدي الهجر لي حلل البلى ... الخ المنشور فوق هذا الكلام) فصعقت وصمت فبينما أنا كذلك إذ بصاحب الدار قد خرج، فقال ما هذا يا سيدي؟ فقلت له ما سمعت، فقال: أشهدك أنها هبة مني لك، فقلت قد قبلها وهي حرة لوجه الله تعالى، ثم زوجتها لأحد أصحابنا بالرباط فولدت له ولدًا نبيلًا، ونشأ أحسن نشوء وحج على قدميه ثلاثين حجة [عن وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلكان جـ ١ ص ٣٢٤]. (مترجم)

[2] يقول ابن خلكان: «فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئًا من الخلل يعمل بالمؤاخذة فيه، فإني توخيت فيه الصحة بحسب ما ظهر لي، مع أنه كما يقال، أبي الله أن يصح إلا

عليه الدقة فإنه حذر قارئيه بأن الله لم يرد أن يوجد كتاب بدون عيوب، خلا القرآن. وألف معاصره البوصيري (١٢٢١– ١٢٩٤) تكريمًا للنبي (صلى الله عليه وسلم) القصيدة المشهورة (البردة) التي كان المرء ينشدها أيضًا في أثناء تشييع الجنازات. وكتب أبو الفدا الأيوبي (١٢٧٣– ١٣٣١) حياة النبي (صلى الله عليه وسلم). ويروى مؤلفون آخرون حياة الفلاسفة وحياة العلماء ورجالًا آخرين ذائعي الصيت. مثل محمد الصوفي[1] الذي أهمل مثلًا –أو كما يحدث أيحانًا بين زملاء– أن يذكر عمر الخيام الذي كان قد عاش مع ذلك بقرن قبله.

عمر الخيام:

يظل اسم عمر الخيام أول شاعر يتوارد على الذهن عند ما يذكر الشعر الفارسي. والحق، أننا ننظر إليه في بلده على أنه أحد كبار الرياضيين في العصر الوسيط وقد اتخذت أشعاره في بلده على أنها لهو عالم.

وكثيرًا ما كان القفطي، وهو معاصر لمحمد الصوفي وترجم لحياة ٤١٤ فيلسوفًا وعالمًا –يحكم لعمر «بأنه لا مثيل له في الفلك وفي الفلسفة» على الرغم من أنه يلتزم صمتًا متزنًا تجاه الموضوعات الحية، ويتجنب تناولها دون لياقة. وقد لمع عمر الخيام في الميدان العلمي وهوجم بعنف من أجل ميتافيزيقيته. وكشف الصوفيون عن رمز تصوفي في شعره، ثم أعلنوا أخيرًا أنه أكبر مفكر في عصره وقد نظر إليه في القرن الثالث عشر على أنه فيلسوف زنديق. وقد بعثرت الأيام. مؤلفاته الفلسفية ولم تستطع أن تعيد تكوينها إلا جزئيًا، وعلمه فن الجبر أن يكون مبرزُتا، وكذلك تفوق علمه في التقويم وهو أكثر صحة من علمنا في التقويم، لكن أثره الذائع والمحبوب هو رباعياته (مكونة من أربع)، هي كما يدل عليها اسمها، شعر

كتابه. لكن هذا الجهد المقل وبذل الاستطاعة، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذي علم علم.. والله يستر عيوبنا بكرمه الضافي، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته النمير الصافي إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه. (مترجم)

[1] ألف موسوعة تشمل ترجمة ثلاثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام. (مترجم)

من أربعة أبيات، ولم يسجل الفرس الرباعيات بترتيب الفكرة أو الموضوعات، لكن بترتيب الحروف الأبجدية، ويوجد من هذه الرباعيات آلاف في الشعر الفارسي، وتحتفظ مكتبة بودليان في اكسفورد بالخطوط الفارسي لرباعيات عمر الخيام، ويرجع تاريخ كتابه إلى سنة ١٤٦٠. ونسيت بعض الرباعيات إلى أبي سعد، وبعضها الآخر إلى ابن سينا، ولا يمكن المرء أن يجزم أن كل هذه الرباعيات النسوبة إلى الخيام هي من نظمه حقًا. وتفضح هذه الرباعيات المشهورة المطبوعة بطابع التفاؤل أو التشاؤم رباعية بعد رباعية زيف هذا العالم، وتستهجن الرياء والحقد، وتشيد بالنبيذ (ذي اللون الوردي). هل كان عمر في رباعياته متصوفًا، أو متحررًا، اشتراكيًا؟ يمكن أن يكون كل أولئك على التوالي لكنه كان كذلك أبيقوريًا عذبًا مولعًا بأفكار مبتكرة وأحلام منسقة، إنه شاعر حق ما في ذلك شك.

قد كان يدري الله كل فعالنا
من يوم صور طيننا وبرانا
لم نرتكب ذنبًا بدون قضائه
فإذن لماذا ندخل النيرانا

***

هلم حبيبي نترك الهم في الغد
ونغنم قصير العمر قبل فوات
إذا كان من يهوى ويسكر في لظى
سترى الجنان كراحة اليد تصغر ١

(١) هنا ذكر المؤلف ثلاثة أبيات أخرى لم نعثر عليها فيما ترجم عن الخيام إلى اللغة العربية، وقد رأينا في ترجمتها نثرًا قد يفسد المعنى ... لذا لزم التنويه (المترجم)

هذا إلى أن البيت الرابع لا ينفق في رويه مع البيت الثاني نظيره المنتهي بكلمة: قوات: والأجدر أن يكون البيت الرابع هكذا:

إذا كان من يهوى ويسكر في لظى تبيت خواء ساحة الجنات

وكانت قوة إرادة الصوفيين الشديدة الحماسة لا تستطيع أن تخدع نفسها بهذه الأشعار، ولا يمكن أن يقصد هنا شراب مطلق أو نشوة يتمخض عنها الحب الإلهي، بل تقصد النشوة الخمرية التي يهيئها الشارب بوفرة عصير الكرم.

ولد الخيام في نيسابور وهي مدينة ملكية على باب الصحراء الكبيرة الملحة، ويعني اسم خيام «صانع خيام» ومات في سنة ١١١٤ وهذا ما يرويه نظامي العروضي:

«هبط عمر الخيام (سنة ٥٠٦ هجرية) مدينة بلخ ونزل في قصر الأمير أبي سعد. وكنت في خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول: سيكون قبري في موضع تنتثر الأزهار عليه في كل ربيع وظننته يقول مستحيلًا. ولكنني كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافًا. ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هجرية فقيل لي بأن ذاك الرجل العظيم قد مات. وكان له على حق الأستاذ، فرأيت من واجبي أن أزور قبره وصحبت من يدلني عليه فأخرجني إلى مقبرة الحيرة وهناك رأيت على يسار الزائر في سفح سور حديقة موضع دفنه ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التي سمعتها منه في بلخ وغشيني الحزن وغلبني البكاء لأنني لم أكن أعرف له ندًا بين الرجال وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلًا منه وكرمًا».

وعاش عمر خمسة وثمانين عامًا، وإذا اجترأنا على القول بأن هذه الألف والمائتين من الرباعيات ذات المقام الواحد لم تلعب إلا دورًا صغيرًا في حياته الطويلة، وبخاصة هذه الحياة التي شغلت نفسها بحلف المعادلات من الدرجة الثالثة وينقد مصادرات إقليدس وهما أقل نشوة –لو لم تكونا للرياضي– من عطر أشعاره.

=كما يلاحظ أن وزن الشطر الأخير من الكامل وسائر الأبيات من الطويل

الاضمحلال الأدبي:

شجع تعدد الدول في الوقت نفسه تقدم الاتجاهات القومية في مختلف البلاد التي كانت تشكل العالم الإسلامي. وكانت كل مملكة تريد أن تسمو ببلادها، ومن هذا التاريخ بدأ اتجاه ملحوظ نحو دراسة الناس وأمورهم في كل بلد. وعلى هذا المنوال كانت توجد منافسات سياسية، ومنافسات أدبية بين الأتراك وإيرانيين، وبين عراقيين وسوريين، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب. وعلى عكس المألوف، لم تكن هذه المنافسات مثمرة، ولم تنجح في إحداث جو من تنافس العصور الخلاقة. وكان قد مضى العصر الذهبي لضروب التقدم الشرقي في الآداب والعلوم؛ وكان هذا بداية الاضمحلال الذي تلاحق على مر القرون التالية.

وألف الإيرانيون قصصًا لا حصر لها في الحب على نسق شعري ذي شكل أدبي جميل. وقد نالت هذه القصص كثيرًا من النجاح. وكانت القصة الشعرية الفارسية الأكثر شعبية قد طبعت في عام ١١٨٨، وهي ليلى والمجنون لنظامي. وعلى عكس عمر، كان نظامي مشهورًا بتقواه، وباعتداله، وبتفانيه في الشعر، ويعيد بطل القصة ليلى التي يزوجها أبوها لآخر، وتلحق به يومًا، لكن ذلك لكي يموتا معًا.

هذا هو الموضوع الأبدي في الشعر الشرقي الذي لا تستطيع أن تبدع فيه أساطير الحب بدون دموع وبدون أحزان. وفي ذلك العصر، كان الأدب الصوفي يتغنى بالحب الإلهي. ونشأ فريد الدين العطار –أحد منشئ هذا النوع من الأدب الصوفي– في نيسابور في عام ١١١٩، وقد تضمن مؤلفه أكثر من مائتي ألف من الأبيات الشعرية. وكتابه «منطق الطير» الذي خلد ذكره في الأجيال التالية، شعر رمزي من ثناياه تبحث الطير عن ملك. والطير رمز للصوفية التي تبحث عن الحقيقة.

وكان ابن الفارض صوفيًا كبيرًا ولد بالقاهرة في عام ١١٨١ وعبر عن جميع

الموضوعات الصوفية في قصائد رائعة. وإن حرارة العاطفة التي تعبر عنها لتجعل المرء يظن أنه يقرأ أشعارًا في الحب والرغبات الشهوانية، لولا ورود كلمة أو بيت من الشعر من هناك وهناك تبعث «الروحانية» العلوية للإلهام. وهذه الأشعار التي أصبحت كلاسيكية، ترتل أيضًا جماعية في أثناء الجلسات الروحية للدراويش.

في عصر سعدي الشيرازي:

لكن سعدي كان الانعكاس الأكثر وضوحًا لهذا العصر المنحل. فقد ولد في شيراز في سنة ١١٨٤ وتلقى دراسته في المدرسة النظامية السنية في بغداد ورحل كثيرًا في العالم الإسلامي، وفي الأقطار المتاخمة. ولما حارب ضد الصليبيين أسر، وسرح مقابل فدية، واعتقد أن الواجب عليه اعترافًا بالجميل أن يتزوج من ابنة الذي أطلق سرحه. وكانت هذه المرأة شرسة، فطلقها. وفي سن الخمسين، آب إلى شيراز، التي كان لزامًا عليه أن يقضي فيها خمسين سنة أخرى، وتؤرخ كل مؤلفاته الفترة الثانية من حياته.

وكتب سعدي «بند نامه» أو كتاب الأحكام، و«الديوان» وهو ديوان من الأشعار الورعة أو البذيئة و«الجلستان» أو روضة الورد، وهي مجموعة من الملح والأشعار المختلطة، و«البستان» الذي يعرض فلسفته المشحونة باللذة الجسدية، وتتفوق هذه المؤلفات المتنوعة يسبب خيال إلهامها، وبثورة استعارتها. وكان سعدي قد اجتاز كثيرًا من المحن التي عرف بهدوئه أن يتغلب عليها على الدوام. وكان شديد التأثر بالجمال في شتى صوره وتوفر له فن التعبير عن أفكاره بصيغة محكمة، وعبارات أخاذة وموازنات موفقة.

وليس من الممكن أن تتبع ههنا هذه النصوص الرائعة التي تفوح فيها لذاته الجسدية الرقيقة، كما لا يمكن مقاومة لذة الاستفادة ببعض ثمار تجربته الفنية:

يستطيع فقيران أن يناما على بساط، ولكن ملكين لا تتسع لهما بأكملها.

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول: أنا جاهل.

لا تتعجل وتعلم الأناة فإن الجواد العربي يعدو أشواطًا قليلة بأقصى سرعته، أما الجمل فيمشي على معل ولكنه يسافر بالليل والنهار حتى يصل إلى آخر سفره.

إن خفة البندقية لدليل على أنها فارغة.

الخلاصة، كان سعدي شاعرًا وفيلسوفًا في وقت واحد لكنه فيلسوف سهل العبارة وشاعر زاخر بالحكمة، وقد مات حوالي عام ١٢٨٠.

أما القرن التالي فقد انتشر فيه اسم حافظ الشيرازي.

حافظ الشيرازي:

كان أعظم غنائي في إيران وربما كان كذلك في الشرق كله، وادعته كل من تركيا وأفغانستان والهند على أنه رمز مجدها الوطني، وكان لا يعزوه أن ينقد —عندما كان يقتضيه النقد— الادعاء بالعلم والمعرفة، والنفاق في معاصريه؛ كما كان ينقد بعض رجال الدين— وإنه لأهل لنقد كل أولئك لما كان يفيض به من الحكمة والصفاء.

اشرب مطمئنًا فإن الشيخ والحافظ والمفتي والمحتسب كلهم منافقون إذا رأيتهم عن كثب.

لكنه من وجهة أخرى يفيض بجاذبية ساحرة رقيقة عندما يعود الربيع.

ستنشر أنفاس الصبا عبير المسك والطيب فيصبح العالم العجوز غض الإرهاب نضير الشباب.. وستهدي زهرات الأرغوان أكؤس العقيق إلى الزنابق البيض.. وتتطلع أعين النرجس إلى خدود الشقائق الحمر.. وسيمضي البلبل في ألمه الذي احتمله بسبب البعد والهجران فتتجاوب أصداؤه في مخيم الورد والريحان.. فلا تحقر أمري إذا مضيت من المجد إلى بيت ألحان، فمجلس الوعظ طويل وسيمضي بنا الزمان.

(٢٣) الأسرات الأخيرة

غارة المغول:

بعد أن بعث الأتراك السلجوقيون قوة في العالم الإسلامي أتاحت له أن يقاوم المعركة الطويلة للصليبيين، انهمكوا بدورهم في الترف، وتركوا الإمبراطورية تتفتت إلى ممالك صغيرة مشرقة حقًا، لكن كلا منها كانت تقف تجاه الأخرى بالمرصاد بيد أن قبائل السهوب الخربة في الشرق حينما كان يستبد بها الجوع أو تجف لديها منابع الرزق نتيجة جدب الأرض –كانت تلك القبائل في هذه الأحوال ترحل مهاجرة تجاه الحدود حيث توجد مناطق أكثر ثروة. وسيظل هذا دائمًا التفسير الكاشف لهذه التيارات الكبيرة من الغزوات التي كانت تفوق جميع الأحداث الأخرى في التاريخ.

ثم جاء جنكيز خان الفارس المغولي الخالد والمثير للرعب أيضًا كأسلافه الأقدمين الهون– وإن كان أحسن إعداد وتنظيمًا، وشرع يضع يده على آسيا الوسطى. ففي سنة ١٢١٦ انتصر ٦٠,٠٠٠ مغربي مسلحين بأقواس غريبة، قاذفين بالأسهم وهم على ظهور الخيل في زحف سريع على محمد شاه الخوارزمي. واكتسح جيش آخر بخاري بقيادة جنكيز خان وعسكرت خيول آسيا في المساجد، وهي أمكنة لتأدية فرائض الصلاة والبحر في العلوم. كان عبثًا أن تستسلم سمرقند وبلخ، إذ ذهبت المدينتان ضحية مذبحة نفذت بشدة لم تستطيعا معها أن تنهضا من كبوتها التي لازمتها حوالي مائة عام. ودمر ابن جنكيز خان وهو يتابع اكتساحاته، خراسان، كما خربت مرو، وناضلت نيسابور ببسالة. لكنها سقطت في سنة ١٢٢١، ونهبت الري. وكان عبثًا كذلك أن يحاول جلال الدين ابن محمد شاه التوجه ناحية نهر السند ليبدد الهجوم. فقد غلب على أمره. وسقطت هراة وأصبحت أنقاضًا. وصار كل شيء خرابًا ببابا، وظلامًا، ودمارًا، وهناك حيث قامت

قديمًا المدن المزدهرة، أزيلت جميع المراكز الثقافية في العلم الإسلامي الشرقي، وهدمت آلاف المساجد من وجه الأرض، وأتلفت دور الكتب، وقتل السكان الذين لم يتمكنوا من الهرب، بحد السيف أو ذبحوا فرادى، وكدست رؤوس الضحايا على شكل أهرام بغيضة. لقد كانت هذه الوحشية المنسقة عن عمد تهدف إلى تحطيم كل محاولة للمقاومة.

بيد أن جلال الدين كان قد أعاد تنظيم جيش في ديار بكر، لكن فرقة من ٣٠٠,٠٠٠ رجل كانت في الطريق من قبل من منغوليا تحت رياسة أغلاي، وهو أن جنكيز وخليفته والمشبع بالجنون التدميري، ونهب هذا الغازي أذربيجان، وشمالي ما بين النهرين وجورجيا وأرمينية. ومات أوغلاي عام ١٢٤١ وبموته أنقذ القليل الذي بقي من العالم الإسلامي. وبعد فترة قصيرة، انتشرت موجة أخرى من الغزو سنة ١٢٥٣. وقد رأس هذه الغزوة هولاكو حفيد جنكيز، وتقدم من ناحية سمر قند وبلخ. وقضى على الممالك الصغيرة التي كانت قد أقيمت على أنقاض الخلافة، واتجه نحو بغداد. وفي يناير من سنة ١٢٥٨ هجم بآلات الحصاد على العاصمة وفتح فيها ثغرة. وتقدم الوزير الكبير ليناقش أي شروط للتسليم، ولكن هولاكو رفض أن يستقبله.

كان المستعصم آخر خلفاء العباسيين عالمًا ورعًا، وواهبًا نفسه للدين والعلم. بيد أنه كان قد تنبأ لهولاكو. «إذا قتل الخليفة، فإن العالم كله سينقلب رأسًا على عقب وستكون الشمس في حال كسوف، وسيتوقف سقوط المكر، وسيتوقف النبات عن النمو». لكن هذا المغولي الذي طمأنه علماء التنجيم، لم يدع نفسه يتأثر بهذه النبوءة. ففي العاشر من فبراير كانت جيوشه تتوغل داخل المدينة، حيث قدم الخليفة في حراسة ولديه و٣٠٠ من الموظفين الكبار، ليعرض عليه تسليمًا بدون قيد ولا شرط. ويقال إن ٨٠٠,٠٠٠ من السكان ذبحوا، و٢٤,٠٠٠ عالم ديني نفذ فيهم حكم الإعدام، ومات آلاف من العلماء، والشعراء والمشتغلين بدراسة العلوم والأبرياء الذين هم دائمًا الضحايا– في هذه المجزرة البشعة. ونهبت

أو أتلفت كنوز مكدوسة منذ قرون. وقذف بكومات من الكتب في نهر دجلة، كادت لكثرتها تقف مجرى مياه النهر «وكانت المخطوطات المكدوسة تشكل جسرًا من شاطئ إلى الشاطئ الآخر وحرق الغزاة بقية ما شاهدوه طافيًا خوفًا من عدم فيضان النهر بالماء». وطيلة عدة أيام، أصبحت مياه دجلة سوداء من حبر ملايين الكتب والمخطوطات التي كانت قد ألقيت فيه. وبعد أن أكره الخليفة وأسرته على الكشف عن ثرواتهم، قتلوا بعد ذلك.

ولأول مرة —منذ ٦٠٠ عام— يعيش العالم الإسلامي بلا رئيس ديني أو إمام.

وفي سنة ١٢٦٠، استولى هولاكو على حماة، وحمص، وحلب التي قتل فيها —كما يقال— ٥٠,٠٠٠ شخص بحد السيف. ثم عاد إلى منغوليا التي مات فيها من قبل أخوه خان الأكبر. وتابع الجيش الذي كان قد تركه فتوحه واخضع سوريا، ولكن في عين جالوت بالقرب من الناصرة، وجد نفسه بغتة أمام جيش مصري، وقد قدر لهذا الجيش أن ينقذ مصر بل أوروبا من التهديد المغولي بعد انتصار كان ثمنه غاليًا بقيادة قطز وبيبرس. وعندما انحسر المد المغولي، ترك وراءه بلادًا أصيبت إصابة قاتلة في بنائها واقتصادها، وشعبها مقطع الأوصال، لا نظام ولا قوة ولا نشاط.

وقد ألقي اللوم على هذا الانهيار الذي تحصر أسبابه المباشرة في هذه السلسلة الطويلة من الهزائم التي كانت قد ابتليت بها الجيوش الإسلامية قبل انتصار عين جالوت وفي أزمنة أخرى، كانت هذه الجيوش تواجه جيشًا أكثر بأسًا، وكانت تنتهي بدون شك بصد الموجة المدمرة. فكان على المغوليين أن يعودوا من حيث أتوا مثل الهون في معارك قطالونيا، ومثل العرب أنفسهم في بواتييه.

«نحن الحضارات الأخرى، نعرف أننا إلى فناء» هذه الملاحظة التي يعاد تكرارها كثيرًا جدًا، والتي تحققت عن الطريق التجربة، نسيت تمامًا. بيد أن التاريخ يقف دائمًا بذكرياته المخيفة، والجيران الذين يتضورون جوعًا يقفون دائمًا على

الأبواب، وعلى أتم استعداد للانقضاض على هذه الحضارات، عندما تحين الفرصة الملائمة.

لم يكن السبب الرئيسي للسقوط الشنيع للحضارة الإسلامية في الهجوم المقبل من الخارج، ولكنه يكمن في الانحلال البطيء للقوى الداخلية وتماسكها، وفي الفوضى السياسية والأخلاقية التي أحدثها الفساد والعجز، والخوف، وربما أحدثها كذلك افتقار معين للتحول الطبيعي مع التطور العادي للحضارة. حقًا قد اعترف خان الأكبر بالإسلام كدين للدولة بعد خمسين عامًا من انهيار الإمبراطورية وكان هذا نصرًا أدبيًا كبيرًا، لكن الإمبراطورية الإسلامية بقيت بعد ذلك مصابة في وحدتها إلى الأعماق.

المماليك:

إن أسرة المماليك وهي آخر أسرة في العالم العربي تشكل النتيجة المنطقية للانحلال الذي كان بفت في عضد الإمبراطورية الإسلامية منذ أكثر من أربعة قرون، فكانت أسر مصر على مثال خلفاء بغداد تتخذ لأنفسها حرسًا من الممالك الأجانب، وبذلك انتهى الأمر إلى النتيجة نفسها فقد حكم الحرس المرتزقة الدولة أولًا، ثم عين رئيسها السلطان ولم تعد توجد قاعدة لوراثة الملك، فقد كان الأقوى هو الذي يحكم. لكن هؤلاء السلاطين، وهم مماليك من أجناس وقوميات مختلفة، وأجانب عن عصر، لم يمنحوها في أثناء توليهم الملك غير قليل من إنجاز بعض المهام.

كان أعظمهم جميعًا بيبرس الذي نشأ مملوكًا تركيًا، اكتملت فيه إلى أقصى حد خصائص الرياسة، وكان بيبرس قد أحرز انتصاراته الأولى ضد المغول، ولكنه كان بخاصة بطل المعركة الظافرة ضد الصليبيين. وقائدًا عسكريًا وسياسيًا، فأعاد تنظيم الجيش، وعضد الأعمال العامة، وأقام المنشآت الدينية والتعليمية، والمستشفيات، والمساجد. وكان سلطانًا نافذ البصيرة لذا عقد معاهدات تحالف

مع خان الأكبر صاحب مملكة المغول، ومع شارل الأنجوي ملك سقلية وجاك ملك أرغون. وبايع عن حكمة في موكب حافل أحد العباسيين خليفة، كان على قيد الحياة بعد مذبحة بغداد. ولم يكن منصب هذا الخليفة غلا منصبًا شرفيًا له السلطان الروحي دون السلطة الزمنية. غير أن هذا المبدأ استمر طيلة عدة قرون وكان خلفاء بيبرس أقل إشراقًا منه فلم تلبث الضرائب الفادحة والأوبئة والمجاعات المتكررة، والفوضى المستمرة، أن خربت شيئًا فشيئًا مصر. ومن بداية القرن الرابع عشر أصبحت أسماء هؤلاء السلاطين غير جديرة بالذكر. وكل ما تميزوا به الجهل والوحشية. وقد حكم هؤلاء السلاطين على أطبائه أن يقطع رءوسهم لعجزهم عن شفائه من أمراضه، كما كان هناك سلطان آخر كل ما شهر به هو الغباوة والجهل وعدم توقيع القرارات الرسمية، وأكثر غرابة من ذاك هذا الذي أمر بقطع لسان كيميائي لم يستطع أن يحول أوكسيد الرصاص ذهبًا.

ويجب أن نضيف أن هؤلاء الحكام المماليك كانوا بعامة رجال أعمال، بل تجارًا غاية في الجشع. يحكى أن أحدهم احتكر الفلفل وباعه بعد ذلك للرعية بعوائد ضخمة ولما لم ترو هذه المحاولة غلته، أجرى هذه المحاولة نفسها مع السكر.

وكان من الطبيعي نتيجة سوء الأحوال العامة أن يشرف الاقتصاد على الخطر وتنقص المواد الغذائية، ويصبح القحط مرضًا مزمنًا في مصر التعسة، وفي سوريا التي كانت تعتمد عليها. ويقال: إن هذين الإقليمين فقدا تحت ظل المماليك أكثر من ثلثي سكانها. وأخيرًا خربت غزوة تيمورلنك في بداية القرن الخامس عشر سوريا التي هدم فيها كل ما بقي من مساجد ومن آثار، ومن مدارس، لكيلا يقام أبدًا مرة أخرى.

وهناك أمر آخر حدد شيئًا فشيئًا خسوف السلطان العربي ، ففي حوالي نهاية القرن الخامس عشر عندما عبر فاكسوه ده جاما رأس الرجال الصالح تحولت تجارة

الهند والجزيرة العربية عن الموانئ السورية والمصرية. فقدت نهائيًا مصدًا هامًا للدخل. وكان كشف أمريكا كذلك يشير إلى انطلاق عصر جديد. واتجهت أنواع النشاط نحو الغرب، وراح مركز الجاذبية للحضارة ينتقل في هذا الاتجاه، هذا إلى أن الإمبراطورية العربية الشرقية تلقت ضربة قاضية بيد الأتراك. ففي سنة ١٥١٦، بالقرب من حلب انتصر العثمانيون –أولاد عم السلاجقة– الذين كانوا قد استولوا على القسطنطينية –على جيش المماليك، حتى إذا احتلوا سوريا، انتزعوا السلطنة من القاهرة، واستولوا على المدن المقدسة. ولم يتردد السلطان التركي في القسطنطينية أن ينسب إلى نفسه امتيازات الخليفة، ويغتصب بعدها لقب الخلافة. وهكذا شاخت الإمبراطورية العربية في الشرق.

مملكة غرناطة:

يجدر بنا أن تعود الآن إلى الإمبراطورية في الغرب. لقد ضعف بسرعة المحاربون المترهبون أتباع يوسف بن تاشفين بعد اتصالهم بالعادات الأندلسية. ففي الجبال الواقعة جنوبي مدينة مراكش التي نسى خلفاؤه مراقبتها، أخذت القبائل تتوالى –جماعات– وراء مهدي كان يدعو إلى العودة إلى بساطة الحياة والإيمان. وهكذا خلفت أسرة بربرية هي أسرة الموحدين، أسرة المرابطين في بلاد مراكش أولًا، ثم في أسبانيا.

ويعيد التاريخ نفسه، غنه دائمًا هو نفس التاريخ في خطوطه الكبيرة. فقد جدد هؤلاء المحاربون الفضلاء النظام، وعاد الرخاء، وانتشرت العلوم الفنون. وكان أن ساد من جديد الترف بنتائجه الحتمية، وفقدت الخصائص الحربية، وفسدت السلطة، وضعفت، وتفتت، وأقبلت قبائل أخرى لتحل محل هؤلاء. وهكذا يحدث في الغرب من الانحلال والاضمحلال مثل ما حدث في الشرق.

ولم تتح تقلبات الأمور في أسرة الموحدين، والدول الصغيرة التي نشأت عن تفتتها، النهوض بتاريخ الحضارة العربية. وعرضت للخطر ما يخص الغرب من

النتائج الباهرة التي أتت نتيجة الاتصالات التي امتدت بين المسلمين والمسيحيين. وظلت هذه العلاقات يحدوها التوفيق حتى طيلة المراحل الحربية المستمرة، لكن حدث ذات يوم أن المسيحيين الذين كانوا منقسمين حتى ذلك الوقت اتحدوا معًا وهاجموا الجيش الإسلامي الذي كان يقوده محمد الناصر (١١٩- ١٢١٤). وكان أبو يوسف يعقوب نابهًا حقًا إذ أقدم بجرأة على التخلي عن ابن رشد في سبيل أن يشرك رجال الدين في سياسته الحربية. ولما كان الناصر مكرسًا نفسه للملذات فلم يكن يهتم لا بالفلسفة ولا بالدين. وقد غلب على أمره في واقعة العقاب في سنة ١٢٣٦، وبلنسيه في سنة ١٢٣٨، وأشبيلة في سنة ١٢٤٨ ولما أضنى الكفاح العرب في كل ناحية، تقهقروا في مأمن من سيرانيفادا في مملكة غرناطة التي ظلت تحت حكم قرنين، واختلفت آخر صورة مصغرة من السيادة الإسلامية الآفلة في الغرب.

كان الموحدون من المشيدين الكبار للحصون أولًا، وللقصور ثانيًا، وبمثل قصر أشبيلة ازدواج هاتين الطريقتين المعماريتين الفنيتين، نعني بهما طريقة الحصن وطريقة الصرح، وأنشأ الملوك المسيحيون مساكنهم على أساس هذا الازدواج في سنة ١١٤٨، وكبروه. والقصر (الكازار بالاسبانية) أثر ذو طراز عربي أسباني، أي مسيحي مغربي على شاكلة قصر سانتا ماريا لايلانكا في طليلة، وقصر كوربوس كريستي في بطليوس وبرج لاجبرالدا المربع العظيم الذي يبلغ طوله ٩٤ مترًا، والشبيه ببرج الحسن في الرباط وقصر الكنيسة في مراكش هو كذلك من طراز أسباني عربي، في ثلثه الأعلى الذي يتوافق على وجه تم مع قاعدته المغربية. وتمثل شرفاته المطلة على الأروقة ونوافذه حلية ثمينة من العمارة، وأخذ برج لا جيرالدا اسمه عن تمثال برنزي يمثل الدين المسيحي ويفوقه علوًا، على الرغم من ثقله فإنه يدور لأقل هبة رياح. ومن البديهي أن برج لاجيرالدا لم يكن يستطيع أن يمثل العقيدة الإسبانية التي كانت محرمة في هذا البلد الكريم.

ويبقى قصر الحمراء ف غرناطة أجمل مبنى ف أسبانيا الإسلامية، وهو في

الوقت نفسه أحد مبتكرات عبقرية الإنسان العجيبة، واسمه مشتق من الصفة العربية «الأحمر[1]» وبدئ في تشييده سنة ١٢٤٨ وفقًا لتخطيط فخم، واستغرق بناؤه زمنًا طويلًا جدًا. وكان صحنه في أول الأمر يتسع لجيش مؤلف من ٤٠,٠٠٠ جندي، ولكن في القرون التالية تحولت هذه القلعة الشامخة إلى عدد كبير من القصور، ومن المنازل لاقطاعيين وتمثل كذلك تحفًا رائعة من الفن. وكل ما تستطيع عبقرية الإنسان أن تتخيله من روائع الفن قد اجتمع هناك على هذه الصخرة الوعرة الانحدار، المحفوفة بشعب عميقة في موقع ممتاز وفريد. ويشرف قصر الحمراء المعلق بين الأرض والسماء على المساحات الشاسعة المنحدرة للريف التي تخلق فيها الشمس الدافئة في أسبانيا والمياه الو فيرة لجبال سييرا المغطاة بالثلج، أغنى المزروعات. وفي مشارفه، يمتد منظر مدينة موشاة، سابحة في ضوء البحر المتوسط. ويدخل في هذا القصر عن طريق واد ضيق مخصص له غارق في ظلال وارفة لا تغرب عنه يمثل نوعًا من التمهيد لدخول هذا القصر، ثم المشهد الساحر للقصر وللحدائق التي تزخر بما فيها من جواسق وأورقة وأعمدة. وفي كل مكان منها، تماثيل من المرمر، وأشجار، وأزهار وتبدو فيها شجرة النار الوردي، وأشجار الياسمين، أكثر تفتحًا، وأكثر ازدهارًا من أي مكان آخر، وأغصان أشجار الرمان، وأشجار الليمون التي يصعب كسرها. ولا يستنشق في أي مكان آخر عطورًا أكثر فتنة من عطورها. وها هي ذي مياه سييرا البعيدة التي تجذب إلى حدائق القصر نسيمًا عليلًا يثير الدهشة، بينما تتوهج شمس لا تخمد في كل مكان يحيط بها. وترى هذه المياه تتفجر من كل جهة. فتتدفق على الفسيفاء، وعلى التماثيل المرمرية، وتندفع على شكل أعمدة صغيرة تكاد تكون وشفيفة أو تتناثر في شكل قطرات لا حصر لها تتشكل بألوان متنوعة على ضوء الشمس ويشبه نص من الشعر

[1] قيل إنه نسبة إلى بني الأحمر الذين حكموا غرناطة من ١٢٣٢ إلى ١٤٩٣، أو من التربة الحمراء التي بنى عليها القصر. (المترجم)

العربي المنقوش على فاسقية بهو السباع المادة التي تلون حوض الفاسقية[1] بألوان مختلفة يشبهها بعقد اللؤلؤ في المياه الصافية المتلألئة».

وقد لعب علماؤهم بفن التأليف الساحر بين الحجر والماء وبين قوانين الثقل ومستوى النظر والضوء. فهذا حائط من الفسيفساء يتموج مع انكسار الضوء الذي ينكسر على الموجة مع ظلال تنساب في اهتزاز. وفي حوض الريحان (في قصر الحمراء) يتراقص رواقه مع أوراق الشجر التي يعكسها دون توقف. وبهو السباع الذي يربض فيه اثنا عشر سبعًا من الرخام تحرس الفاسقية يعد إحدى روائع الفن بسبب توافق أبعادها، وتناسق أعمدتها، ورشاقة عقودها. ويبهر المار بسبب ثروة قبابه الكلسية، ونقوش سقوفه، ورسومه، وشبابيكه وزخارفه التي تتشابك بعضها في بعض. وتعبر هذه المجموعة من القصور الفاخرة، والشرفات، والحدائق، والفاسقيات عن ذروة الفن الإسلامي وأفوله في آن واحد، وعن نشاط مظفر يتبدد في يسر وقوة تتطور تجاه الرشاقة، وعظمة تتحول إلى طرافة. وهكذا، فإن الخصائص البطولية التي كانت قد شكلت عالمًا فاتحًا، أخذت تضعف شيئًا فشيئًا تحت شطط وفرة الترف والثروة. فقد ينتهي كل ذلك إلى دعة من الحياة الرخية، ودعوة دائمة إلى الراحة، وإلى النبطل. وكان السكان المترفون في هذه الجنة ذات النعيم لا يستطيعون أن يصونوا فيها خصائصهم الحربية. كما أنهم جعلوا من الحكمة المتواضعة التي كان قد نقشها مؤسس هذه المملكة قدوة لهم في كل مكان «لا غالب إلا الله» ونجحت كياسة ملوك الأندلس ودبلوماسيتهم وقتًا طويلًا في أنقاد مملكة غرناطة، لكن هذه الكياسة لم تستطع أن تؤجل احتلال المسيحيين المفترسين لهذه المملكة. ولم يعرف أبو[2] عبد الله آخر ملوك غرناطة — العاجز

---

[1] الفاسقية = ضرب من العمة وأمل ذلك تشبيه لها بالعمامة في استدارتها. (مترجم)

[2] سلم مفاتيح غرناطة أجمل آثار المسلمين وأروعها في ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ ولما بكى أبو عبد الله لهول الكارثة، وبخته أمه قائلة له: «إنك مثل النساء ملكًا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال»، ثم هارج إلى المغرب ونزل بفاس حتى مات بها، وبقي نسله إلى سنة ١٠٣٧ يعيشون من أوقاف

عن المقاومة —غير التفاوض، وسلم غرناطة في ٢ يناير سنة ١٤٩٢. ويقال إن هذا الملك البائس كان قد طلب من الملك المسيحي أن يسد الباب الذي غادر منه قصره السحري لكيلا يتمكن أي إنسان أن يمر به فيما بعد، ويقال إنه عندما عبر الممر الأخير، الذي منه تحيط النظرة بالمنظر العجيب للقصر، انهمرت الدموع من عينيه، وسواء أكانت هذه القصة صدقًا أو كذبًا، فإنها قد أبقت على هذه الأسطورة الحزينة الحسرة الأخيرة لهذا المغربي.

وقد أطلق على حي من مدينة فاس «حي الأندلس» وفيه يعيش الخلفاء المنفيون من غرناطة؛ ويحتفظ الكثير منهم كأثر باق بمفتاح منزل أبيهم. وتثير بمرارة أغنية من أسمى أغانيهم (يا أسفي) ذكرى المدينة التي لم يمح ذكراها بعد: «كم أتأسف على الماضي.. وعلى أيام الفرح والسرور، وعلى الأمسيات اللذيذة، يا مساكن الأندلس التي غادرناك، لن أنساك أبدًا، وتعود ذكرى هذه الصورة نفسها على الدوام، فيقال إنه لكي نعبر عن حزن غريق في الأوهام دون أن نفهم دائمًا مدلول هذه الكلمات:

«إنه يفكر في غرناطة» ..[1]

المسلمين المرصدة على الفقراء والمنقطعين [عن تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي. تأليف الدكتور على محمد حمودة ص ٢٩٩].

(مترجم)

[1] وبذلك تجمعت الأسباب وتكاتفت الظروف على العرب لتثير في نفوسهم نحو هذه المدينة حبًا فريدًا بما قد اتصفت به من صفات، وبما قد رمزت إليه من معان. فذخر كلامهم عنها بإشارات جميلة تنطق بهذا الحب. وجعل الشعر الذي قاله شعراؤها بل الذي قاله سمعوا أخبارها، يفيض بالحب الحار الملتهب [عن سلسلة اقرأ — ثم غربت الشمس —تأليف الدكتورة سهير القلماوي ص ٢٨].

(مترجم)

(٢٤) غفوة العالم الإسلامي

التوسع الأوربي:

بعد سقوط غرناطة، اجترأ الأسبانيون حتى وصلت جرأتهم إلى درجة ملاحقة المسلمين في أفريقية. ففي بداية القرن السادس عشر، استولوا -على التوالي- على مليلة، والمرسى الكبير، ووهران، وبجاية، ومدينة الجزائر. لكنهم مارسوا سياسة المكايد الدنيئة، وكان لزامًا على الحاميات الإسبانية التي تحتشد في هذه المدن كأنها جيوش محاصرة. واستنجد العرب والبربر الذين لم يسندوا العرب كما ينبغي بالأتراك. ووضع الأتراك قدمهم في أفريقية الشمالية في سنة ١٥١٧. وبذلك تبدأ مرحلة جديدة، وتستمر حتى سنة ١٨٣٠، واستقر حكومة عسكرية في مدينة الجزائر، وأصبحت إقطاعية للقسطنطينية، وقهروا شارل كانت القادم لحصار المدينة مع ٥٠٠ سفينة و٣٥,٠٠٠ رجل سنة ١٥٤٨. ومنذ ذلك الحين أشرف الأتراك على حوض البحر المتوسط. وانتظم مشروع جبار من القرصنة وقتئذ. وبعد ما وجه هذا المشروع ضد السفن الإسبانية، امتد حتى أصبحت جميع أساطيل أوروبا ضحايا لهذا المشروع. وقد ظل القراصنة سادة البحر المتوسط طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر، بل ظلوا كذلك إلى أن تم الاستيلاء على مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠.

بيد أنه من بدء سنة ١٥٢٣، لم تنفط فرنسا عن مراقبة إفريقية تحت صورة مواني القتال، وتحت صورة منشآت تجارية مسموح بها. ومنذ سنة ١٥٧٧، عينت قنصلًا في مدينة الجزائر، وتبعتها في ذلك الحكومات الأخرى الأوروبية التي كانت ترغب كذلك في حماية تجارتها. لكن، الباي طالبهم بجزية ضخمة، وفي سنة ١٥٧١ قهر الأسطول التركي في لبانت، لكن السفن الأوروبية لم تستمر كثيرًا في خضوعها لابتزاز هؤلاء القراصنة، فعلى الرغم من الجزية المدفوعة، صودرت

شحنات السفن، واستولى على المنشآت، وبيع ملاحو السفن كأنهم أرقاء. وإزاء كثير من الاستفزازات وجهت إنجلترا حملات تأديبية في سنوات ١٦٢٢، ١٩٥٥، ١٦٧٢. وفي سنة ١٦٨٢ ضربت فرنسا مدينة الجزائر بالقنابل بقيادة دوكين. وفي سنة ١٦٨٨ بقيادة استريه. وطيلة القرن الثامن عشر كله دفعت جميع الدول الأوروبية، والولايات المتحدة نفسها عند ظهورها على المسرح، جزية إلى داي مدينة الجزائر، لكن القرصنة لم يخمد أوارها، وكان البحر المتوسط يرغي ويزبد بهذه القرصنة. وقرر وقتئذٍ مؤتمر فينا أن ينهي هذه القرصنة، ولم يحصل بعد حملة إنجليزية هولندية في عام ١٨١٦ سبقتها حملة أمريكية بعام إلا على وعود لم تغير من الموقف شيئًا.

وفي سنة ١٨٣٠ ووفق على حملة فرنسية برضاء جميع القنصليات الأوروبية باستثناء إنجلترا. فتوجهت لتحقق أهداف مؤتمر فينا وهي تحطم نهائي للقرصنة، ووقف تام للرق، وإلغاء الجزية التي تدفعها عبثًا للدول للقائمقامية التركية. وفي ظل العمل الحاسم لفرنسا، أدى التفويض بسرعة، لكن المفاوضين نسوا بسرعة كذلك هذا التفويض. أما بربر إفريقية الذين تحرروا من الوصاية العربية التي كانت تطغى عليهم، فلم يظهروا أي رضاء لفرنسا عن وصيتها.

تقدم الأتراك وتقهقرهم:

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، شملت الإمبراطورية التركية جميع البلاد العربية ما عدا بلاد مراكش وجزءًا من شبه جزيرة البلقان. ولم يكن السلطان رئيسًا سياسيًا فقط لهذه الإمبراطورية الشاسعة بل كان كذلك الرئيس الديني والخليفة لجماعة المسلمين منذ سنة ١٥١٧. وقد انطلق إلى غزو العالم المسيحي، واستولى على الصرب، والبوسنة، ومقدونيا، والهرسك والمورة، وأقبل على حصار فينا في سنة ١٥٢٩. وواجه العالم المسيحي هذه الحملات بحزم، وفي معاهدة السلام في كارلوفتس سنة ١٦٩٩ تنازلت تركيا عن المجر، والمورة،

وبودولي، ومضيق آزوف. وفي سنة ١٧١٨ تخلصت ألبانيا، ودلماسيا، والهرسك، من حكم الأتراك، وفي سنة ١٧٧٥ كان دور شبه جزيرة القرم، ويوكافين، وفي سنة ١٨١٢ الصرب. وأخيرًا في سنة ١٨١٧ بعد موقعة نافارين، كان الأتراك قد فقدوا –للأبد– اليونان، والصرب، وملدافيا وفالاشيا.

منذ ذلك الحين لم تعد تركيا إلا «الرجل المريض» الذي كانت الدول الأوروبية تترقب استخلافه وكانت جميع الجول مهتمة له: روسيًا عن طريق المضايق –إنجلترا عن طريق الهند، النمسا والمجر عن طريق بلاد البلقان– ألمانيا بسب «حلمها في الشرق» فرنسا عن طريق دورها كحامية للأقليات المسيحية في الشرق.

ونتيجة لغزو مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠ واحتلال بلاد تونس في سنة ١٨٨١ أقصيت تركيا نهائيًا من البحر المتوسط الغربي. وبعد احتلال إنجلترا لقبرص أولًا، ثم لمصر في عام ١٨٨٢ واحتلال إيطاليا لإقليم طرابلس وبرقة وجرز الدوديكانيز في عام ١٩١١، عزلت تركيا أيضًا عن البحر المتوسط الشرقي. وعندما انتهت الحرب البلقانية في سنة ١٩٢٢ لم تعد تنسب إلى أوروبا. وظلت الشعوب الإسلامية ما عدا القليل، تحت سلطان القانون، أو الحق للشعوب الأوروبية. وبدا المستقبل السياسي للعالم الإسلامي منهارًا.

وقد أتاح لنا هذا المختصر الموجز أن نرى كيف تفككت الإمبراطورية الإسلامية سياسيًا واجتماعيًا قبل العام الألف وخرجت منهوكة من طول معركة الحرب الصليبية، ثم سقطت في يؤس مادي وأخلاقي لإقرار له بعد أضرار المغول.

من أجل هذا استكان العالم الإسلامي إلى معارضة عامة منظمة لكل تجديد، استمرت ٧٠٠ عام تقريبًا. ونجده غير قابل للتغير في القرن التاسع عشر لأنه دائمًا شبيه نفسه، ومشابه بشكل غريب لما كان عليه في القرن الثالث عشر.

لقد انتهى دوره حقًا، فبعد أن جمع أفضل ما في جميع الحضارات، وبعد أن

نثرها عبر العالم، كانت حضارته الخاصة قد انطفأت، وحياة شعوبه قد هبطت[1]. هذا إلى أن الطبيعة، والنباتات، والأنعام، والبشر، لم يتغير شيء منها تحت سماء صحراء الجزيرة العربية التي لا يقر لها قرار.

ثم اختفى الصفوة القادة الذين كانوا لزامًا عليهم أن يقودوا هذه النهضة في هذا الخصم أو كانوا قد استكانوا إلى النبطل. وكانت الإمبراطورية قد وجدت نفسها فوق ذلك مضطرة إلى امتصاص شعبين حديثين لكنهما بدائيان وأميان: الأتراك في الشرق والبربر في الغرب. لهذا بينما كان الغرب يتابع بدوره تطوره المجدي، كان يبدو أن العالم الإسلامي قد فقد كل ابتداع واخذ يغوص في أساليب الماضي ويرسف في قيوده[2] ويتعامى عن ثبوت الحاضر والقابل فيظل عنهما في عزلة وسكون.

وإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب العميقة لهذه الحال، ولهذا الانصراف الجماعي يجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام لم يكن مسئولًا عن ذلك، وأه ينبغي أن ننسب للجو واتجاهات الشرقيين الفسيولوجية النصيب الذي يعود إليهم في أمر الامتناع عن الكفاح ويجب أن نعترف كذلك أن بذل الجهود بالنسبة لشعوب قديمة متحضرة لم يعد له جاذبية الشيء المجهول، وأن أساليب الحياة التي ظلت يقظة فترة طويلة جدًا من الزمان في حاجة إلى راحة تجدد نشاطها. إن العرب عندما استناموا إلى مجدهم القديم، والتفوا برداء منزلتهم السابقة، واقتنعوا بأن لهم الصدارة الروحية لم يلقوا بالًا إلى أن إمبراطورية العالم قد خرجت من قبضة أيديهم.

---

(1) .. إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ.. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة والنظام، وبسط الملك، وجميل الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الحريم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة [عن قصة الحضارة –عصر الإيمان– تأليف ول ديورانت. يرجمة محمد بدران. ص ٣٨٢] (المترجم)

(2) كل ذلك بسبب الاستعمار (المترجم)

وأن هذا التفسير ومثله هو التفسير الذي يقتضي أن تقدمه[1].

بيد أن الزمان قد ولى..

وفي القرن الماضي لم يبق شيء من هذا المجد الذي كانت عليه بغداد، مدينة هارون الرشيد الساحرة القاسية. فتحولت القصور ترابًا، وأصبحت خليطًا من العماء. وفي تلك المدينة التي كانت ذات يوم بابل العظيمة، تقوم مخيمات من البدو. وليس شاطئ سوريا غير مقبرة طويلة لمدن قديمة مدفونة[2] والقلاع وحدها التي أقيمت من أكليكيا إلى البحر الميت هي التي لا تزال باقية من غير تدمير على الرغم من كل شيء كأنها علامات لسلسلة أعمال بطولية. كانت هذه القلاع تؤوي «سكانًا بائسين وفي السور الحجري للمدن التي دمرها البشر أو الزمن، تتلاصق مساكن من الملاط المخلوط بالقش. وهي مساكن قذرة تعلوها ثياب رثة يتصاعد منها بخار، ورائحة إنسانية وحيوانية ترتفع تحت المشمس المحرقة، وعندئذٍ نفكر على الرغم منا في أشعار عمر الخيام.

... آه! آه ..!

أين الدفوف الرنانة ونداءات الطبول[3].

إن المدن القليلة التي بقيت من آثار الإمبراطورية الإسلامية تعيش غارقة في حياة من الخمول لم تعد تجرب شيئًا وتجرى بلا مبالاة ومن غير إصغاء إلى ضجيج الماضي. وطيلة ٧٠٠ عام، ظل الكيان العام والاقتصاد من غير تغيير، وبقيت

---

[1] نكرر القول بأن ذلك كله يرجع إلى الاستعمار الذي كانت مهمته الأولى القضاء على كل طاقات الإنتاج في هذه البلاد ليبقى له الصدارة والابتكار في كل شيء. (المترجم)

[2] كانت هذه المدن القديمة المدفونة تحتوي على آثار الحضارة في الفنون هي حضارة الشرق الأدنى، تلك الحضارة التي اعترف بها الغربيون على أنها أعظم حضارة والتي أخذ عنها اليونانيون حضارتهم ثم نقلها الغربيون عنهم، (المترجم)

[3] لم نجد هذين البيتين فيما هو مترجم إلى العربية من رباعيات الخيام. (المترجم)

أساليب العامل تتكرر ثابتة بلا تغيير على مر العصور، في دمشق كما في تونس، كما في فاس، وتستمر الحرف القديمة وفقًا لنسق عريق في القدم. ولم تعد الطبيعة نفسها تتذكر رخاءها الذي لم يكن له مثيل. ولم تعد هذا السهول التي كان يرويها نهر دجلة والفرات، والتي كانت مخازن العالم القديم، وهذه المساحات الشاسعة من الأرض الخصبة التي عاش عليها ملايين من البشر في رخاء، إلا صحراء مجدبة تثير الحزن والألم. ولم يعد ممكنًا أن تنبض بالحياة مرة أخرى هذه القناطر المدمرة ولا هذه القنوات التي جفت والتي أهملت لولا وجود النهب التي اجتيحت على الدوام. وفي الشرق الأدنى كله، لم يعد الريف إلا مساحات من الأعشاب الكثيفة التي تبعث على الحزن، ومن الحشائش مع بعض حدائق من الفاكهة يعلوها الغبار. وعلى مسافات متباعدة، تجد قرى صغيرة تدعم أسوارها الخارجية بعضها بعضًا لتشكل متاريس ضد غزوات البدو الرحل. ويفوح من هذه القرى روائح الخراف وتضطرب الليالي فيها بسبب نباح الكلاب الضالة الحزين وهنا وهناك، تعتصم بمض الضباع في حذر خلف أسوار من الصبار.

كان ذلك هو منظر هذه الأمكنة الكئيبة في بداية هذا القرن[1].

وتزرع على الدوام –كما كانت تزرع في العصور الموغلة في القدم– في مصر وفي سوريا وفي المغرب حقول بالمحراث أو بالفأس، وتنتج الأرض بشق الأنفس ما يتبلغ به البشر. ويفتت نظام التوريث الملكيات إلى ما لا نهاية له، فيملك الواحد

---

[1] لقد بدأ العالم الإسلامي في بداية هذا القرن. بفضل الحركات التحررية التي عمت شعوبه ضد الاستعمار –بدأ ينفض عن كاهله ما يعانيه من الفقر والمرض والركود فأخذ يعمل بجد وعزيمة وإيمان لاستعادة مجده القديم. ونجد في هذا العالم الإسلامي الآن نهضة مباركة قوية في جميع المرافق الحيوية تنبئ بأن هذه البلاد من المحيط إلى الخليج ستستعبد عما قريب ما كان لها من حضارة أشرقت على العالم كله. وحسبنا أن نقول إنها بالفعل حققت الشيء الكثير من أسباب الرقي وأنها رفعت عن كاهلها ما كان يطوقها الاستعمار به من قيود. المترجم)

شجرة زيتون، وشجرتين من النخيل هناك، ولا يبقى أي إصلاح زراعي ممكنًا[1]. ويشكل عدم انتظام الجو والجفاف أمام الفلاح الذي يتخلى عنه جميع الناس والطبيعة ارتباكًا مستمرًا وهكذا تبرز مشكلة حفظ الحياة قائمة ملحة وفي غاية القسوة.

ومع ذلك، فإن شعوب العالم الإسلامي ما عدا الجزيرة العربية قد وهبت لها تربة غنية وخصبة. لكن الزراعة تتطلب حب الأرض، ويوجد في هذه الربوع الإسلامية خصم لا يهدأ، خصم يحافظ على استقلاله ألا وهو البدوي[2].

---

(1) لا شك في أن هذا التعميم كثيرًا من المبالغة. (المترجم)

(2) سيتناول المؤلف في كتاب آخر مقبل من هذه المجموعة: صحوة العالم الإسلامي وتاريخه في العالم الحديث. (الناشر)

الفهرس

الباب الأول

الأسس

الباب الثاني

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

الباب الرابع